دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء

(مرحلة انتشار الإسلام)

د. عطية مخزوم الفيتوري

أستاذ مشارك - قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة قاريونس

منشورات

جامعة قاريونس

بنغازي

دراسات في تاريخ شرق إفريقيا
وجنوب الصحراء
(مرحلة انتشار الإسلام)

رقم الايداع 3347 / 98
دار الكتب الوطنية - بنغازى

الطبعة الاولى 1998 م .

منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي

الإهـداء

إلى زوجتي وأبنائي

وليد وأيمن وأسامة وأحمد ومحمد

أبناء هذا الوطن الذي هو جزء من إفريقيا .

توطئــة

ليس هناك قارة من قارات العالم تعاني من مساوىء الاستعمار قدر ما عانته ولا زالت تعانيه القارة الإفريقية حيث تعرضت لاستنزاف واستغلال ثرواتها ومواردها. كما تعرض سكانها إلى أبشع صور الاستغلال والإبادة. هؤلاء الأفارقة سواء داخل قارتهم أو خارجها يلقون معاملة وتفرقة من المستعمر بشكل لا مثيل له في أي قارة أخرى، كما تعرضت لما هو أسوأ من ذلك وهو الإساءة لتاريخها وحضارتها ونشر الاعتقاد بأن الأفارقة لا تاريخ لهم.

وكان انتشار الإسلام وتأثيراته في المجتمعات الإفريقية هو المحور الرئيسي والمستهدف بالدرجة الأولى حيث تحمل ولا يزال الجزء الأكبر من حقد وهمجية الغرب الاستعماري فحاولوا طمس وتشويه هذه المرحلة من مراحل تاريخ وحضارة القارة في ظلّ الإسلام.

إن الهدف من دراسة انتشار الإسلام في إفريقيا كموضوع خاص في تاريخ إفريقيا هو تقديم الخطوط الرئيسية لتاريخ هذه القارة وبصفة خاصة تلك الأقاليم الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

إن المصادر والمراجع الأجنبية أو تلك التي استقت معلوماتها عنها غالباً ما تسمي هذا الجزء من إفريقيا باسم (نيجرو إفريقا) (Negro- Africa) أي إفريقيا الزنجية، وهذا الاصطلاح غير علمي وغير دقيق وهو مصطلح استعماري ينبع من أهــداف ودوافــع استعمــاريــة استخــدمــه علمــاء الأجنــاس والمــؤرخــون

كاصطلاح يطلق على السكان الذين تغلب بينهم العناصر السودانية وشعوب البانتو وكذلك السودان الأوسط، وهو غير صحيح ولا يصح إطلاقه عليهم من الناحية العلمية والنظرية والواقعية وهذه الكنية تعتبر إهانة لشعوب المنطقة، فكلا الشعبين (البانتو والسوداني) له اسمه الخاص به ويمكن إطلاقه ليعم جميع الشعوب السودانية وشعوب البانتو ونحن لا حاجة لنا للتمسك أو ترديد هذا الاصطلاح. وهناك اصطلاح آخر وهو الشائع الآن وهو إفريقيا السوداء ولو إنه أيضاً غير دقيق إلا أنه شاع استخدامه لأن كل الشعوب الإفريقية تقبله ولا تعتبره إهانة لها، ولكن الأصح هو تسمية الإقليم وسكانه بإفريقيا جنوب الصحراء.

إن اصطلاح إفريقيا الزنجية المشبوه خصص لذلك الجزء من إفريقيا الذي تسكنه شعوب فاتحة اللون، وهذا يحمل في طياته بذور الكراهية والحقد العرقي إذ إن هذه التسمية وضعت بالأساس لتبين اختلافات عرقية وتركز على أهمية الشعوب الشمالية في التاريخ، ويحدد لقب «نيجرو» صفة خاصة للشعوب الساكنة في إفريقيا السوداء على إنهم عرق منفصل عن شعوب الشمال الإفريقي وقد استخدمت هذه التعبيرات كسلاح للنيل من هذه الشعوب وكسلاح استعماري يبرر أهداف الاستعمار الدولية تجاه هذه الشعوب حيث يعني أن الشعب الأسود هو شعب أدنى خُلق ليخدم الجنس المتفوق وهو الجنس الأبيض.

إن هذا المفهوم العرقي لا يمكن قبوله فليس هناك أجناس متفوقة ممتازة وأخرى أقل منها، فالعرق والاختلافات البيولوجية ليست هي التي تحدد بأن هذا الشعب متفوق إنسانياً وحضارياً على شعب آخر، ولكن البيئة الثقافية وكذا الظروف الاقتصادية هي التي تتحكم في مدى تفوق شعب على آخر وتبرز دوره في الحضارة البشرية جمعاء.

لذلك فليس من الصواب تقسيم إفريقيا طبقاً لوجهة النظر التاريخية إلى قسمين: إفريقيا العربية أو الشمالية وإفريقيا السوداء وذلك بسبب لون بشرة

سكانها كما وأن التكلم عن جنس أسود أو زنجي متجانس يقطن في المناطق الاستوائية أو جنوب الصحراء إنما هو خطأ من الناحية العلمية ومن وجهة النظر العرقية حيث أن:

1 ـ من وجهة نظر علم الأجناس فإن إفريقيا الزنجية مكونة من عدة جماعات عرقية، فلون البشرة لشعب «الخوي خوي» أو «الهتنتوت» والبوشمان اللذان يسكنان في جميع مناطق جنوب القارة ليس أسود بل أصفر.

كما وإن الأقسام الشمالية من إفريقيا الاستوائية أي السودان الغربي والأوسط تسكنها مجموعة من الشعوب التي لا ترتبط بالجنس الزنجي بل نجدهم بالعكس يرتبطون بشعوب إفريقيا الشمالية كما أن العديد من سكان أقاليم ووسط وشرق إفريقيا تشمل العديد من العناصر العربية، بينما نجد سكان مدغشقر قد اندمجت بها عناصر ماليزية.

2 ـ كانت إفريقيا مثل بقية القارات مسرحاً لهجرات أعداد كبيرة من الشعوب الأخرى خلال الآف السنين وترتب على ذلك خلق شعوب متمازجة مختلطة بينما نجد العرق الصافي النقي بقي فقط في مخيلة الاستعماريين من علماء الأجناس الجرمان والأنجلو سكسون والصهاينة.

وطبقاً لزعم هؤلاء العنصرين فإنه لا يوجد تاريخ لإفريقيا السوداء ولا يمكن أن يوجد، ولكن الدائم الباقي إنما هو تاريخ مئات الشعوب والقبائل التي تعيش في هذه المنطقة من العالم وكذلك تاريخ الاتحادات القبلية ونماذج لدول أنشؤوها هم أنفسهم عبر التاريخ.

والذي يعيش في مخيلتنا إنما هو ذلك التاريخ الأسود الدامي البغيض لاستعمار الغزاة الأوربيين، فمن وجهة النظر الانثروبولوجية واللغوية نجد العديد من الأجناس الإفريقية قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً مع بعضها بينما البعض الآخر رغم أنهم يعيشون في حوار مشترك مباشراً أو معاً في إقليم ما يرجعون إلى مجموعات جنسية وعرقية ولغوية مخالفة.

ففي بعض فترات التاريخ الإفريقي نجد إن العديد من دول إفريقيا الاستوائية والجنوبية لها ملامح مشتركة في تطورهم الاجتماعي والاقتصادي بينما نجد البعض الآخر يختلفون عنهم، فتاريخ هؤلاء هو تاريخ هذه الشعوب والأقطار التي يجب أن يدرس كل منها على حده.

ورغم أن إفريقيا السوداء، طبقاً لآراء هؤلاء، إقليم مسكون بشعوب قد ارتبطت برباط عرقي موحد، هو مفهوم خاطىء، غير أننا يجب الا ندرس تاريخ وشعوب هذا الجزء من إفريقيا كوحدة بصرف النظر عن العلاقات العرقية وذلك لأن مصائر هذه الأقطار والشعوب قد ارتبطت بالتاريخ نفسه.

لقد بقيت أقطار إفريقيا السوداء غالباً أرضاً مجهولة حتى مطلع القرن العاشر، فشعوب أوربا وآسيا لم تكن لديهم أدنى معرفة أو دراية بهذا الجزء من العالم باستثناء بعض المحاولات البسيطة لاكتشاف ما أطلق عليه العالم القديم والوسيط اسم (القارة الغامضة) والاتصالات التجارية التي قام بها العرب في بعض الأقاليم الإفريقية خاصة على السواحل الشرقية فإنه لم يكن هناك اتصال بين شعوب هذه الأقاليم الشاسعة والعالم الخارجي، فتاريخ العالم المتحضر سار في مجراه الخاص، بينما سارت الأقاليم الموحشة في إفريقيا في طريقها الخاص، وقد رفض العديد من المؤرخين إضفاء شرف مشاركة هذه الشعوب في سير وعطاء الحضارة الإنسانية فمن بين كل عشرة مؤلفات عن تاريخ العالم القديم والوسيط نجد تسعة منها تتناول تاريخ وشعوب أوربا وآسيا وشمال إفريقيا ولا تذكر كلمة واحدة عن شعوب ودول إفريقيا السوداء أو إفريقيا الصحراء.

ورغم الاتصال بالعالم الخارجي فإن أغلبية الشعوب الإفريقية ما زالت تعيش حياة بدائية والكثير منها يعيش في أدنى مراحلها والبعض منها ما يزال يعيش في عزلة تامة، فالدولة طبقاً للاصطلاح المتداول هي مفهوم غير معروف عند العديد من الشعوب الإفريقية، كما وأن النظام معدوم لديهم، وهما وإن

وجدا لا يزالان في حضانة التطور الإنساني لذلك فليس من الواقع أن نتكلم عن تاريخهم طبقاً للمضمون العلمي للكلمة قبل ظهور الغزاة الأوربيين وبكثير من الدقة فإن دراسة التاريخ المبكر للشعوب الإفريقية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدراسات الإقليمية الاتنوغرافية بقدر عدم ارتباطه بعلم التاريخ نفسه.

وهناك ظاهرتان عامتان تتصف بهما الأقطار المتقدمة المتطورة وكذلك الأقل تطوراً من إفريقيا السوداء وهما:

1 - العزلة التامة عن أقطار العالم الخارجي في الأزمان القديمة والوسيطة.

2 - ندرة معرفتنا وضعف ما نعرفه عن تاريخهم في هذه العصور.

وهذا ما يدفعنا إلى تناول التاريخ الإفريقي في العصور القديمة والوسيطة بالمناقشة والتحليل وخلال هذه المراحل كوحدة تاريخية تجمع تاريخ تلك الأقطار التي تلتقي معاً في بعض الظروف التاريخية والحضارية المماثلة وكذلك تلك التي تختلف معها في بعض ظروفها مع الأقطار الأخرى.

ومع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر دخلت أقطار إفريقية كثيرة في مرحلة التاريخ المكتوب وأصبح يتوفر لدينا مصادر مكتوبة عن العديد من هذه الأقطار.

وقد ظهرت أمامنا مجموعتان من الدول التي تعيش حياة تخضع لنفس الظروف التاريخية والاجتماعية والعقائدية وهما مجموعتا أقطار إفريقيا الاستوائية والجنوبية وقد ظهر عامل جديد في تلك البلاد ربط بينهما وهو سيادة الرأسمال الأجنبي في حياة البلاد الاقتصادية. فمنذ مطلع القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر شنّ الأوربيون الغارات الوحشية على البلاد بحثاً عن الذهب والرقيق وأدى ذلك إلى غزوهم لبعض سواحل القارة. وفي القرن التاسع عشر تتابعت الحملات العسكرية بالمنظمة بهدف احتلالها واستعمارها، وتتابعت الحروب والمنازعات بين الغزاة أنفسهم لتقسيم الغنيمة وتوزيع مناطق النفوذ.

كل هذا جعل دراستنا لهذه المنطقة يخضع لمفهوم وطريقة تجعلنا ندرس تاريخ إفريقيا كمجموعة من الدول المرتبطة بعضها ببعض بنفس المصير التاريخي لشعوبها مبتعدين عن المفهوم الخاطىء الذي لا أرضية له في واقع التطور التاريخي والحضاري والذي يزعم بأن إفريقيا السوداء هي تلك المنطقة التي تربطها روابط عرقية واحدة توحدها وتجمع بين سكانها «أي العنصر والعرق الزنجي» هو الذي يجمع بينها جميعاً ـ وهذا كما رأينا مفهوم خاطىء فإفريقيا ليست مسكونة بشعب واحد أسود بل هناك شعوب أخرى مختلفة ولزاماً علينا أن نتحقق من صحة المفاهيم المتقدمة عن مسألة العقيدة والقومية في إفريقيا ونربط ذلك بانتشار الإسلام فيها للتدليل على الدور الطليعي الذي لعبه العرب قبل الإسلام وبعده في تاريخ القارة الإفريقية.

إن الهدف الأساسي لهذه الدراسة هو الدعوة إلى التعمق في تاريخ الشعوب الإفريقية التي انتشر فيها الإسلام وأصبح المحور الرئيسي لحياتها الفكرية والروحية وأن نربط كذلك بين الاتصالات القديمة للعرب القدماء بالقارة وكذلك خلال مراحل التاريخ المختلفة ورغم أننا نجد مادة تاريخية كثيرة عن التاريخ الإفريقي غير أن القيمة العلمية وأمانة معظم تلك المؤلفات تخضع للأسف لميول وأهداف مريبة، فالمؤلفون الغربيون بدلاً من تحليلهم للدوافع الاجتماعية والاقتصادية للتطور التاريخي للشعوب الإفريقية يوجهون جهودهم نحو غاية أخرى، فمن ناحية نجدهم يدخلون حلقة مفرغة من البحث عديم الجدوى والذي لا يرتبط بمشاكل العصر الملحة، بل يغرقون المكتبات بمؤلفات تدور حول أصل الزنوج أو عن أسرار خرائب زيمبابوي، ومن ناحية أخرى نجدهم يدرسون بعض الظواهر الثانوية للتاريخ الإفريقي فيكتبون الكثير عن حياة وقادة ما يسمى بعصر الكشف الجغرافي لإفريقيا أو حركة التبشير المسيحي ودوره في تطوير البلاد، وهم عندما يتناولون بالبحث والدراسة جوهر المشاكل الإفريقية وماضي التطور الاقتصادي والتاريخي لشعوبها فإنهم يطفون على مستنقع الاستغلال الاستعماري البشع ليخدموا مصالحهم فيزيفون الحقائق

ليرروا محاسن الاستعمار المزعومة حول تطوير الشعوب الإفريقية، ثم لا ينسى هؤلاء الدس للعرب والمسلمين واتهامهم بأنهم من كبار تجار الرقيق وبأنهم سبباً في تأخير هذه القارة.

وتعتبر معظم المؤلفات المكتوبة عن إفريقيا عبارة عن حوار «ديالوج» وجدال لذكر محاسن الوجه البشع للاستعمار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، والفرق الوحيد بينها هو أن البعض يذكر محاسن الاستعماري البريطاني والآخر الفرنسي وهكذا، بينما نجد البعض الآخر منهم يحاول إضفاء صفة الشرعية على هذا النوع من الاستعمار بينما يحاول البعض الآخر منهم جلاء الفروق بين طرق الاستغلال المختلفة.

لذلك فإن أهداف دراسة التاريخ الإفريقي يجب أن تتجه نحو:

1 ـ التوصل إلى طريقة واضحة للكشف عن الزيف الاستعماري وإظهار الأهداف الحقيقية للمؤرخين المستعمرين.

2 ـ جمع وفرز وانتقاء الحقائق التاريخية من محيط الزيف والتزوير لتاريخ إفريقيا وإبرازها للأضواء في صورة واقعية تخدم الحقيقة لاستخراج العبر.

وإضافة إلى الأهمية العلمية المزدوجة لوجهة النظر التاريخية هذه، فإن دراسة التاريخ الإفريقي تختلف اختلافاً واضحاً بالنسبة لوجهات النظر السياسية والتاريخية ترتكز على أسس إيجابية للجرائم التاريخية المكشوفة التي ارتكبها العالم الرأسمالي خلال قرون.

إن شعوب إفريقيا السوداء اليوم منها ما يزال تحت نير الاضطهاد ويكافح في سبيل حريته ومنهم من استقال فهم جميعاً لا يزالون معرضين للاستغلال الأوربي في صوره المختلفة ولا يمكن أن نفصل أي دراسة لتاريخ الشعوب الإفريقية عن وجهات النظر السياسية المختلفة. فهذا التاريخ يعتبر وثيقة سياسية وجزء من قائمة الحساب والدين الذي سوف يؤديه في الوقت المناسب أحفاد تجار الرقيق والغزاة وسفاكي دماء الشعوب الإفريقية فيما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر.

وأخيراً، فإن دراسة التاريخ الإفريقي له مضمون وأهمية سياسية من وجهة نظر أخرى فهي ستعمل على إثراء خبرات الشعوب الإفريقية في حاضرهم ومستقبلهم وتوطد كفاحهم ضد الامبريالية في سبيل حريتهم واستقلالهم.

ولتحقيق هذا الهدف فإنه من الضروري خلال دراسة الحقب التاريخية للشعوب الإفريقية كل على حدة أن نجمع ونحلل بكل دقة أي مادة أو تفاصيل ولو كانت بسيطة ونجمع بينها وبين تاريخ المقاومة والكفاح التحرري لهذه الشعوب ونركز على الحقائق لنخرج منها بنتائج إيجابية أو دروساً سلبية لهذا الكفاح.

لكل هذه الأسباب راودتني فكرة إعداد هذا الكتاب وشجعني عليها أيضاً قيامي بتدريس مادة تاريخ إفريقيا لسنوات طويلة لطلابي بالمرحلتين الجامعية والعليا وإشرافي على رسالتي ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر. وهو محاولة لتسليط الضوء على هذا الجزء من القارة الذي شهد حركة واسعة لانتشار الإسلام وقيام دول وممالك إسلامية مزدهرة، مستهدفين إبراز السمات والخصائص العامة لها من خلال التطور السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، آملاً أن يجد فيه طلابي بعض الإجابات لتساؤلاتهم ومناقشاتهم التي كانت على الدوام خير مشجع وحافز لي على إعداده.

والله من وراء القصد...

المؤلـــف

د. عطية مخزوم الفيتوري

أستاذ/ مشارك بقسم التاريخ

جامعة قاريونس ـ بنغازي

بنغازي/صيف 1997

الفصـــل الأول

شعـــوب إفريقيـا قبـل نهايـة القـرن الخامـس عشـر

شعوب إفريقيا قبل نهاية القرن الخامس عشر

لقد آثرنا في هذا الفصل دراسة شعوب وقبائل. إفريقيا جنوب الصحراء حتى نهاية القرن الخامس عشر لسببين رئيسيين هما:

أولاً: إن هذه الشعوب خلال هذه المرحلة وكما درسنا في العرض السابق عاشت في عزلة شبه تامة ولا يوجد أي اتصال بالمعنى الحقيقي بينهم وبين الشعوب الأوربية طيلة هذه الفترة لذا اتخذ التشكيل السكاني لهذه المنطقة سمات خاصة ومحدودة يمكننا دراستها بشكل مستقل.

ثانياً: منذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ازداد اهتمام وتدخل الأوربيين في أقاليم عديدة نتيجة ما يسمى لديهم بحركة الكشوف الجغرافية وأصبح مصير الشعوب الإفريقية منذ تلك اللحظة مرتبطاً بتاريخ الشعوب الأوربية عامة وبنشاطهم الاستعماري بصفة خاصة لذلك اتخذت هذه المرحلة سمات خاصة تختلف عن المراحل السابقة حيث تغيرت التشكيلات السكانية وتكوينات القبائل حسب الأوضاع الاستعمارية في كل منطقة وهذا بطبيعته يدخل ضمن التاريخ الحديث لهذه المنطقة وهو خارج نطاق دراستنا.

وبسبب تعدد شعوب وقبائل دول إفريقيا فإننا لن ندرس تاريخها بالمعنى الدقيق لمفهوم التاريخ بل سنحاول دراسة تطورهم الحضارى والاقتصادي والسياسي والاجتماعي حتى الغزو الأوربي، ولدراسة هذه الموضوعات فإنه من

المحتم علينا أن نأخذ أولاً فكرة واسعة عن هذه الشعوب التي سندرسها وإلى أي المجموعات الاتنوغرافية ينتمون؟ وكيف كان توزيعهم الجغرافي في مواطنهم؟ وما هي الأقاليم التي كانوا يسكنونها في بداية عصر التدخل الأوربي؟ وماذا عن هجراتهم وعلاقاتهم الحيوية أي تلك العلاقات العدوانية والسليمة واندماجهم. . . الخ؟ كل هذا في فترة تاريخهم المبكر حتى نهاية القرن الخامس عشر.

إن الكثير من المؤلفين عندما يكتبون عن تاريخ الشعوب الإفريقية وبصفة خاصة عن تاريخهم قبل التدخل الأوربي نجدهم يهتمون بالدرجة الأولى بأصول الأجناس الإفريقية والاختلافات العرقية بينهم وهذا الموضوع لا يهمنا في دراستنا هذه فكل ما نهتم به هو الظروف المهيأة لنشأة وتطور هذه الأجناس وتوزيعهم الإقليمي وتطورهم الاجتماعي الاقتصادي ومميزاتهم اللغوية التي تربط بينهم وأخيراً المميزات الحضارية، ونحن عندما نقسم الشعوب الإفريقية إلى مجموعات فإننا لا نقوم بذلك، تبعاً لانتماءاتهم العرقية بل طبقاً لأربعة عناصر أساسية في تشكيل الشعوب وهي التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري ويجب علينا من هذه الزاوية أن نواجه الحقائق التي نعرفها عن حياة وتطور الشعوب والقبائل الإفريقية قبل التدخل الأوربي.

أهم المجموعات البشرية للشعوب الإفريقية

ينتمي معظم سكان القارة الإفريقية فيما عدا الشمال الإفريقي إلى ثلاثة مجموعات كبيرة وهي:

1 ـ تلك التي تعيش في أقاليم السودان وهي عبارة عن مئات القبائل والشعوب التي تتكلم اللغات السودانية، والسودان بمفهوم العصر هو ذلك الإقليم الواقع بين الصحراء الكبرى وخط الاستواء وتمتد حدوده الشمالية على الخط الوهمي الذي ينحني ويتعرج من بدايته عند مصب نهر السنغال ويمر خلال

تمبكتو إلى الخرطوم وكسلا، بينما يمتد خط الحدود الجنوبية من سواحل غينيا على طول خط عرض 5 شمالاً حتى الحدود الأثيوبية.

2 ـ القبائل والشعوب التي تسكن الأقاليم الإفريقية الواقعة جنوب السودان وهي تقريباً نصف القارة الجنوبية وهي أقاليم الشعوب والقبائل التي تتكلم لغات البانتو.

3 ـ المجموعة الثالثة وهي التي تسكن الأقاليم الإفريقية الواقعة شمال وشرق السودان ثم الزاوية الشمالية الشرقية لإفريقيا والتي تشمل أثيوبيا وأريتريا والصومال وجزء من كينيا شرقاً وتسكنها شعوب تتكلم اللغات الحامية والسامية.

وكل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث هي مجموعة أساسية كبرى تمثل قبائل عديدة تسكن مناطقها المذكورة منذ أزمان غابرة وكانت من حيث العدد تتغلب على غيرها من الشعوب التي تعيش بينها إما منفصلة أو مندمجة معها.

وإلى جانب هذه المجموعات الثلاث الكبرى تعيش ثلاث مجموعات صغرى من الشعوب الإفريقية هي:

1 ـ قبائل الخوي خوي والساءان في الركن الجنوبي الغربي.

2 ـ مجموعات البيجامي أي الأقزام وهم موزعون في مجموعات صغرى داخل الغابات الاستوائية لإفريقيا الوسطى.

3 ـ قبائل ملاجاش (مدغشقر) التي تتكلم لغات ماليزية وأندنوسية.

وقبل الحديث بشيء من التفصيل عن هذه المجموعات القبلية يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على إفريقيا فيما قبل التاريخ. فبالنسبة للعصر الحجري القديم فقد اكتشف في جنوب إفريقيا منذ عام 1920 أول مواقع للإنسان القديم شبه المعتدل حيث وجدت له جماجم وأدوات بدائية حجرية وهذه الأدوات كانت من

صنع الإنسان الأكثر تطوراً وهو الاكتسرويين وتعتبر تنجانثيما من أقدم المناطق التي وجد بها بقايا إنسان العصر الحجري القديم[1] كما اكتشف حديثاً في كاتانجا بعض الكهوف المدفونة التي يرجع عمرها إلى حوالي أربعمائة ألف سنة ق. م تحتوي على أدوات ترجع إلى الحضارة المسماة بالبيل كلتشر وهذه الأدوات كانت تستعمل في الصيد أو في الدفاع عن النفس، أما العصر الحجري الوسيط فقد تميز بتطور ملحوظ في الصناعات اليدوية الحجرية وتنوعت أشكالها التي أصبحت على هيئة سكاكين دائرية أو محدبة، ومخلفات إفريقيا في هذه المرحلة لا تحصى وقد وجدت في أماكن عديدة مثل الشمال الإفريقي والحبشة والصومال وكينيا وأنجولا والكونغو وإفريقيا الجنوبية.

أما العصر الحجري الحديث فإنه تميز بتقدم واضح في مظاهر الحضارة الإفريقية حيث تجسدت فيه مظاهر مسكن الإنسان الإفريقي وتطور الصناعة ومنها الأسلحة ومواد وأدوات الزينة وتطور الأدوات الحجرية كما بدأ في هذا العصر ظهور الفن المرسوم[2].

(1) الشعوب السودانية:

إن غالبية سكان إفريقيا أي سكان الأقاليم التي تحدها الصحراء وساحل غينيا العليا وامتدادها على خط 5 شمالاً أي من المحيط الأطلسي إلى النيل إلى جانب العناصر العربية تشكل الأسرة الكبرى للشعوب السودانية والسودان الذي نعنيه هنا هو ذلك الإقليم الواسع الذي يحوي كل بلاد الأفارقة أصحاب البشرة السوداء وهي المنطقة الممتدة في قلب القارة من الغرب إلى الشرق ثم تحدد بعد هذا اسم السودان على تلك المنطقة شبه الصحراوية والتي تغلغل فيها الإسلام

(1) فريد اليحكي، «إفريقيا فيما قبل التاريخ» محاضرات الموسم الثقافي الأول 79 ـ 1980» طرابلس، مركز الجهاد، 1989، ص 100.
(2) نفس المصدر، ص 101 ـ 102.

والتي تعرف بغرب إفريقيا، وترتبط هذه الشعوب برباط يوحدها وهو بالأساس اللغة ثم العناصر الحضارية بالدرجة الثانية، كما وأن الغالبية لهذه الشعوب ترتبط بأصل واحد. ونجد بين القبائل السودانية العديد من القوميات الأخرى التي تختلف في أصولها عن السودانيين، ولم تحتفظ شعوب هذا الإقليم بنقاوة عرقهم وخصائصهم الاثنوغرافية فنجدهم شعوباً مختلفة العرق يحملون خصائص عرقية وخليطاً حضارياً مستمد من العناصر الحامية والسامية خلال عدة عصور مثل الهوسا والنيليون[3] كما وأن هؤلاء السودانيين لم يكن تقدمهم الاجتماعي والاقتصادي بنفس الدرجة المتجانسة الموحدة بين شعوبهم وبطونهم المختلفة، وقد اختلف مصيرهم التاريخي وسماتهم التي كان لها طرازاً وأشكالاً مختلفة، فقد كان للبعض منهم دولاً خاصة بهم وصناعات يدوية متطورة في العصور الوسطى كالهوسا مثلاً، بينما بقي البعض يعيشون نظماً اجتماعية واقتصادية بدائية مثل قبائل شمال نيجيريا الوثنية وذلك حتى القرن التاسع عشر[4].

لقد استقرت الشعوب السودانية خلال قرون عديدة في مجتمعات زراعية وكانت أراضيهم خلال العصور القديمة هدفاً لإغارات وغزوات الشعوب البدوية الرعوية التي كانت تعيش شمال السودان في دواخل الأقاليم الشرقية والوسطى أي في الصحارى وغيرها من مناطق البحر المتوسط. كما رأينا ومن خلال تصارعهم ضد القبائل المعادية نشأت بينهم عدّة تحالفات واتحادات قبلية، وقد اختلفت تلك الاتحادات التي قامت بين القبائل الضعيفة أمام القبائل المعادية القوية والتي أنشأت عدد من التشكيلات القبلية ذات طابع الدول المستقبلة وكانت الدولة منها تجمع عدداً من تلك الاتحادات، هذا بينما استقر الغزاة

(3) حسين عيسى عبد الظاهر، **الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني**، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1981 ص 35.

(4) للمزيد من المعلومات انظر:

دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، بيروت، دار المعرفة.

أنفسهم في الأقاليم المفتوحة وهجروا حياة البداوة، واختلطوا بالأفارقة المهزومين وقد نقلوا إليهم بعض عناصر حضارتهم وأخذوا لغات وعادات الأغلبية المغلوبة على أمرها[5].

وهكذا قامت عدة دول قديمة في هذه المنطقة مثل غانا التي تأسست في بداية القرن الرابع الميلادي، ثم أن هذه الدولة تحولت فيما بعد إلى امبراطورية إسلامية تحت اسم إمبراطورية مالي ثم تحول هذا الاسم إلى إمبراطورية السنغال[6]. وبنفس الطريقة نشأت دولة كانم (غانم) في شمال بحيرة تشاد وقد أنشأتها قبائل (التيبو) ولكنها سرعان ما خضعت للعرب، كما أنشأ العرب في الأجزاء الشرقية من السودان دولة دارفور السودانية وذلك من بين شعوب كنمبو والتيبو وقد قدم هؤلاء إليها من كانم كما أنشأ العرب دويلات باقرمي وواداي[7].

وفي القرنين العاشر والحادي عشر اعتنقت القبائل الثلاث الكبرى لغرب السودان ودولة كانم الدين الإسلامي وهذا ما قوى سلطة الدولة وبسط السيادة العربية عليها ووسع مجال تجارتها مع الدول الأخرى، كما بدأ النظام في التقلص درجة بعد أخرى وبدأت بالتدريج النظم التي تعتمد في اقتصادياتها على النظم الإقطاعية.

وإلى جانب الفاتحين العرب فقد لعبت عدة شعوب سودانية أخرى دورها

---

(5). يولم، أدنيس، **الحضارة الإفريقية**، ت علي شاهين، بيروت، مكتبة الحياة، ص 28.

(6) أحمد بن خليفة محمد، «**عروبة السنغال وإسلامه**»، محاضرات الموسم الثقافي **الأول**، طرابلس، مركز الجهاد، 1989، ص 368.

(7) للمزيد من المعلومات عن هذه الدول وكيفية إنشاؤها وتطورها راجع مقالة: حسين مؤنس، فزان ودورها في نشر الإسلام في إفريقيا، مجلة كلية الآداب، بنغازي.

في التاريخ الحضاري مثل شعب الماندي وسونرهاي والهوسا والفوللا التي أصبحت سودانية اللغة والحضارة، هذا إلى جانب تلك الشعوب الموحدة السودانية الجديدة التي ظهرت في أراضي دول السودان الأوسط مثل كانوري وباجرمي والدارفوريين، ففي السودان الغربي اتحدت أعداد كبيرة من القبائل الصغرى والكبرى في اتحادات قبلية كبرى بينما امتصت القبائل الكبرى غيرها من القبائل الصغرى التي انصهرت فيها، كما نجحت بعض القبائل الصغرى رغم ذلك في الحفاظ على أراضيهم مع خضوعهم للقوى الكبرى في أقاليمهم، كما نجح البعض الآخر في الحفاظ على استقلاله وذلك بالانعزال في إحدى الأقاليم التابعة للدولة الجديدة، وقد اضطرت بعض القبائل السودانية الغير قادرة على المواجهة مع القوى الجديدة والذين لم يرغبوا في الخضوع لسلطتهم اضطروا إلى الفرار وبمضي القرون قامت القبائل السودانية بالهجرة من دواخل السودان الغربي نحو أربعة اتجاهات: نحو الغرب إلى حوض السنغال وجامبيا وإلى الجنوب إلى سواحل خليج غينيا ثم إلى الجنوب الشرقي إلى أداماوا وخلفها من الإقليم الواقع بين الكونغو والنيل وأخيراً نحو الشرق إلى السودان الشرقي وأثيوبيا[8].

أ ـ شعوب السودان الغربي:

تتكون معظم غالبية سكان السودان الغربي من أربع قوميات كبرى هي: الماندي وسونرهاي والهوسا وهي شعوب إفريقية كبرى استطاعت الوقوف على قدميها أثناء الصراع، أما الرابعة فتشكلت من الشعوب القادمة للمنطقة أي الفوللا وهي شعوب رعوية وقد تحولت إلى شعب سوداني بعد أن اتخذت اللغة السودانية لغة لها كذلك بعض المظاهر الحضارية وأغلبية هذه القبائل والشعوب

---

(8) Zeltner (T) **Pages d'histoire du kanem,** Paris, L, Editions l'Harmantan, 1980- p. 17.

اعتنقت الإسلام في فترات تاريخية متعددة وقد لعب عرب المغرب الأقصى دوراً مهماً في نشر الدين بينهم.

1 ـ الماندينجو:

إن شعب الماندي وهو يشك غالبية السكان في الأقاليم الواقعة بين روافد عليا لثلاث أنهار رئيسية بالغرب هي السنغال وجامبيا وأعالي النيجر وقد انتشروا في جميع أقاليم السودان الغربي الواقعة في جنوب السنغال وأعالي النيجر أي من المحيط إلى قلب نيجيريا وقد تفرعوا إلى عدة قبائل وبطون أهمها البامبارا ـ المالنكي ـ غالونكي ـ السامانكي، وكان الماندينجو هم العناصر الأساسية لشعوب دويلات غرب السودان في غانا ومالي فقد أنشأوا هم أنفسهم دولة مالي التي مارست سلطتها العليا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر وذلك عندما اعتنق رؤساؤها الإسلام مع بداية القرن الثالث عشر وقد استولى سلاطنة مالي على أقاليم كبيرة من غانا وسونرهاي وكذلك تمبكتو إلا أنه حدثت تغيرات وتطورات في منتصف القرن الخامس عشر أدت إلى تجزئة هذه الدولة إلى دويلات صغيرة عديدة[9].

2 ـ سونرهاي (صنغاي):

شغلت الأقاليم الواقعة جنوب تمبكتو وتمتد على ضفتي نهر النيجر[10] إلى الشمال من داهومي عند مدينة داندي إلى جنوب فولتا العليا وشمال نيجيريا[11] ونشأت هذه الدولة أو ما يسمى امبراطورية سونرهاي في القرون

---

(9) راجع الفصل الخاص بمملكة مالي الإسلامية.

(10) إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية، الجزائر، مؤسسة الكتاب، 1984، ص 242.

(11) سينيكي مودي سيسوكو، الصنغاي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، جـ 4، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص 199.



شعوب وقبائل السودان الغربي والأوسط

الأولى الميلادية وأقامت علاقات تجارية وحضارية مع مصر وأعالي النيل ونقلت إليها مصر بعض العادات ومنها ألقاب الملوك بينما نقل إليها السودان الشرقي الدين الإسلامي وسنتحدث عن مراحل تكوين هذه الامبراطورية ودخول الإسلام فيها في فصل لاحق.

3 ـ الهوســـا:

تحتل الهوسا معظم دولة نيجيريا ويقدر عددهم بحوالي خمسة عشر مليوناً[12] وقد كانوا يعيشون في السابق في الأقاليم الوسطى لجنوب الصحراء شرقي نهر النيجر وقد أخرجتهم من مواطنهم قبائل الطوارق فأخذوا يهاجرون نحو الجنوب، وفي القرنين التاسع والعاشر أقاموا لأنفسهم سبع دويلات أساسية منها كانو وكاتنيا وسبع دويلات ثانوية منها كيبي نوب وبوريا وذلك في الأقاليم الواقعة بين النيجر غرباً وبرنو جنوباً أي في معظم النصف الشمالي لنيجيريا اليوم. ومنذ العصور القديمة كان الهوسا يختلفون مع بقية الشعوب السودانية وذلك بتفوقهم في الصناعات اليدوية خاصة صناعة المنسوجات وقاموا كذلك بنشاط تجاري مزدهر بمواطنهم مع الشعوب الأخرى وبنتيجة علاقتهم التجارية فقد تركت حضارتهم طابعها المميز خارج مواطنهم فأصبحت لغتهم هي اللغة السائدة المستخدمة في التجارة والعلاقات الدبلوماسية بغرب إفريقيا وكانت هذه اللغة مفهومة ومتداولة في جميع الأسواق الإفريقية منذ الأزمان القديمة، بل واستخدمها حكام الدويلات السودانية في علاقتهم الدبلوماسية وفي القرن الخامس عشر أخذت هذه الدويلات تعتنق الإسلام الذي انتشر بينها كما أن هذه القبائل قد وقفت موقف الحذر من الاستعمار البريطاني ونفرت من الثقافة الأوربية كما أن المسيحية لم تجد منفذاً بينها بفضل انتشار الإسلام فيها[13]

(12) إبراهيم موسى جوب، ص 9.

(13) زاهر رياض، **الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا**، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968 ص 290.

وهذا ما سندرسه بشيء من التفصيل في فصل لاحق.

4 ـ اليوروبــــا:

ترتكز هذه القبائل في الجنوب الغربي من نيجيريا كما يوجد بعض منها في الإقليم الشمالي، وهناك اختلاف حول المكان الذي جاءت منه هذه القبائل حيث يرى البعض بأنها جاءت من صعيد مصر، بينما يرى آخرون بأنها جاءت من الشرق أي مكة، وفريق ثالث يقول إن مصدرها غرب إفريقيا نتيجة ضغط قبائل يعرب بني قحطان ويرجح حسن إبراهيم حسن الرأي الذي يقول بأنها جاءت من صعيد مصر حيث يوجد تشابه بين عادات وتقاليد الطرفين. وقد انتشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق الفولاني(14) ويجمع الرحالة الأوربيون على أن اليوروبا كانت لهم حضارات عظيمة مزدهرة حيث أنشأوا مدناً عظيمة مثل إيفة وألاويو وكانت تتميز بتنسيق عجيب وكان لكل حي منها طابعه الخاص المميز وكانت منازل الزعماء هي أهم هذه المدن، وكما أن أسواقها كانت تمتاز بالرواج والاستمرار حتى في الأيام التي تكون فيها القبائل مشغولة بحروب مع غيرها من القبائل وزعماء هذه القبائل يحظون بتقدير واحترام كبير من الجميع إذ يسود الاعتقاد بأنهم من سلالة السماء(14م).

5 ـ الفولانــــي:

تعتبر قبائل الفولاني من أهم القبائل الإفريقية من حيث التأثير والانتشار، وقد اختلف المؤرخون حول أصولهم فمنهم من يرى بأنهم من العبرانيين الذين هاجروا من مصر في عهود الفراعنة إلى شمال إفريقيا حتى انتهوا إلى فوتا سنقومايو، ومنهم من يقول بأنهم هم الذين سكنوا البلاد المعروفة الآن بالمغرب

(14) نعيم قداح، «حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية»، دمشق، مكتبة أطلس 1965، ص 54 وما يليها.

(14م) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط 2، القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية، 1964، ص 125.

الأقصى وبلاد الهوسا ثم نزحوا جنوباً عندما أجدبت الصحراء الكبرى[15].

والفولاني هم مجموعة كبيرة من القبائل الرعوية البدوية ولغتهم هي السودانية، وقد أصبحوا خلال مراحل تاريخهم من أهم القوميات الكبرى في السودان الغربي والأوسط، ورغم الاختلافات التي أشرنا إليها فيما يخص أصولهم إلا أنه من الأكيد أنهم قد تسربوا في الأزمنة المبكرة في جميع أقاليم السودان وفي بداية الأمر هاجروا إلى غرب السودان ثم إلى السودان الأوسط واحتلوا أقاليم السنغال الأوسط حيث أقاموا هناك دولة صغيرة لهم ومنها تسربوا نحو الشرق والجنوب، وفي نهاية القرن الثالث عشر وصلوا إلى غربي إفريقيا وأصبحوا تابعين لإمبراطورية غانا التي زحف عليها المرابطين فيما بعد فاعتنق معظم الفولاني الموجودين بها الإسلام مع الوفود التي اعتنقته آنذاك. وبعد استيلاء مالي على غانا في نهاية القرن الثالث عشر أصبحوا جزءاً من المملكة الجديدة وازداد انتشار الإسلام بينهم، وبعد سقوط مالي خضعوا لإمبراطورية السنغاي التي سقطت أيضاً عقب الزحف المراكشي وقد زادت مكانة الفولاني في هذه البقاع لأن الاحتلال المراكشي لم يستطع أن يوطد سلطانه على جوانب الإمبراطورية وقد أتاح لهم ذلك أن يندفعوا نحو الشرق وانتشروا كرعاة بين القرى الزراعية ونشط التجار في البيع والشراء وما إن جاء القرن السادس عشر حتى ازدادوا قوة وقويت بوجودهم إمارات الهوسا التي استقروا بها[16].

لقد تمكن الفولانيين من تأسيس إمبراطورية كبيرة حيث اهتموا بالزراعة وكانت الأراضي الفسيحة التي تتكون منها الإمبراطورية في غالبيتها أراضي خصبة فكثرت بها المحصولات الزراعية وازدهرت وعادت عليها بفوائد اقتصادية كبيرة مكنتها من التطور وسيطرت فوتا سنقومايو على هذه المناطق

(15) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية، دمشق، مكتبة أطلس، 1965، ص 54 وما يليها.

(16) أبو بكر باه الفوتي، تاريخ فوتي السنغالية، القاهرة، 1956، ص 6.

الواسعة بتسيير أعمال التجارة فأخذت الأسواق المختلفة من جميع الاتجاهات تتصل بها وكانت الطرق حافلة بالقوافل التجارية التي تسير في أمن وطمأنينة. وهكذا انتشر الغنى والرخاء بها وقد زارها الرحالة الأجانب ووصفها أحدهم بأن «سكانها شعب له بشرة سمراء معظمهم يحفظون القرآن الكريم ويتكلمون اللغة العربية بسبب حفظهم للقرآن ويعيشون حياة قبلية لا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون بها، وهم أصحاب طبيعة هادئة تعلموا جيداً ما هو الحق وما هو العدل حتى أن من يرتكب الشر منهم يكون موضعاً لكره الجميع، وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط الاقتصادي والاجتماعي فهم يزرعون الكثير من القمح والقطن مما يزيد عن حاجتهم ويبيعون الزائد بسعر معتدل ويشتهرون بالكرم إلى درجة أن الإفريقيين من سكان هذه المناطق يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن يكون بجانبهم جماعة من الفولاني[17]. ويقال إن هذه القبائل كانت تقطن المساكن التي يوجد بها الولوف اليوم والظاهر أنهم أخذوا اسمهم الجديد بعد أن كان اسمهم البوفر وبعد أن دخلوا الإسلام بالآلاف اشتركوا مع عبدالله ابن ياسن في فتوحاته في إفريقيا وقد كثر تواجدهم بالسنغال هم وقبيلة البوفر ويطلق الفولانيون على أنفسهم اسم يارم بمعنى (العرب) بتحريف الباء إلى ميم. ويعرم بمعنى العرم أو السيل، وهؤلاء كان طريقهم الذي سلكوه طبيعياً من الجنوب في خط مستقيم ولا توجد جبال أو أية عراقيل في طريق رحلاتهم التي تتابعت على عدة قرون قبل الإسلام، ثم تطورت هجرتهم إلى الشرق ثانية انطلاقاً من السنغال حيث قامت هجرات منهم ومن أولادهم وأحفادهم إلى غينيا في فوتاجالون ثم إلى مالي ثم إلى فولتا العليا فالينجير وأخيراً نيجيريا حيث أسسوا دولة سوكوتو تلك الدول التي أسسها عثمان دان فوديو حيث اختلطوا مع قبيلة البوفر الموجودة بالمنطقة قبلهم وولد خليط

---

(17) Richard (L) **Histoire du haut niger** Paris, 1942, p 119.

فولاني ليس فولاني صرف وليس بوفر وهم الذين يسمون التكرور ويطلقون على أنفسهم فولبي[18].

6 ـ التوبو أو التبو (Toubou):

التبو عنصراً من عناصر سكان كوار وهم في الأصل شعب مستقل بنفسه يسكن منطقة متواضعة في غرب كوار وتمتد إلى مرتفعات الهجار كما ينتشرون في فزان ويمتدون كذلك في جبال تبستي وما يجاورها وهناك مجموعات منهم في بحر الغزال وفي بلاد الكانم وواحات كوار[19] ويقدر عددهم خلال الستينات من هذا القرن بحوالي 195،000 نسمة[20] ويتكلمون لغة خاصة بهم هي الدازاقا أو اليتدلقيا (Tedega), (Dazaga) التي تنتمي إلى إحدى اللغات الصحراوية وهم فرعان التيدا (Teda) والدازا (Daza) حيث يعيش الفرع الأولى في تبستي والثاني في بوركر وإيندي، وتنقسم كل وحدة من هاتين المجموعتين إلى قبائل مختلفة حيث تضم الأولى أربع مجموعات والثانية أربعة عشر قبيلة[21].

والتبو ليسوا بيضاً صرحاء ولا سوداً خالصين وإنما هم شعب هجين وهم مسلمون من زمن طويل، اشتهروا بالإقبال على المشايخ والصالحين ومن ثم فهم كانوا دائماً دعاة إسلام وهم حيثما ذهبوا يحملون إسلامهم معهم ويجذبون الناس إليه، وقد عملوا أدلاء للقوافل وخدمة التجار وهم يفضلون اسم التيدا أما التوبو أو التبو فهي أسماء أطلقها عليهم الأوربيون وهم يسمون في بحر الغزال بالكتشر ويسمون في واداي بأسماء شتّى منها أما وبوركو وكريدا ونوريا وغرفاده[22].

(18) إبراهيم موسى حوب، ص 12.

(19) أحمد بن خليفة محمد، ص 371 ـ 372.

(20) حسين مؤنس، ص 94.

(21) سعيد عبد الرحمن الحنديري، **العلاقات الليبية التشادية، 18234 ـ 1970**، طرابلس، مركز الجهاد 1983، ص 38.

(22) حسين مؤنس، 95.

وأكبر قبائل الدازا هي كريد التي تعيش في منطقة بحر الغزال والدازا وتعيش في كانم وتضم كذلك قبيلة الشكارد وموطنها واداي وتنقسم هذه القبائل إلى لحمات صغيرة وتشترك في الماء والكلأ وتحترف قبائل الدازا تربية الخيول والماعز والبقر بينما تعتمد التيدا على تربية الإبل التي تعد المصدر الأساسي لرزقهم، أما الكمجا (Kamadia) فهؤلاء يعتمدون في معيشتهم على زراعة النخيل في إقليم بوركو[23].

وإلى جانب هذه القوميات الكبرى التي تحدثنا عنها لشعوب السودان الغربي نجد أن دواخل هذه المنطقة كانت مسكونة بمجموعات عديدة من القبائل الصغرى والكبرى التي أسلمت مصيرها للشعوب الحاكمة في دول السودان أو التي عزلت نفسها في مناطقها متجنبة الخضوع للغزاة الأعداء أو الشعوب السودانية ورغم أنها كانت تنتمي إليها لغوياً وحضارياً فقد كانت قوية جبارة وقد وجدت مثل هذه القبائل في ثلاث أقاليم هي:

1 ـ أقاليم أعالي ووسط مجرى النيجر حيث تعيش عدة قبائل مستقلة مثل قبائل كوارفكو وسنجارا وأسولوا. . . الخ.

2 ـ إقليم أعالي ومنابع نهر الفولتا حيث كان يعيش بها عدد من القبائل مثل: موسى ـ حورما ـ حورونسي ـ بورغو ـ مونشي. . . الخ، والتي رغم عدم صمودها أمام التأثير الحضاري للسونرهاي والهوسا والفولاني فإنها لم تعتنق الإسلام واحتفظت باستقلال دويلاتها الصغيرة، ولعبت قبائل الموسى دوراً بارزاً بين غيرها من القبائل بالمنطقة فقد احتلت وما تزال حتى اليوم المنحدرات الشمالية لجبال كونجي داخل منحنى مجرى نهر النيجر، أي الأقاليم الواقعة حول مدينة واجادوجو والأقاليم الشمالية الغربية لساحل الذهب (غانا).

3 ـ مناطق نيجيريا الشمالية أي في أقاليم دويلات الهوسا والفولاني

---

(23) سعيد الحذيري، ص 38، 39.

الإسلامية وقد كان يعيش بها بعض القبائل الوثنية الصغيرة مثل قبائل انجار بيروم ـ حوري ـ جراوه ـ جوكون وكتب، وقد بقيت بعيدة عن تأثير أعداءها ولم يكن لهم أي شكل من أشكال الدولة وكانت تشكيلاتهم قبلية ومكونة من اتحاد بعض القرى تحت رئيس قبلي[24] وإلى جانب شعوب غرب السودان الخالصة فإننا نجد من بين هؤلاء أعداداً كبيرة من الطوارق والعرب والمور (المغاربة) وسوف نتحدث عنهم في الفقرات القادمة عند حديثنا عن بقية الشعوب الأخرى لإفريقيا.

ب ـ شعوب السودان الأوسط:

أدّت عملية إنشاء الدويلات الكبرى في وسط السودان (كانم ـ برنو ـ باقرمي ـ واداي ـ دارفور) إلى مولد الشعوب الكبرى من الأمم البدائية والاتحادات القبلية التي كونت عناصر أتنوغرافية مختلفة وكان إقبالهم على الإسلام واعتناقهم له من أهم العناصر التي أثرت على مصير المنطقة إذا وجد الإسلام بين العرب والقبائل السودانية وهي كانيمبو ـ كانوري ـ باجرومي ـ وداينون ودار فوريون وكانت هذه الشعوب جميعاً تحمل الطابع السوداني المميز ورغم ذلك فقد عمتهم لمسات أتنوغرافية عربية وشملتهم حضارة هؤلاء العرب ولكن هناك بعض القبائل التي لم تظهر في تلك المؤثرات الجديدة وقد بقيت العديد من القبائل السودانية والتي لم تصبح عضواً في أسرة الشعوب الأساسية الكبرى لتلك الدولة على وثنيتها وقد تمكن البعض منهم من الاحتفاظ باستقلالهم الكامل بينما البعض الآخر خضع للسلطة السياسية لسلاطين الشعوب الحاكمة في السودان الأوسط ولكنهم تمكنوا من الاحتفاظ بطابعهم السوداني وعلى طرق حياتهم وحضارتهم[25] وسوف نفرد فصلاً خاصاً لدراسة دول

---

(24) Richard (L).

(25) راجع الفصل الخاص بانتشار الإسلام في كانم وبرنو بهذا الكتاب.

وشعوب السودان الأوسط في مراحل انتشار الإسلام بها وهي كانم وبرنو والدارفوريون ووادّاي وباجرمي.

ج ـ شعوب السينجامبيا:

أي الشعوب السودانية التي هاجرت إلى الغرب وإلى حوض نهري السنغال والجامبيا (السينجامبيا والذين شكلوا اتحادات قوية أو ضعيفة فقد قاموا بإنشاء دويلاتهم البدائية التنظيم وقد كانت تلك الدويلات متاخمة لدول الماندينجو (الماندي) وفي فترة متأخرة مع دول قبائل الفوللا وقد ناضلوا لقرون طويلة الماندي والفوللا في سبيل استقلالهم ثم ضد إغارات القبائل المورية الوافدة من الشمال وضد الغزاة الأوربين على مناطق الساحل.

ومن أهم شعوب هذه المجموعة الاتنوغرافية الولوف (حولوف) الذين احتلوا المناطق الشاسعة الواقعة بين نهري السنغال والجامبيا[26] ولكنهم أجبروا على الخروج منها بعد غارات قبائل الطراز المغربية وقد تركزوا في ستّ تشكيلات من الدويلات وهي أوالوا ـ باوول ـ كايور ـ سنيه ـ سالوم، وأخيراً الولوف وكان يرأس كل منها رئيس منتخب وقد ارتبط هؤلاء الرؤساء بالولاء للرئيس الأعلى والرئيسي لقبائل الولوف والذي كان لقبه (الولوف الأكبر) وقد تفرعوا إلى أربع طبقات أساسية هي: ارستقراطية الأحرار وأرباب العمل والحرف اليدوية والمغنون ثم العبيد الذين كان لهم حق تملك العقارات.

ولقد كانت معظم قبائل وشعوب السينجامبيا ما عدا الماندينجو والفوللا تخضع إلى حد ما لنفوذ الولوف، وفي لغاتهم وعاداتهم فإن السيرر جيران الولوف المباشرين من ناحية الجنوب كانوا يترابطون بهم ارتباطاً وثيقاً وكذلك الذين كانوا يعيشون على الأرض الساحلية والأقاليم المتاخمة لها والواقعة ما بين مدينة داكار ونهر الجامبيا، وقد تفرعوا إلى مجموعتين فرعيتين هما: سيرر ـ

(26) أحمد بن خليفة محمد، ص 373.

نون، وهم مجموعة صغيرة تتواجد بالشمال الغربي يحدهم الكابور ثم السيرر ـ سين، وهي قبائل صغيرة وعديدة، ولقد كانت لغة الولوف هي اللغة الرسمية لدويلات السيرر وقد اختلطوا وامتزجوا ببعضهم وبالماندينجو وكان يرأس العديد من قبائلهم رؤساء من سلالة الماندي.

وتعتبر قبائل التوكولور أو التكرور هي المجموعة الكبرى الثالثة في السينجامبيا كانوا يقتربون من الناحية اللغوية من الفولاني، وقد حدث خلط كبير بين هذه القبائل وقبائل الفولاني حيث يعتبر الكثيرون أنهم نفس القبيلة أو الشعوب، والحقيقة أن لفظ تكرور هو الاسم الذي كانت تعرف به في وقت من الأوقات مدينة بالقرب من نهر فوتا سنقومايو، وعندما يذكر الكتاب الإنجليز أو الفرنسيين هذه الكلمة أو المصطلح فإنهم يقصدون به عادة الشعب الذي يعيش على ضفاف نهر سنقومايو وهي المنطقة التي تعرف حالياً بالسنغال وموريتانيا(27) ويرى إبراهيم جوب أن هذا التحليل غير صحيح لأن كلمة تكرور عبارة عن اسم مدينة مملكتهم وهذا الشعب كان يسكن الجزء الأكبر من ضفاف النهر من بندو وبلاد فوتا على جانبي نهر السنغال (Futa) وإن كان أكثرها على الجانب الأيسر من هذا النهر ويدخل فيها من الغرب إلى الشرق أقاليم دمار ـ وتورو ـ ولاو ـ وايرلاده ـ وبوسيه ـ وجنار، وإن هناك موقع يطلق عليه اسم تكرور بالقرب من فرع السنغال المعروف باسم مارجيوده وهذا الموضع هو غير موضع تكرور الذي حدده جغرافيوا العرب أمثال البكري والإدريسي وغيرهم، وأصبحت كلمة تكرور في نظرهم مرادفة لكلمة سوداني وقد تبعهم في هذا المؤرخون السودانيون الذين كتبوا بالعربية، ومن أجل ذلك ظلت المصورات الجغرافية الأوربية مدة طويلة تطلق لفظ تكرور (Tekrur) أو السودان على الجزء الجنوبي من الصحراء الكبرى، ولا يتفق هذا التعميم مع الواقع لأن تكرور تدل بوجه التحديد على الموطن الحقيقي فوتا سنقومايو أو ما يعرف حالياً بالسنغال

(27) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، ص 427.

وموريتانيا بعد الاستعمار الفرنسي للمنطقة(28).

وقبل غزو الفوللا للبلاد كان لشعب التكرور سلسلة خاصة من الدويلات وقد عاشت مجموعات متناثرة منهم في أقاليم عديدة بالسودان الغربي وفي دويلات الهوسا بشكل خاص.

د ـ شعوب غينيا العليا:ـ

يجب أن نفرق بوجه خاص بين السكان في الأقسام الشمالية في غينيا العليا وهو القسم الممتد من نهر غامبيا إلى منتصف ساحل العاج الحالي وبين الأقسام الجنوبية، ففي نواحي الأقاليم الساحلية لإقليم غينيا العليا كان يعيش العديد من المجموعات الصغيرة المتناثرة للشعوب السودانية والتي من الصعب علينا أن نميز بين تقاربهم اللغوي على نطاق المجموعات الفرعية، ففي فولتا العليا وبصفة خاصة الأقاليم الداخلية فقد سكنتها الماندينجو والفوللا وفي بعض مواقعها وبشكل مستقل عاشت قبائل صغيرة سودانية غربية مثل كوارنكو وأسولو، بينما تتركز بشكل أساسي معظم قبائل غينيا العليا في سيراليون وليبيريا وبشكل خاص في دواخل البلاد ومن أهم المناطق القاطنة على الساحل من الشمال إلى الجنوب بالترتيب فيلوبي ـ كرو ـ بولاما واآصا، ومن بين قبائل سيراليون وقبائل دواخل ليبريانجد ـ جالّلينا ـ سوليما ـ فبي ـ جولادته ـ بوسي وبيسى(29).

وتنتمي القبائل القاطنة بالقطاع الجنوبي لغينيا العليا وما يتبعها من دواخل القسم الشرقي من ساحل العاج ـ غانا ـ توجو ـ داهومي وجنوب نيجيريا إلى ثلاث مجموعات لغوية أساسية هي:

---

(28) إبراهيم جوب، ص 2، 3.

(29) Cornec (J) **La region du haut ginia** Paris P.U. 1971, p 102.

1 ـ القبائل المتكلمة بلهجة «توي» و «وجا» تعيش في أقاليم الجنوب الشرقي لساحل العاج والجزء الغربي من توجو ومن أهم هذه القبائل الاشنتي بالأقاليم الداخلية لساحل العاج والفانتي على الساحل.

2 ـ القبائل المتكلمة بلهجة «أيوه» وهي تعيش في النصف الشرقي من توجو وداهومي ومن أهمها قبائل الفون بداهومي.

3 ـ القبائل المتكلمة للهجة «اليوروبا» وهي تعيش في جنوب نيجيريا ومن أهم قبائلهم اليوروبا الكثيرة العدد والتي لعبت دوراً في تاريخ البلاد وقد أطلق اسمهم على مجموعة اللهجات المستخدمة في الإقليم، ثم نجد قبائل الأيبو الذين ينتمون إليهم لغوياً وحضارياً[30].

وجميع هذه القبائل باستثناء القليل منها عاشت قبل ظهور الأوربيين على سواحل غينيا وفي عزلة تامة عن غيرها حياة بدائية، لذلك لا يمكن التحدث عن تاريخ لهم قبل القرن العاشر، بينما نجد قبائل الاشنتي والفون التي لعبت دوراً هاماً في أحداث غرب إفريقيا منذ العهود القديمة لا تتميز عن سواها من القبائل الصغيرة المحيطة بها، ويمكن أن نستثني فقط قبائل الصوصو التي كانت تسكن في أقاليم غينيا الحالية وكذلك بعض قبائل اليوروبا في جنوب نيجيريا.

أما شعب الصوصو الذين يسكنون الآن سواحل غينيا فيما بين نهر ريويونجو نهر سكارسي الصغير فقد لعبت دوراً هاماً في حياة الأقاليم الداخلية للسودان الغربي، إذ أنهم في القرن الثالث عشر قاموا بإخضاع واحتلال تمبكتو وأصبحوا سادتها لعدة قرون إلى أن أجبرهم فيما بعد الماندنجو والفوللا على الانسحاب إلى أقاليم الساحل[31].

---

(30) نفس المصدر ص 105.

(31) Jean Capla, **Afrique noire occidental et centrale** E.S.Paris, 1973, p 176.

هـ ـ شعوب أدماوا ومناطق ما بين الكونغو والنيل:

انتشرت العديد من القبائل السودانية بعد أن أجبرت على هجر مواطنها في وسط وغرب السودان إلى الجنوب الشرقي وإلى أقاليم أداماوا حيث توجد الكميرون اليوم، وقد عاشوا في أقاليم شاسعة وقد وصل البعض منها خلال تجوالها لعدة قرون إلى قلب إفريقيا الاستوائية واستقرت في تلك الأقاليم الواقعة بين نهر الكونغو والإيويل والنيل، وقد احتلوا معظم حوض نهر أوبانجي والايويل، ومن الصعب تحديد الوقت التقريبي لهذه الهجرة، فنحن لا نعرف إلا القليل فقط عن حياة هذه الشعوب حتى نهاية القرن الخامس عشر إذ ظهرت قبائل الأداماوا على مسرح الأحداث في القرن التاسع عشر فقط وقد تركز نشاط صراعهم بالأساس مع قبائل الفوللا والبانتو الغربيين الذين زحفوا من الجنوب باتجاه الشمال.

وترجع معلوماتنا عن قبائل ما بين الكونغو والنيل إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد احتفظت قبائل أداماوا بطابعها السوداني حتى الأيام الأخيرة. أما قبائل ما بين النيل والكونغو فإنها اختلطت بما يجاورها من القبائل النيلية والبانتو مع احتفاظهم بلغتهم السودانية وبطابعهم الاقتصادي كفلاحين وصيادين وعلى عكس جيرانهم النيليين والبانتو فهم لم يعملوا في تربية الأبقار بل قاموا بتربية الدواجن وكان البعض منهم يربون الماعز.

ومن أهم قبائل أداماوا: تيكار ـ فوت ـ بايا ـ فاللي ـ وبالي، ومن قبائل النيل والكونغو الازند ـ مانجوباتي والبنجو[32].

د ـ القبائل السودانية الشرقية:

نتيجة هجرات الشعوب الإفريقية نحو الشرق خلال فترات طويلة استقرت بعض القبائل السودانية في أقاليم أعالي النيل والمناطق المحيطة بها واختلطت

---

(32) Jaunet (T) **Histoire 'du Sudan frangise 1878, 1889,** Paris, 1901, p 63.

مع القبائل الحامية التي تعيش في الركن الشمالي الشرقي لإفريقيا، وقد أدى اختلاط هؤلاء بغيرهم من الشعوب إلى ظهور شعب جديد في دمه وحضارته وهو الشعب النيلي وكانت لغته مزيجاً من اللغتين الحامية والسودانية وكان من بين ما ورثوه عن السودانيين واستعاروه من الحاميين وأشباه الحاميين هو العادات والحضارة فجميع الشعوب النيلية تشتغل بالزراعة وتربية الأبقار، حيث سادت الزراعة بين بعض فئاتهم وهم قبائل المادي والشولي، بينما تخصص الدنكا في رعي الأبقار. ومما يميز جميع النيليين عن غيرهم في الرعي هو حبهم الشديد للحيوانات ذات القلاون الطويلة وقد وصلوا إلى اعتبارها من بين معتقدأتهم الدينية وهي عبادة الثور، وقد انتشر بينهم تعدد الزوجات ويتزوج الرجل العديد من الزوجات ليحصل على مهورهن من الأبقار وقد اعتبر ارتداء الملابس عملاً لا يليق بالرجل، بينما ترتدي المرأة ساتراً من السلاسل والأسلاك المعدنية وشرائح الجلود وتكاد تستر عورتها، وفي بعض الأماكن كانت المرأة ترتدي تنورة من الجلد وقد تحلّوا بالزجاج والمعادن(33)، ومن أهم القبائل النيلية الشيلوك ـ الدنكا ـ النوير ـ الشولي ـ باري ومادي.

وإلى جانب الشعوب السودانية الشرقية المنتشرة بين الشعب النيلي وجدت مجموعات من القبائل السودانية الصغيرة والكبيرة التي هاجرت إلى هنا من وسط ومن دواخل السودان وقد احتفظت وهي في هذا الخضم من الحاميين والعرب والشعوب النيلة بطابعها السوداني ومن أهم هذه الشعوب نجد النوبة بالأقسام الجنوبية من كردفان، والفونج في نواحي أقليم سنار والبرتا في حوض نهري تومات وجوباس من روافد النيل الأزرق.

وقد وصلت بعض القبائل السودانية خلال هجرتها إلى الشرق أي إلى الأقاليم الحبشة منذ أقدم العصور واستقرت هناك بين الشعوب السامية والحامية

---

(33) نفس المصدر، ص 72.

ولكنهم بخلاف أقربائهم بالسودان الشرقي احتفظوا بطابعهم السوداني، وقد توطنت تلك القبائل في غربي الحبشة إذ كلما انحدرنا من أعالي الهضبة الحبشية إلى السهول الممتدة في الجنوب الغربي كلما أصبح الدم السوداني الدخيل غالباً وأكثر وضوحاً حتى نصل إلى مناطق أعالي النيل ويلقب الأحباش هؤلاء الذين تسربوا إلى النيل الأوسط باسم الشناقلة أو بني شنقول وهذه التسمية مرادفة للمصطلح الأوربي نجرو أي زنجي. ومن أهم هذه القبائل نجد قبائل كوناما أو بازيني التي تسكن في أودية نهري مأرب وتيكازي وما يجاورهما من هضاب أعالي الحبشة الشمالية (أرتيريا) ثم قبائل باريا التي تحتل مناطق الجبال بين نهري مأرب وبركة في الشمال الغربي للحبشة.

وقد تعرضت الشعوب السودانية القاطنة في الشمال الشرقي لإفريقيا خلال العصور القديمة لإغارات الشعوب الحاكمة في مصر وفي الدول التي تعتمد على العمل العبودي في مناطق السودان الشرقي والحبشة وهي بناتا ـ مروى ـ النوبة ـ اكسوم والدولة الحبشية[34].

ومن بين أنشط القبائل النيلية نجد الشيلوك ومن بين السودانيين نجد الفونج. وفي نهاية القرن الخامس عشر دخل الشعبان الشيلوك والفونج في تحالف وغزا معاً دولة سنار حيث أسس الفونج دولتهم في بداية القرن السادس عشر.

ومن بين مميزات جميع القبائل السودانية في الشمال الشرقي لإفريقيا نجد أنهم لم يقبلوا المؤثرات الحضارية القادمة من الخارج غير أن بعض تلك القبائل مع مضي الوقت اضطرت لقبول بعض المظاهر الحضارية للشعوب المجاورة لها فقبائل البريا أخذت العديد من العادات المصرية القديمة، بينما قام الفونج قبل تأسيس دولتهم بتقبل العديد من العادات العربية، غير أن تأثير الحضارات

---

(34) Perox (E), **Au Sudan francaise**, Paris 1891, p 119.

الرفيعة المستوى قد فرضت نفسها بين النيليين والقبائل السودانية في الحبشة ولكن بحد أدنى ومعظم تلك القبائل التي تقيم في السودان الحالي وعلى أطراف الحبشة تعتنق الإسلام منذ القرون الوسطى وذلك نتيجة لجهود الدعاة الإسلاميين[35].

(2) شعوب البانتو:

تنتمي جميع شعوب جنوب القارة الإفريقية ـ باستثناء الخوي خوي والبيجامي إلى أسرة لغوية كبرى هي مجموعة شعوب البانتو وتكلم كل من هذه الشعوب بلسان أو بلهجة خاصة أو فرع من اللغة الأساسية الأم أي لغة البانتو، ولم تكن اللغة هي العامل الوحيد الذي يربط هؤلاء بعضهم ببعض في أسرة أتنوغرافية ضخمة فهم بخلاف السودانيين يرجعون إلى أصل عرقي واحد.

وقد انقسمت أسرة البانتو إلى فروع جغرافية وتاريخية قامت كل واحدة منها بتطوير كيانها الاقتصادي ودياناتها وعاداتها، ورغم ذلك فإن الكيان الاقتصادي وطرق الحياة الحضارية لجميع شعوب البانتو قد ارتبطت ارتباطاً كلياً أو جزئياً بعضهم ببعض عن طريق اللغة والحضارة.

وفي العصور القديمة أصبح هؤلاء في شرق إفريقيا على اتصال بموجات الهجرات الحامية المتقدمة نحو الشمال الشرقي وخلال عدة قرون كانت أقاليم هذه المنطقة هي الساحة التي شهدت تصارع قبائل البانتو مع الشعوب الحامية فالحروب التي دامت عدة قرون والصلات الثقافية والاقتصادية والاندماج مع الحاميين كل هذا أثر على العديد من قبائل البانتو وبأشكال متفاوتة وقد اتجهت كل قبيلة منهم نحو سبل التطور الثلاث التالية:

1 ـ نتيجة الاختلاط مع القبائل الحامية، فإن بعض قبائل البانتو قد خضعت جزئياً أو كلياً لهذا التأثير بل وقعت تحت سلطانهم وتأثيرهم. بينما انصهر العديد من قبائلهم بمضي الوقت مع الشعوب الحامية إلى بعض الحدود.

(35) راجع الفصل الخاص بانتشار الإسلام بالحبشة.



اهم دول البانتو الغربيين

2 ـ نجحت بعض القبائل نتيجة الحروب الطويلة في مقاومة تأثير الحاميين وفي الاحتفاظ بأقاليمهم في بعض الحالات.

3 ـ القبائل التي فضلت عدم الخضوع للحاميين واضطرت للفرار إلى خارج حدود مواطنها فاتجهت نحو الجنوب والغرب.

وهكذا انقسم البانتو إلى ثلاث مجموعات هي الشرقية والجنوبية والغربية، بينما انقسم البانتو الذين أقاموا في إفريقيا الاستوائية الشرقية إلى مجموعتين أساسيتين هما: القبائل التي خضعت للتأثير الحامي والقبائل التي لم تخضع لهذا التأثير.

أ ـ قبائل البانتو الشرقيون:

انقسمت قبائل البانتو الشرقية التي خضت للمؤثرات الحامية إلى ما يلي:

1 ـ قبائل دول واهوما:

قامت في المناطق الشمالية الغربية لأقاليم البانتو ـ أي في إقليم ـ الشعوب الرعوية الحامية ومن أهمها واهوما (واهيما) واهنيدا حيث قامت بإخضاع قبائل البانتو المستقرة في القرى والمشتغلين بالزراعة ووحدتها في اتحاد قبلي كبير تحت زعامتهم وقاموا بحكمهم وقد أدى ذلك إلى قيام ما يسمى بدول واهوما وفي أول الأمر قامت دول كتيارا ـ هانجيرو ـ كاراوجي ثم فيما بعد دول باغوندا ـ بونيورو ـ أغولي وتورو وكانت هذه الدول عبارة عن اتحاد لشعوب البانتو تحت زعامة حكام واهوما واهنيدا الذين كانوا من أصول حامية وقامت تلك القبائل الحاكمة بعد أن استقرت بالامتزاج مع القبائل الخاضعة لها وتكلموا بلسانها وقد اتحدت نتيجة لذلك القبائل المختلفة التي تكلمت بلغة البانتو وحتى يومنا هذا نجد بأن مجتمع القبائل بالمنطقة قد انقسم إلى غالبية من قبائل البانتو التي أطلق عليها اسم «واهوتو» ثم الأقلية الحاكمة من قبائل واهوما التي أطلق

عليها اسم «واتوسي» وقد عملت الشعوب الأولى بالزراعة بينما كان الواتوسي يعملون برعي الماشية[36].

وقد انقسمت شعوب واهوتو إلى مجموعتين لغويتين أساسيتين هما:

ـ الشعوب المتكلمة بلغة الكنيورو وقد سكنت مناطق بوغندا السابقة وبونيورو وأكولو وأخيراً تورو، أي كل أقاليم دولة أوغندا اليوم، ومن أهم شعوبها أوغندا ـ وأنياكولي وواترو.

ـ الشعوب المتكلمة بلغة الكيروندي وقد سكنت أقاليم رواندا وأورندي ومن أهم شعوبها وانياررواند ووراوندي.

ونلاحظ هنا بأن سابقة الاسم «وا» إذا أضيفت إلى اسم المكان أصبحت ساكن المكان وهي تماثل ياء النسب في اللغة العربية.

2 ـ القبائل البانتو حامية:

قامت بعض قبائل البانتو التي كانت قد أنشأت اتحادات قبلية قوية بالماضي، رغم وجودها في جوار مباشر مع الحاميين وأشباه الحاميين ـ بالبقاء في مواطنهم ولكنهم امتصوا الكثير من العناصر الحامية المهاجرة إليهم والتي أقامت بينهم وقد أطلق على هؤلاء عادة البانتو حاميين أو البانتو المتأثرين بالحاميين ومن أهم هذه القبائل: واجوجو ـ واجاجا ـ واتيتا ـ كيوكوالاكامبا ـ وقد ظهرت هذه القبائل في القرن التاسع عشر[37].

3 ـ البانتو النيليون:

بالإضافة إلى قبائل البانتو الشرقية التي تأثرت بالدرجة الأولى بالمؤثرات الحامية نجد أنهم قد تأثروا بعض الشيء بالنيليين، فقد قطنت على شواطىء

---

(36) Martin, (N)'**Les bantos,** P.U. Paris, 1917, p 90.

(37) Gargeaves (J) **West Africa,** the forme french states enlewood, cliffes, N.J, prentice, Hall, 1976, p 112.

بحيرة فيكتوريا الشرقية.وفي الركن الأيمن لأوغندا والركن الجنوبي الغربي لكينيا قطنت مجموعة من الشعوب ترجع في أصولها إلى البانتو الشرقيين ولكنها قد اختلطت مع جيرانها من القبائل النيلية بل والقبائل الحامية ولذلك أطلق عليهم اسم البانتو النيليين ومن أهم هذه القبائل والكافيرندو التي أطلق اسمها على مجموعتين من القبائل المختلفة هما:

ـ الكافيروندو الساكنون بالأقاليم من شمال شرق بحيرة فيكتوريا ويتكلمون اللغة النيلية وهم في عاداتهم وطابعهم أقرب إلى النيليين منهم إلى البانتو.

4 ـ السواحليون:

في وقت متأخر لتاريخ البانتو نجد أن القبائل التي أقامت على طول السواحل الشرقية بإفريقيا قد تأثرت كثيراً بالعرب واختلطوا بهم وأدى ذلك إلى القضاء على النظام القبلي ونشأة الشعب السواحلي[38] وسنتحدث عن هذه القبائل بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بالصومال.

أما عن البانتو الشرقيون غير الخاضعين للتأثير الحامي فقد انقسموا إلى مجموعتين تاريخيتين إقليميتين هما:

ـ البانتو الشرقيون الذين احتلوا دواخل غرب ووسط أقاليم دولة تنجانيقا سابقاً وقد عاشوا وهم تحيط بهم بعض قبائل البانتو الشرقيين الأخرى ومن أهم هؤلاء وانياموزي وأحيحا وقد لعبت دوراً بارزاً في التاريخ الحديث لشرق إفريقيا.

ـ البانتو الشرقيون الذين اندمجوا أو انصهروا في قبائل البانتو الجنوبية التي هاجرت عائدة من الجنوب إلى الشمال والذين عاشوا في أقاليم جنوبي تنجانيقا المتاخمة لموزمبيق وذلك في جنوبي نهري لاواحا وروفيجي ومن بين قبائلهم

(38) Bulin (J) **The Arabe Role in Africa,** benguin S.E, 1962, p 112.

نجد واماويا ـ أوماكوندي ـ أومانجانجب ـ أوموامبا ـ وأنياسا ـ وأتيندي وأخيراً وايوجرو، وقد لعبت هذه القبائل دوراً بارزاً في التاريخ الحديث للمناطق الإفريقية التي تواجد بها الاستعمار الألماني حيث قاومته مقاومة عنيفة[39].

ب ـ البانتو الغربيون:

وجدت قبائل البانتو المتجهة نحو الغرب نفسها في ظروف حياتية مختلفة أملتها عليهم مواطنهم الجديدة فالأقليم الذي احتله هؤلاء في وسط وغرب أفريقيا الاستوائية كان ينقسم إلى قسمين متمايزين هما:

1 ـ المساحات الشاسعة من الغابات الاستوائية في الشمال.

2 ـ أقاليم السافانا المكشوفة في الجنوب.

وقد امتدت هذه الأقاليم بحيث شملت روافد الكونغو وأعالي منابع أنهر كونيني وزمبيزي وكوبا نحو وكيوتيو وشوبو وسانكورو وكاساي بل إلى منابع الكونغو نفسه. وبالتالي فإن طبيعة الأقليم قد أثرت على تطورات مجرى حياة القبائل الاقتصادية بطريقة خاصة في كل منها وذلك في مجال التطور السياسي والاقتصادي، ففي مناطق الغابات الاستوائية انصبت الحياة الاقتصادية على الزراعة البدائية وفي جمع الطعام والصيد، أما في مناطق السافانا فإن الظروف الحياتية قد سارت في مسار آخر.

وقد عاشت القبائل في مناطق الغابات في مجموعات صغيرة العدد بسبب طبيعة الإقليم، أما في الأقاليم المكشوفة والسافانا فقد وجدت الظروف المهيئة لقيام اتحادات قبلية كبرى بل وقيام دول، ولهذا فقد اختلف المصير التاريخي لشعوب البانتو طبقاً لمواطنهم وظروفهم الحياتية والاقتصادية.

وقد ارتبط توزيع القبائل التي أوجدت لها مواطن في تلك الأقاليم

---

(39) راجع تاريخ إفريقيا العام، المجلد السابع، إفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية اليونسكو ـ اديفرا، 1990.

بالمصير التاريخي الذي أملاه الموطن الجديد وطبيعته، فقرب مواطن بعض القبائل أو بعدها عنه لعب دوره كذلك في تغيير الظروف وتطوير اقتصادياتها والسير بها في مسار تاريخي جديد وقد لعبت مناطق السواحل والأقاليم الواقعة بينها وبين قلب القارة دوراً هاماً في حياة الإنسان بهذه القبائل فيما بعد وذلك في فترة التدخل الأوربي فقد شكلت تلك المواقع الاستراتيجية للقبائل في صراعها مع العدو الغازي، ولهذا اتجهت القبائل في اتجاهات مختلفة لتطورها القومي معتمدة على موقعها الجغرافي أي وقوعها على الساحل أو الأقاليم الوسطى من قلب القارة ونتيجة لذلك خضعت القبائل المقيمة على الساحل لسلطة وتأثير الأوربيين كما شكلت الأقاليم المتاخمة للساحل منطقة تسكنها القبائل التي كانت في خدمة المستعمر، وإجمالاً كانت قبائل هذه المنطقة تتأرجح مصالحها بين التعاون مع الأوربيين أو الوقوف ضدهم. أما أقاليم دواخل البلاد فهي كانت حتى الفترة الأخيرة من التغلغل العربي لا تزال تعيش حياتها المستقلة ولم تخضع للمؤثرات الخارجية(40).

ولا نعلم كما قلنا وقت محدد لهجرات قبائل البانتو الغربيين ولا توجد مصادر معقولة عن تاريخهم حتى بداية التدخل الأوربي وكل ما نستطيع قوله هو أن هذه القبائل لا ترجع إلى أقدم الهجرات بل إلى هجرات حديثة وكل ما نعرفه هو بعض معطيات عن بعض الحقائق بينما مصادرنا عنهم حديثة العهد. فعلى سبيل المثال فإن قبائل مجموعة بكوندي التي تعيش على سواحل الكاميرون نعرف عنها أنها منذ الأيام الأولى كانت تقوم بعلاقات مع القبائل السودانية وعن طريقهم اتصلوا بالغوللا والعرب. وكانت قبائل الفانج (بانجوي) تسكن فيما يعرف الآن بأقليم شمال غرب جابون بين نهري أوجوي والحدود الجنوبية لمستعمرة غينيا الإسبانية وبين الركن الجنوبي الغربي من الكاميرون وقد عرف عنهم أنهم عاشوا فترة من الوقت أثناء هجرتهم في جوار قبائل الأزند والذين كانوا على صلة بهم.

(40) Martin, p 119.

وكل ما نعرفه عن شعوب البانتو الغربيين هو أن عدداً منهم قد أنشأ دولة كبرى قبل ظهور الأوربيين بفترة طويلة ومن أهمها دول الكونغو وإمبراطورية لوندا في المناطق الجنوبية لوسط وغرب إفريقيا الاستوائية وبلاد البوشانجو والروا في دواخل أقاليم الغابات(41).

دولة الكونغو:

أقامت قبائل باكونجو أو بافيوت التي تقطن معظم الإقليم الساحلي لأنجولا من مصاب نهر الكونغو حتى فم نهر (شمال لوندا) والمنطقة الصغيرة التي تلاصق مصاب الكونغو شمالاً وكل إقليم الشواطىء الملاصقة، أقامت في الأزمنة القديمة سلسلة من العشائر والتي في وقت ظهور البرتغال في إفريقيا ظهرت واضحة قوية بهذا الجزء من إفريقيا وقد اتحدت في دولة كبرى كانت عبارة عن اتحاد لدول صغرى تحت زعامة رئيس واحد هو (الأب الأكبر) (مافوما) أو كما كان البرتغاليون يسمونه ملك الكونغو وكان هذا الاتحاد يضم فيما يضم لوانجو ـ كاكونجار ـ نجوبا ودول الكونغو ـ وكانت كل ولاية يحكمها نائب لملك الكونغو وقد ساد في هذه الولايات النظام الإقطاعي.

دولة لوندا (مواتا يامفو):

كانت لوندا التي تضم كالوندا ـ كاروندا ـ بالواومولوا ـ من أهم شعوب البانتو الغربيون وكانوا يشكلون معظم سكان شرق أنجولا والإقليم الجنوبي الغربي من الكونغو أي بين المجرى الأعلى لنهر كوانجو ومنابع نهري زمبيزي والكونغو فعلى هذه المناطق الشاسعة والتي يقع نصفها الصغير الغربي في مناطق السافانا ونصفها الأكبر الشرقي في مناطق الغابات، أقام شعب البالوندا دولة كبرى هي إمبراطورية لوندا والتي كان نفوذها يسري على العديد من شعوب البانتو الغربيين.

وطبقاً للروايات فقد أسس هذه الدولة رئيس قوي وصياد من قبيلة بالونا

(41) نفس المصدر ص 122.

والذي قدم من الشمال الشرقي واستقر مع قبيلته بين شعوب بالوندا وسميت الدولة باسم إمبراطورية لوندا أو دولة موافايامنو وكان يطلق على رئيس الدولة وفمواتا كانت تعني سيد ويامفو كان اسم ابن مؤسس الإمبراطورية وقد صار علماً من الأسماء السائدة فيما بعد(42) وقد تميزت هذه الدولة عن غيرها من دول الكونغو بازدواجية السلطة والتي عكست بوضوح التقاليد الباقية من نظام الأم، فإلى جانب مواتا يامفو كان للدولة حاكم آخر هو لوكوكيشا أي أم الجميع، وكانت الدولة مقسمة إلى قسمين كان المواتايامفو هو السيد المطلق على إحداها بينما اللوكوكيشا هي الحاكمة بالقسم الآخر، وكانت الشؤون العامة ذات الصفة الشعبية يبث فيها جماعياً.

وعموماً لم يكن يسمح للوكوكيشا بالزواج، ولكنها في الواقع كان يمكنها أن يكون لها عديد من الأزواج الذين كانت تختارهم، وكان أي ذكر تختاره يصبح عبداً لها وهو في الواقع زوج لها. وقد أطلق على أزواجها (العبيد المحبوبين) وكانوا يتمتعون بامتيازات كبرى حتى ولو كانوا قد اختيروا فعلاً من العبيد، ولما كان من المفروض أن تكون عذراء رسمياً، لذلك كان عليها ألا تنجب أولاداً لذلك كانت تقتل الأطفال الذين تلدهم(43).

وتشبه دولة لوندا الكونغو في نظم تشكيلها وهو التشكيل العام الذي يميز دول البانتو الغربيين أي أن ملكها له السلطات المطلقة إلى جانب تواجد ارستقراطية لها امتيازات مع وجود حكومة لها طابع ديموقراطي. فالملك كان حاكماً مستبداً برعاياه وهو الذي يعين جميع الرؤساء والحاكم بنفسه ولكن الأمور الحساسة التي كانت تهم الأمة كان يبت فيها مجلس الشعب الذي له حق نقض أي عمل يقوم به الملك بل كان له سلطة عزله عن العرش.

---

(42) Deschamps (O) **Histoire de congo,** Paris, berger L, 1970, p 122.

(43) نفس المصدر، ص 124.

ومن أهم حقوق سيادة كل من المواتايامفوا واللوكوكيشا في إقليمها نجد حق فرض الضرائب على القبائل الخاضعة وعلى رؤسائها، ولم تكن مقادير هذه الضرائب ونوعيتها تفرض مسبقاً بل كانت كمية ثابتة يطلبها الملك أي وقت يراه وكان لهما بلاط ووزراء وغيرهم من كبار المسئولين والرسميين وقد شكل الأمراء والوزراء وذوي الجاه ورؤساء الأقاليم طبقة النبلاء المميزة وهي طبقة كيلولو.

ومن أهم واجبات الملك تنظيم التجارة وإرسال الحملات العسكرية ضد القبائل المعادية أو إخضاع من يريد إخضاعه، وكان للملك مجموعة من ألقاب التبجيل وكان يتزين بمجموعة من الملابس والحلي طبقاً لطقوس خاصة، وكان الملك ينتخب بواسطة أربعة وزراء من بين أبناء إحدى الزوجات الرئيسيات للملك الراحل وذلك لا يتم إلا بعد اعتماد وإقرار اللوكوكيشا، كما كانت اللوكوكيشا تختاره عادة بواسطة الوزراء الأربع من بين بنات إحدى زوجات الملك الراحل، وكان الاختيار لا يتم إلا بعد إقرار المواتا يامفو وكان تتويج الملك يجري طبقاً لطقوس خاصة دقيقة من أهمها قيامه بإشعال النار الجديدة والتي تؤخذ منها جميع النيران.

وكان للبالوندا طقوساً وتقاليد ذات معان خاصة ويتشددون في تطبيقاتها ويجب مراعاتها من قبل كل عضو من أعضاء القبيلة أو الدولة، وكانت توضح كيفية قيام الرجل العادي بالدخول على الملك وتحيته، وكذلك كيفية احترام الرؤساء، كما كان الملك نفسه يخضع لسلسلة من الطقوس والتقاليد التي تقيد وتحد من حريته، وكان عليه أن يمتنع عن التدخين أو شرب الخمر وألا يتناول أي طعام بحضور أي أحد من رعاياه، وألا يظهر أمامهم إلا جالساً أو محمولاً على أكتاف العبيد، وقد اختلط البالوندا خلال قيام دولتهم مع غيرهم من القبائل وذلك لأن سلطة الدولة كانت تمتد وتشمل شعوباً أخرى بل وشملت العديد من العناصر الأجنبية مثل قبائل كيولو بابيشار ولوبالا وهي التي انصهرت بمرور الوقت معهم وقد قامت في جوار دولة لوندا العديد من الدويلات المتشابهة والتي قام

بتأسيسها بعض أفراد الأسرة المالكة في لوندا، وكانت هذه الدويلات أثناء مصيرها التاريخي أما دولاً تدفع الجزية للمواتا يامفو وأما كانت مستقلة عنه في بعض الأحيان. ومن بين هذه الدويلات نجد مملكة كازيمبا في شرق لوندا ودولة ماي مونين في شمالها وأخيراً مملكة كاسونجو في الشمال إلى نهر لوالابا(44).

دولة البوشونجو:

احتلت قبائل باكوبا أو البوشونجو (كما يحلو لهم تسمية أنفسهم) الأقاليم الواقعة بين نهري شانكورو ولوالوا بالكنغو البلجيكي وقد انقسموا إلى بطون قبلية كان من أهمها قبيلة بامبالا.

وتذكر الروايات بأنهم قد هاجروا من الشمال الشرقي إلى مستقرهم الحالي وكانت دولتهم قد أنشأت قبل قيام إمبراطورية لوندا بوقت طويل وكانت هذه الدولة عبارة عن اتحاد قبلي كبير لعبت فيه قبيلة بامبالا الدور القيادي وكان رئيس هذه القبيلة في نفس الوقت هو ملك البلاد وكان بالنسبة لقبيلته يعتبر الزعيم الروحي والدنيوي وكان يحرم عليه أن تطأ قدماه الأرض فكان يحمل على أكتاف الرجال وإذا جلس فعلى ظهور العبيد. وكان له ستة من الوزراء الذكور وهم الكيمي كامبا أي رئيس الوزراء ثم الينتتا وهو وزير الحرب ثم أربعة من الوزراء يمثلون كل من الأقاليم الأربعة التي تنقسم إليها الدولة وعادة ما كان أبناء الملك وأحفاده هم حكام تلك الأقاليم. ونجد كذلك وزيرتين كانت إحداهما هي التي تقرر أمور السلم والحرب، وكان للملك هيئة كبيرة من موظفي البلاط وهم الذين يمثلون التجار والجماعات القبلية ومن بينهم الأقزام.

كما كان يوجد بالبلاط مؤرخون ملكيون وحافظ التقاليد والأساطير الذي يجب أن يكون من الأسرة الحاكمة، وكانت أم الملك تعتبر أعلى درجة منه وكانت تحضر اجتماعاته مع وزراءه وتحتل مكان الصدارة بينهم(45).

---

(44) Despois (L) **L'Afrique Noire,** P.L. Paris 1962, p 113.

(45) نفس المصدر، ص 115.

ومن الناحية الشكلية كان الملك حاكماً مطلق السيادة ولكنه في الواقع لم تكن له الكلمة المطلقة، حيث كان البت في الأمر في يد مجلس ممثلي الأقاليم والمجموعات القبلية المنتخبة، وحيث كان البتّ فيها يرجع بالأساس إلى الرأي العام الذي كان كثيراً ما يعارض رغبات الملك نفسه.

وعند اعتلاء العرش كان الملك يتلو قائمة أسلافه من الملوك الذين بلغوا المائة والعشرون وكان معظم هؤلاء الأسلاف أما شخصيات ميثلوجية أو شخصيات تاريخية حقيقية، وكان من بينهم البطل القومي للبوشونجو «شامبا بالونجونجو» الذي أسس نظام الحكم الحالي في الدولة(46).

دولة روا (وارو):

وكان الواروا شعباً كبيراً يقطن الأقاليم الجنوبية الشرقية لمناطق غابات الكونغو كما كانوا من أكبر الشعوب عملاً بالوساطة التجارية بين قبائل البانتو الشرقيين والغربيين. وقبل زمن طويل من التدخل الأوربي كانت جميع قبائل الروا متحدة في اتحاد قبلي كبير وهو دولة الروا أو دولة الكاسونجو التي انقسمت إلى ولايات وكان الملك يعين على كل ولاية رئيساً يشغل وظيفته لمدة أربع سنوات، وقد تمتع ملك الروا بامتيازات خاصة لا يعرفها أي شعب من شعوب البانتو الغربية فقد كان شخصية مقدسة وهو زوج جميع النساء في دولته باستثناء أمه وهو كإله لم يكن في حاجة للأكل والشراب، لذلك كان يأكل ويشرب سراً دون أن يراه أحد، وكان لأبناءه الحق في أخذ كل ممتلكات رعايا والدهم. وكانت أخت الملك تحتل مكاناً ممتازاً في الدولة لأنها كانت تعتبر زوجة الإله الرئيسي، أي مؤسس الدولة والذي كان صنمه في حرمة غابة لا يدخلها إلا الملك واخته فقط.

وكان للزوجة الأولى الحق في حكم البلاد أثناء غياب زوجها وعند موتها

(46) Jhon (A) History of Africa, London, 1965, p 113.

كان يقوم بطقوس مقدسة وهي أن يرقد بضع أيام بجوار جثتها في سرير واحد أما إذا مات الملك فإن زوجاته كن يدفن أحياء مع الزوج الميت[47] وقد تعرض شعب الروا لأبشع صور الاستغلال من جهة الملك ثم أولاده ثم العديد من الرؤساء وأخيراً من تجار الرقيق.

3 ـ الشعوب الحامية والسامية:

شكّل الحاميون معظم عناصر سكان شمال وشمال شرقي إفريقيا واليوم يتكلم اللغة الحامية حوالي ثلاثين مليون وهم خمس القارة تقريباً وتنقسم هذه اللغة وتتفرع إلى سبعة وأربعين لساناً وإلى واحد وسبعين لهجة تتكلمها الشعوب السامية.

ولم يتفق العلماء حتى اليوم على أصل الحاميين والبعض منهم يعتبرونهم من أصل آسيوي هاجروا من القوقاز إلى هذه البلاد عن طريق مصر والنيل، بينما البعض منهم ربما قد يكون قد مر على طريق الجزيرة العربية، ويبدو أن هؤلاء الحاميين قد وصلوا إلى تلك الجهات في موجات ومجموعات متعاقبة اختلطت مع مرور الزمن مع أهل إفريقيا السوداء، ونشأ عنهم ذلك العنصر السائد في تلك المنطقة ولكن ذلك الاختلاط لم يكن على درجة واحدة بين مختلف المناطق وبين مختلف القبائل التي تسكنها[48] بينما البعض الآخر يرجح أصلهم إلى أنهم حصيلة اختلاط الشعوب السودانية بالساميين[49] غير أن هذا الرأي أو ذاك لا يهمنا، والأهم هو إن الشعوب الحامية قد وجدت بالمنطقة منذ عصور قديمة، وفي بداية العصور التاريخية ظهرت أعداد كبيرة من الشعوب الحامية التي لم تسكن شمال إفريقيا فقط بل اندفعت إلى الجنوب وإلى السودان الغربي

---

(47) نفس المصدر، ص 116.

(48) Jean Claud (M), **Afrique et culture,** M.I Et AE culture, No, 102, 1978, p 12.

(49) نفس المصدر، ص 114.

والأوسط إلى الجنوب الشرقي أي إلى القرن الإفريقي أي إلى قسم من السودان الشرقي والحبشة والصومال.

وكان الساميون هم العنصر الأساسي الثاني الذي ساد في شمال وشمال شرقي إفريقيا، ففي العصور القديمة لم تخضع الأقسام الشمالية والشمالية الشرقية لتأثير الحضارة السامية (الفينيقية والعربية القديمة) فقط بل كانت معرضة للاستيطان السامي إذ كانت إفريقيا محط الشعوب السامية القادمة من الجزيرة العربية وإلى القرن الإفريقي بصفة خاصة[50].

وخلال القرن السابع تتابعت الهجرات العربية وذلك عند ظهور الإسلام فازدادت بشكل واضح هجرات العرب إلى إفريقيا وأصبحت منطقة شرق القارة تعجّ بالشعوب الحامية التي امتزجت واختلطت مع القبائل السودانية القادمة من الغرب ناشرة الإسلام بها[51].

والذي يهمنا هنا دور الساميين والحاميين في تاريخ شعوب غرب وشرق ووسط إفريقيا غير العربية وذلك لأنها كانت العنصر الأساسي الطبيعي في نشر الإسلام بها.

الحاميـون:

انطلاقاً من وجهة النظر اللغوية والمصير التاريخي المشترك ينقسم الحاميون إلى فرعين كبيرين أساسيين هما: الحاميون الشرقيون والحاميون الشماليون وبرغم أن موضوع الحاميون الشرقيون والحاميون الشماليون قد أصبح مركز اهتمام المؤرخين والكتاب ذوي الصلة بالمطامع السياسية والاستعمارية، ورغم كثرة ما كتبوا عنهم فإننا نشك كثيراً فيما كتبوه، لأنه يهدف إلى تقسيم شعب شمال إفريقيا إلى شعبين بهدف خدمة مصالحهم الاستعمارية. وحقيقة أنه

(50) Perox (E) p. 182.

(51) راجع الفصلين الخاصين بانتشار الإسلام في الحبشة والصومال.

كان يعيش مع الشعب السامي العربي منذ أقدم العصور شعب حامي، ولكن خلال التاريخ الطويل منذ الأزمنة الغابرة انصهر الشعبين وشكلا شعب شمال إفريقيا الذي أصبح منذ الفتح العربي شعباً واحداً مسلماً، ونحن إذ سنقبل لفظ بربر وطوارق ومور فإننا سنقبله فقط على أساس أنه تسمية لإحدى فروع الدوحة العربية العظيمة وليس بصفتهم غير عرب فالأوائل يرجعون إلى القبائل الشمالية التي استقرت في جبال الأوراس والأطلس، كما انتشر الطوارق الرعاة في الصحراء الغربية منذ العصور السحيقة إلى أن تعربوا خلال هجرات الموجات السامية القديمة وكان هؤلاء على صلة بالشعوب السامية الوافدة خلال التاريخ إلى إفريقيا فاختلطوا بهم وأخذوا لغتهم وحضارتهم في العصور القديمة، وهذا ما جعل ابن خلدون ينظر إليهم نظرته الخاصة ويوجه إليهم اهتمامه في مقدمته[52].

وفي الفترة التاريخية بعد أن تعرّب لسان شمال إفريقيا بالفتوح العربية لعب سكان المنطقة دوراً غير مباشر في مصير شعوب إفريقيا الاستوائية وذلك لقيامهم بدور الوسيط التجاري مع شعوب غرب ووسط السودان الذين قاموا هم بأنفسهم بدور الوسيط لشعوب إفريقيا غير السودانية.

أما الطوارق فبصرف النظر عن حياتهم البدوية وعاداتهم فإنهم أقرب إلى كونهم عرباً من انتمائهم إلى جنس آخر، وقد احتفظوا بنقائهم السامي الأول العتيق وقد لعبوا دوراً هاماً في نشر الإسلام في دويلات غرب السودان ولا يعرف على وجه التحديد أصل لفظ طوارق ولا معناه الحقيقي فالمعروف أن أهل إفريقيا يلفظون اسمهم توارج أو توارى بدون آداة التعريف. وابن خلدون يرى أنهم بقية المرابطين وبالذات بقية المسوفيين الذين قضوا سنوات طويلة في حرب مع الموحدين[53]. أما الفرع الشرقي للشعوب الحامية في شرق إفريقيا فقد

(52) لمزيد من المعلومات راجع مقدمة ابن خلدون.

(53) حسين مؤنس، ص 107.

انقسم إلى فرعين كبيرين هما الكوشيون والشعوب الحامية السامية التأثير، وكان الكوشيون وهم أسلاف النوبيين في العصور الحديثة في الأزمنة القديمة عبارة عن شعب واحد وهو كوش ثم عمّ اسمهم ليشمل غيرهم وقد كان النوبيين القدماء من هذه السلالة.

وقد امتزجت تلك القبائل الكوشية منذ الأزمنة الغابرة مع شعوب السودان أو مع شعوب البانتو الشرقيين ونتج عن ذلك أن القبائل الحامية نفسها قد اختلطت اختلاطاً أو امتزجت مع الشعوب النيلية والبانتو والتي سبق أن تحدثنا عنها. وكان من هؤلاء دولة واهوما في شرق إفريقيا ومن أهم شعوبها الصومال ـ الجالا ـ الدناكل ـ النوبة ـ الأجاو ـ البوجو، وقد ظهر النوبيون ومن بينهم الصوماليين في مراحل التاريخ القديم والوسيط. وإلى هذه المجموعة من الشعوب تنتمي قبائل واهوما واهندا التي هاجرت إلى منطقة البحيرات الكبرى حيث أسسوا بها دول واهوما(54).

وقد أنجبت أسرة الحاميين الشرقيين شعبين تاريخيين كانا على عكس الكوشيين منذ العصور القديمة لم يمتزجوا فقط مع الساميين بل تأثروا تأثيراً كبيراً في لغتهم وحضارتهم على مدى كبير بالساميين وشكلوا بذلك حضارتهم السامية الحامية العظيمة وأحد هذين الشعبين هو مصر القديمة التي ازدهرت حضارتها منذ الآف السنين، ثم الشعب الآخر وهو الحبشة التي نشأت حضارتها الخاصة بها في أوائل العصور التاريخية، أما الحضارة المصرية فقد لعبت دوراً هاماً في خلال مراحل تاريخها القديم والوسيط على تاريخ وحضارة الشعوب السودانية وأثرت تأثيراً كبيراً على مصائرها.

كما نذكر من بين الشعوب الشرقية شعب الصومال الذي كانت له علاقات وطيدة بالعرب حتى تأثرت بهم تأثيراً لغوياً وثقافياً وتاريخياً فأصبح تاريخ

(54) Marious (L) **Etudes sur L'histoire D'Egypte**, Paris, 1966, p 112.

الصومال منذ العصور القديمة مرتبطاً بتاريخ هؤلاء العرب حتى أصبحت الصومال مع مرور الوقت دولة عربية وسنفرد فصلاً خاصاً لدراسة التطورات الثقافية والحضارية والتاريخية لهذا الإقليم وللمناطق المحيطة به.

البجـــه:

البجه أو البجاء هو اسم تلك القبائل الحامية الشمالية وإن كان الاسم المتداول حالياً هو البجه بكسر الباء، ويميل علماء الأجناس إلى الربط بينهم وبين قدماء المصريين في أقدم عصور التاريخ وبما يستدل منه على وجود قبائل البجه بشكلها المستقل ومناطقها المحددة منذ أقدم العصور.

ويرجع نسب البجه إلى تلك القبائل التي نزحت في بادىء الأمر من جزيرة العرب ثم اتصلت بقدماء المصريين ومن هنا كانت الروابط بينهما منذ القدم ولكن اختلاف الطبيعة وكثرة الأمطار في مناطقهم جعل منهم بدواً رحل ورعاة أبقار، وغلبت هذه الطبيعة على طبائعهم وأصبحت لهم صفات البداوة المشهورة وإن كانت صلاتهم قد قويت مع المدن الكبيرة المستقرة على شاطىء النيل مثل مروى ودنقلة حيث تركزت سلطة مملكة مروى النوبية التي اعتنقت الديانة المسيحية الأولى، فإن قبائل البجه البدوية لم تتأثر بالمسيحية وبقيت على وثنيتها قروناً طويلة.

وانقسمت قبائل البجه إلى مجموعات ثلاث هي:

1 ـ المجموعة الشمالية: وهم العبابدة وكانت لهم علاقات وثيقة بالفراعنة وقد اتخذت اللغة العربية فيما بعد لغة لها.

2 ـ المجموعة الجنوبية: وهم بنو عامر وكانوا تحت التأثير الحبشي الشديد عليهم وقد تكلموا لغة اليتجري.

3 ـ المجموعة الوسطى: البشارة والهدندوه وقد احتفظوا بلغتهم ذات الطابع الكوشي.

وقد اختلف لسان العبابدة وبني عامر عن اللسان المصري والحبشي بل وجدت كذلك اختلافات لغوية بينهم، وهذه الاختلافات عكست الطابع السائد بينهم أي عدم الوحدة القومية بين فروعهم المختلفة غير إنهم جميعاً قد خضعوا فيما بعد للمؤثرات العربية فيما يخص العقيدة فقد اعتنقوا جميعاً الإسلام واتخذوا مظاهر الحياة العربية ووسائل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية شأنهم في ذلك شأن قبائل الصومال والدناكل.

ورغم طبيعة قبائل البجه البدوية فإن اتصالهم بجيرانهم وخصوصاً المصريين كان كبيراً حيث تبادلوا التجارة معهم واكتسبوا منهم المعارف عن الزراعة وتربية الماشية، وتذكر المصادر الحديثة أن من أهم مناطق الاتصال بينهما كان وادي العلاقي وما يليه من جهة الجنوب حيث توجد مناجم الذهب التي كان المصريون القدماء يقبلون على استغلالها[55].

ويبدو أن البلاد التي كانت تعيش فيها قبائل البجه ومملكة مروى النوبية كانت أغزر أمطاراً وأكثر نباتاً في العصور القديمة ولكنها بدأت في الجفاف بعد ذلك مما دفع هذه القبائل إلى الهجرة إلى الجهات الأوفر ماءاً فنزحت إلى الشرق في أعداد وأفواج كبيرة وصلت السهول والوديان والمرتفعات الجبلية من شرق السودان إلى البحر الأحمر مكتسحة أمامها بلاد البوغوس وشمال الحبشة، وهذا ما جعلهم يشكلون مصدراً دائماً للقلاقل والمشاكل لمملكة النوبة التي طاردتهم وعاونت بذلك على ازدياد موجات الهجرة[56] وما إن جاء القرنان السابع والثامن الميلاديين حيث دخل الإسلام إلى مصر وتوطدت أصوله بها حتى بدأت مناوشاتهم مع مملكة النوبة المسيحية حيث كانت هجرتهم إلى الشرق قد بلغت أوجها وأصبحت حاجزاً منيعاً في شمال الحبشة يجعل اتصالها مع العالم الخارجي متعذراً عن هذا الطريق لعدة قرون.

---

(55) نفس المصدر، ص 119.

(56) Jaque, (L) p 162.

وكانت قبائل البجه وتعدادها الوفير مصدراً من مصادر القوى العاملة التي استعان بها قدماء المصريون ثم العرب فيما بعد للعمل في المناجم الموجودة في شمال السودان وأريتريا وأهمها مناجم الذهب وكان لاستقرارهم حول هذه المناجم أثر كبير في عقائدهم. وعندما بدأ العرب يحلون محلّ المصريين اختلطوا بالبجه وتزوجوا منهم كما زادت روابطهم في كثير من المناطق الأخرى وأهمها الموانىء فانتشر الإسلام بينهم واستمر انتشاره حتى أصبح جميع البجه مسلمين(57).

العـــرب:

يوحي وضع القرن الإفريقي ـ محيطاً بجنوب بلاد العرب ـ بضرورة وجود صلة قوية بين الجانبين ولقد اتضح أن هذه الصلة كانت ذات أثر فعّال في الألف عام الأولى قبل الميلاد، كما وضح أن هذه الصلة كانت طوال تلك الفترة عبارة عن حركة مستمرة في اتجاه واحد من الشرق إلى الغرب عبر باب المندب، وكانت هذه الهجرات هي السبيل الذي دخلت عن طريقه القبائل السامية أي العرب قبل الإسلام من جنوب الجزيرة العربية إلى شواطىء إفريقيا.

ومنذ اللحظة الأولى لوصول هذه الموجات من المهاجرين الساميين وضح تفوقهم على أهالي البلاد في وسط الهضبة الحبشية وشمالها وكان تأثيرهم عليها كبيراً، ومنذ تلك العهود السحيقة وهذه القبائل المهاجرة تسيطر على نواحي وأوجه النشاط المختلفة وأهمها التجارة، فازدهر نفوذ العرب وتوطد نشاطهم التجاري في شرق إفريقيا في الوقت الذي أخذ فيه النفوذ المصري القديم في الاضمحلال(58).

وكلما توغل تجار العرب القدماء داخل الحبشة والمناطق المحيطة بها

---

(57) لمزيد من المعلومات انظر: عثمان صالح سي، ص 74 وما يليها.

(58) راجع الفصل الخاص بانتشار الإسلام في الحبشة.

كلما صادفوا مزيداً من الخصب والاعتدال في الجو يرغبهم في الاستقرار في تلك الأنحاء، ولا زالت كثيراً من المواقع القريبة من مصوع تحمل من الأسماء ما يؤيد تغلغل هؤلاء المهاجرين والتجار داخل الأراضي الإفريقية.

وسرعان ما استقر هؤلاء المهاجرين واختلطوا بأهالي البلاد وأدخلوا إليها تلك الأنظمة التي ألفوها في بلادهم في شئون المجتمع والسياسة وكذلك الثقافة والحضارة، وكان لهم على وجه الخصوص تأثير كبير في تطوير البلاد وتطبيق قوانين الملكية وتهذيب أساليب العمارة وتنظيم عملية تربية الحيوان وما إلى ذلك من وسائل الحضارة(59) ومنذ ذلك التاريخ أصبح العرب وأغلبهم من اليمن وحضرموت جزءاً لا يتجزأ من بلاد الحبشة والصومال كما لعبوا دوراً هاماً في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء إلى جانب الشعوب الحامية المتأثرة بالساميين وقد بيّنا فيما سبق دورهم بين الشعوب السودانية وعلى السواحل الشرقية، وسوف نبحث بشيء من التفصيل في الفصول اللاحقة عن دورهم هذا في الفترة التاريخية التي ظهروا فيها على مسرح الأحداث في العديد من المناطق الإفريقية.

وأخيراً، يتبقّى علينا أن نذكر شعبين أو قوميتين إفريقيتين هما: الملاجاش أي سكان مدغشقر ثم الأقزام أو البيجامي، غير أن كلا الشعبين لم ينتشر بينهما الإسلام في وقت مبكر بالنسبة للطرف الأول وعلى الإطلاق بالنسبة للشعب الأخير. ونحن لن نتعرض إليهما في دراستنا هذه التي هي مكرّسة لاستعراض تاريخ إفريقيا التي انتشر بها الإسلام أي الشعوب الإفريقية المعروفة والتي استعرضنا أهم ملامحهم وتاريخهم قبل القرن الخامس عشر الميلادي أي قبل بداية دور جديد في التاريخ الإفريقي يرتبط بظهور الاستعمار الأوربي الشرس على الأرض الإفريقية واستعباده لشعوبها جمعاء.

---

(59) Jaque (L), p 161.

الفصـــل الثانـــي

علاقة العالم القديم والوسيط
بشرق إفريقيا وجنوب الصحراء

علاقة العالم القديم والوسيط بشرق إفريقيا وجنوب الصحراء

في هذا الفصل سنحاول أن نتتبع علاقات شعوب العالم في مرحلة التاريخ القديم والوسيط حتى نهاية القرن الخامس عشر وذلك في إطار محاولات هذا العالم التعرف على هذه القارة حيث إنها لم تكن معروفة لديهم ولا توجد أية اتصالات وبالذات في العصر القديم بين سكان هذا الجزء من إفريقيا وبين الشعوب الأوربية فقد استمرت حياة سكان هذا الجزء تسير في طريق تطورها ونموها وهي في عزلة تامة عن أوربا ورغم ذلك فقد قام بعض الأشخاص في أنحاء أخرى من العالم بمحاولات من وقت لآخر لاكتشاف سواحل إفريقيا في أول الأمر ثم دواخلها فيما بعد. ففي العصور القديمة كانت هناك صلات تجارية بسيطة قائمة بين الشعوب المتطورة في العالم القديم أي بين الفينيقيين والقرطاجيين والعرب وبين بعض الأقاليم الساحلية الإفريقية وبصفة خاصة السواحل الشرقية، وقد استمرت في العصور الوسطى مثل هذه المحاولات لخلق الاتصالات التجارية والكشفية وقد قام بها العرب ناشرين ازسلام بها ـ كما سنرى في الفصول القادمة ـ واستمر هؤلاء في التسرّب إلى بعض مناطق إفريقيا الاستوائية، ومع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ازداد اهتمام وتدخل الأوربيين في أقاليم عديدة نتيجة اكتشاف أمريكا والقيام بتجارة الرقيق مع العالم الجديد وأصبح مصير الشعوب الإفريقية منذ تلك اللحظة مرتبطاً بتاريخ الشعوب الأوربية عامة وبنشاطهم الاستعماري بصفة خاصة، لذا

فإن دراستنا لهذا الموضوع ترتكز على محاولة تتبع تاريخ علاقات الشعوب الإفريقية بالعالم القديم والوسيط بصفة خاصة من خلال عنصرين رئيسين هما:

أ ـ محاولات الشعوب القديمة اكتشاف إفريقيا واستغلالها.

ب ـ التغلغل العربي إلى دواخل إفريقيا.

أما الاكتشافات الجغرافية مع بداية العصور الحديثة فهي ليست لها صلة بموضوع دراستنا هذه.

أ ـ محاولات العالم القديم للتعرف على إفريقيا

كما ذكرنا لم تكن إفريقيا جنوب الصحراء معروفة للعالم الأوربي القديم فكل ما يعرفه عن إفريقيا كان عن مصر وشمال إفريقيا الواقعة على البحر المتوسط والتي تحدّها الصحراء الكبرى جنوباً وكان كل ما يقع في جنوبها في نظرهم عالم رعب وغموض وأنها إمبراطورية خرافية يسكنها متوحشون يمتلكون ثروات هائلة[1].

ولم يكن العالم القديم يعرف أي شيء عن الأقاليم والأقطار الواقعة جنوب خط عرض 30° شمالاً سوى الحبشة وما يحيط بها من مناطق من السودان الشرقي (النوبة ـ بناته ـ مروى) حيث أقامت مصر والفينيقيون والإغريق والرومان علاقات تجارية مع هذه الشعوب إلى جانب بعض الاعتداءات والتدخلات العسكرية وفي نفس الوقت قامت بعض شعوب العالم القديم العربية ببعض العلاقات التجارية مع أقاليم سواحل شرق وغرب إفريقيا حيث احتكر الفينيقيون والقرطاجيون التجارة مع عرب إفريقيا ولٰكنهم لم يبتعدوا في رحلاتهم

(1) Taun- (H), **Histoire del'Afrique occide ntale, nahan,** Paris, 1970 p 30.

التجارية إلى ما بعد مستعمرة ريودورو الإسبانية. كما أقام العرب منذ التاريخ القديم العديد من المحطات والمستوطنات التجارية على سواحل إفريقيا الشرقية وقد امتدت من الصومال إلى موزمبيق وقليماني[2].

ولم يكن العالم الأوربي القديم يعرف شيئاً عن جنوب ووسط إفريقيا وكذلك عن دول ساحل غينيا فقد عرفت هذه الشعوب فقط بأنه يوجد في جنوب الصحراء العديد من دول شعوب سوداء والتي أطلق عليها اليونان والرومان إسم «أثيوبيس» أي الأثيوبيين وتعني «ذوي الوجه المحترق» وفي نفس الوقت الذي كان يجهل فيه العالم القديم كل شيء عن هذه الأقاليم كان للقرطاجيين علاقات دائمة بها أسبق من ذلك. بينما قام الرومان في ذلك الوقت بتجريد الحملات العسكرية على الشعوب القاطنة جنوب الصحراء أي الجرمنتين وذلك في القرون الأولى الميلادية[3] وكان القرطاجيون يصدرون إنتاجهم وبصفة خاصة إلى دول السودان الغربي بل وأبعد من ذلك إلى نهر النيجر ومن هناك استوردوا الرقيق والذهب والأحجار الكريمة والتمور ولكن هذه التجارة كان يقوم بها نيابة عنهم الوسطاء من الشعوب البدوية الصحراوية ولم يغامروا في الدخول إلى بلاد الأثيوبيين كما أنهم قاموا بثلاث رحلات نجارية إلى أقطار إفريقيا جنوب الصحراء وذلك عن طريق القوافل التي اخترقت الصحراء إلى هذه الأقاليم ولكنهم رغم أنهم جمعوا معلومات عن هذه المناطق التي وصلوا إليها إلا أنهم آثروا الصمت حرصاً على مصالحهم التجارية[4].

ويعتبر المصريين القدماء أول الذين اتصلوا بشرق إفريقيا واعتبروها في ذلك الوقت جزء من بلاد النوبه (كوش) والأرجح أنهم وصلوا إلى هذه المناطق

---

(2) نفس المصدر ص 42.

(3) Gane- (L), **L'Europe et L'Afrique** Paris, 1945, p 72.

(4) نوري (أحمد) «العلاقات العربية الإفريقية» مجلة السياسة الدولية، القاهرة العدد العاشر، 1970، ص 120.

عن طريقين: الأول عن طريق الغرب متتبعين مجرى النيل، والثاني عن طريق البحر بعد وصولهم إلى الشاطىء الصومالي بحثاً عن التوابل والبخور والعاج والذهب وهي المنتجات التي كانت تشتهر بها بلاد القرن الإفريقي في ذلك الوقت، ويبدو أنهم وصلوا إلى هذه المناطق خلال الألف الثالثة ق. م حيث أنهم جلبوا معهم إلى ملكهم بيبي الثاني القرود والحيوانات الإفريقية وبعض الأقزام. وفي عهد الأسرة الثامنة عشر أي في القرن السادس عشر ق. م تكررت هذه الرحلات حتى جاء ذكرها في تاريخ الملكة حتشبسوت والمسجلة على جدران معبد الدير البحري في الأقصر، كما غزا رمسيس الثالث بلاد العرب وبنى أسطولاً أنزله البحر الأحمر وأرسله إلى بلاد بونت وكان غرضه الرئيسي تذليل طرق التجارة البحرية بين مصر وبلاد الشرق وقد استطاع أن ينشىء طريقاً برياً بين القصير على البحر وقفط على النيل بالصعيد وكانت قصير إحدى موانىء مصر في الجنوب والتي تعمل بالتجارة الإفريقية وكذلك طريقاً بحرياً بين المحيط الهندي والبحر الأحمر عن طريق بلاد العرب والساحل الإفريقي(5).

وكانت أول محاولات للكشف عن القارة السوداء في أواخر القرن السابع وفي القرن السادس ق. م قيام ثلاث حملات كانت إثنتان منهما للكشف عن سواحل إفريقيا والثالثة عن دواخل القارة وهما حملات الملك نخاو وهانو القرطاجي وحملة قمبيز. ففي عام 603 ق. م أرسل الملك المصري نخاو الثاني فرعون مصر حملة بحرية يقودها بحارة فينيقيون وقد قامت الحملة من خليج السويس وكانت مهمتها كشف السواحل الإفريقية والالتفاف حول جنوب إفريقيا وقد استغرقت هذه الحملة ثلاث سنوات ولكننا لا نعرف أي شيء عما توصلت إليه عن شعوب وأقطار وأقاليم القارة التي مروا بها سوى ما ذكره لنا

(5) Jaque (M) «L'Annciene Egypte et L'Afriaue» **Jenne Afrique,** Main 1972, p 10.

المؤرخ هيرودوت الذي نقل كل ما أذاعوه عنها منها:

1 - إن الحملة قد أقامت مرتين ولفترات طويلة على أرض القارة حيث زرعوا القمح وانتظروا الحصاد ثم أقلعوا بسفنهم.

2 - ذكر البحارة بأنهم أثناء سفرهم «عائدون» كانت الشمس على أيديهم اليمنى، وقد ذكر هيرودوت هذه الواقعة على أنها من أكاذيب البحارة(6) ولكن النظريات العلمية الجغرافية والفلكية في العصور الحديثة أثبتت صدق هؤلاء فيما ذكروه عن موقع الشمس في السماء وقت الظهر إذ أن هؤلاء قد تخطوا الاستواء وبالتالي فإن موقعها في السماء قد تغير بالنسبة لهم. فمن المعروف أن الشمس في جنوب خط الاستواء تظهر ظهراً في شمال السماء وليس في جنوبها والمسافر الذي يواجه الغرب لا بد وأن تظهر الشمس على يده اليمنى بخلاف الوضع في شمال القارة(7).

وهكذا قام الفنيقيون برحلاتهم إلى القارة قبل البرتغال بألف سنة على الأقل.

أما ثاني الحملات فهي الحملة البحرية بقيادة هانو بن هامليكار القرطاجني التي دارت حول الشاطىء الغربي للقارة وقد اتجهت عكس وجهة الحملة المصرية، فقد خرجت من قرطاجنة إلى الغرب عبر مضيق جبل طارق ثم السواحل الغربية والاستيطان بها وقد جهزت الحملة تجهيزاً قوياً وتكونت من ستين سفينة ويقال أن طاقهما وما تحمله من بشر حوالي ثلاثين الف وهذا العدد الضخم يؤكد لنا أنه لم يكن هدف الحملة الاكتشاف فقط بل الاستيطان إذ كان من بين هؤلاء أسر كاملة كانت تريد الاستيطان في مراكز ومحطات التجارة

---

(6) نفس المصدر، ص 85.

(7) Mant (L), **Giograph, ede L'Afrique** Bruxlle, 1970, p 116.

القرطاجية الممتدة على سواحل إفريقيا الشمالية الغربية وكان هؤلاء يغادرون سفنهم إلى الشاطىء أثناء تقدم الحملة حيث أنشأت مستعمرات قرطاجينية ومن بينها مستعمرة كبرى في إقليم وادي الذهب وقد تابعت الحملة إبحارها نحو الجنوب وتجاوزت نهري السنغال وجامبيا ودارت حول الرأس الأخضر ووصلت إلى ما يعرف اليوم بسواحل سيراليون ولكن نقص المؤن اضطر الحملة إلى العودة[9]. أما الحملة الثالثة فهي حملة قمبيز التي تعتبر أولى المحاولات للتوغل في قلب القارة الإفريقية حيث قام الملك قمبيز الفارس في نهاية القرن السادس ق. م بعد احتلاله لمصر في 525 ق. م وبعد حملته الفاشلة ضد الأثيوبيين قرر أن يكتشف أعالي النيل ومنابعه وقد خرج على رأس جيشه وعبر النوبه إلى وادي النيل الأبيض واختفى مع جيوشه في صحراء النيل الأوسط دون أن يترك أثراً[10].

أما عن دور الإغريق والرومان ونشاطهم الكشفي فإن نشاط الشعوب الأوائل بالعالم الكلاسيكي تجاه القارة الإفريقية لم يكن يهدف إلى الكشف الجغرافي ومعرفة القارة بقدر ما كان بالأساس موجهاً نحو التجارة والحملات العسكرية على شمال إفريقيا فإلى جانب التجار والقادة العسكريين ورجال الإدارة وجدنا بعض علماء اليونان والرومان قد ذهبوا إلى إفريقيا لتحقيق هدف آخر يخدم أهدافهم التجارية وهو محاولتهم الكشف عن أحوال الإقليم وأهله وبالفعل أقاموا علاقات تجارية مع سواحل إفريقيا الشرقية وجزرها وكان من النادر أن تطأ أقدام الإغريق والرومان أراضي دواخل إفريقيا ولكن رغم ذلك فقد أبدى كل منهما اهتماماً متزايداً في محاولة دراسة هذه المناطق الغامضة وقد أبدى قوادهم الاهتمام بإفريقيا الاستوائية المتاخمة لمصر والنوبة بينما كان

---

(8) Jaque, **L'Annciene Egypte,** p 80.

(9) نفس المصدر، ص 87.

(10) Ganiag (J) **Voyages en Afrique,** Paris Marchale, 1962, P 122.

تجارهم يحلمون بإقامة علاقات تجارية ناجحة وذلك بالكشف عن الأقطار الجنوبية المشهورة بثرواتها الخرافية، كان الإغريق أسبق من الرومان في محاولة التعرف على القارة ففي أوائل القرن الخامس ق. م قام هيكاتوس ببعض الرحلات لمصر كذلك قام هيرودوت في منتصف القرن نفسه بنفس الرحلات حيث وصفوها لنا كما تعرضوا كذلك للأقاليم الإفريقية المجاورة لمصر وكانت معلوماتهم مأخوذة عن روايات المصريين والرحالة المعاصرين وقد استمر الوضع كما هو عليه في منتصف القرن الثالث ق. م حيث قام أراتوستانيس (276 ـ 196 ق. م) أمين مكتبة البطالمة الشهيرة بالكتابة في الموضوع نفسه، وكانت أول رحلة لشاهد عيان هي تلك الرحلة التي قام بها المؤرخ العسكري اليوناني بوليبايوس في منتصف القرن الثاني ق. م وكان في خدمة الرومان وقد قام بالكشف والكتابة عن السواحل الشمالية لدولة موريتانيا اليوم، وكان أيدوكسيوس هو الإغريقي الوحيد الذي قام بعملية كشوف هامة جنوب خط عرضه 30° شمالاً وكان ذلك في نهاية القرن الثاني ق. م وقد بدأ رحلته من جبل طارق وأبحر بجوار سواحل غرب إفريقيا بهدف الالتفاف حولها ولكننا لا نعرف إلى أي حد قد بلغ في رحلته هذه والأكيد أنه قد وصل إلى سواحل الكميرون لأنه تقابل في طريقه بالأثيوبيين الذين يتكلمون لغة سواحل شرق إفريقيا، أي إنه التقى مع قوميات من شعب البانتو.

وفي خمسينيات القرن الأول قام التاجر اليوناني ديوجينوس برحلة طويلة إلى داخل قلب إفريقيا الشرقية[11].

أما الرومان ففي القرنين الأول والثاني الميلادي بدأ نشاطهم يظهر بطريقة غير مباشرة منها إبحارهم حول سواحل البحر الأحمر مثل حملة إيليوس جالوس على الجزيرة العربية عام 34 م وحملاتهم العسكرية ضد الأثيوبيين وربما يكون

(11) نفس المصدر، ص 132.

المقصود هنا هو السودان الأوسط في إقليمي برنو وكانم حيث قام جاليوس بترونيوس في النصف الثاني من القرن الأول بحملته عليهم، وفي القرن الثاني قام سبتيموس فيكوس ويوليوس نارينوس بحملاتهم ضد الجرامنت جنوب ليبيا[12].

وفي عام 66 أرسل الامبراطور نيرون أول حملة ذات هدف علمي إلى قلب القارة الإفريقية لاكتشاف منابع النيل وقد اكتشفت هذه الحملة النيل الأبيض حتى التقائه مع بحر الغزال ونهر السوباط وقدمت لنا الحملة تفاصيل عديدة عن الرحلة وعن سدود النيل النباتية وقد اعتمد المؤرخون والجغرافيون الرومان وغيرهم على تلك المعلومات التي قدمتها الحملات السابقة وأكملوا بذلك معارف العصر عن وصف القارة[13]. وفي هذه الفترة تواجد لدينا أربعة من المؤلفات الشهيرة وهي كتب كل من سترابيون - بونبونيوس ميللا - فليني من كتاب القرن الأول ثم كلاوديوس بطليموس في القرن الثاني الميلادي، وقد قام سترابون وبطليموس بنفسهما بالرحلات على طول النيل بينما قام الأخير برحلته على طول البحر الأحمر ويعتبر مؤلف بطليموس أهم وأدق المؤلفات الأربعة السابقة الذكر[14].

وقد ظهر في عام 80 م إلى جانب المؤلفات السابقة مؤلفان جغرافيان تناولا بالذكر معارف العصر الهلينستي عن القارة الإفريقية وكان ظهورهما بمدينة الإسكندرية، والمؤلف الأول كتبه تاجر إغريقي معروف وهو كتاب «رحلة إلى البحر الأريتري» والثاني من أعمال المؤرخ السوري «مارينوس السوري» ولم يبق من كتاباته إلا ذلك الجزء عن منابع النيل الذي نقله إلينا بطليموس الذي أخذه عنه حرفياً، وفي بداية القرن الميلادي الأول كتب جوبا ملك نوميديا بشمال

---

(12) Gueneron (H) **Les Garamants,** P.U.P. Paris 1962, P 16.

(13) Herve (L) **L'Empire Romanne,** Presse, Universitaires, Paris, 1971, P 19.

(14) نفس المصدر، ص 27.

إفريقيا وهو حفيد الرومان كتاباً عن منابع النيل إلا أن الكتاب ضاع وقد وصلت إلينا رواياته خلال كتاب فليني[15].

ورغم أن الإغريق والرومان قد انشغلوا بإفريقيا ولكن ما ذكروه عنها كان سطحياً وساذجاً للغاية، وكل ما كتبوه بجانب المنهج العلمي في أغلب الأحيان فقد صور لنا هيرودوت النيل كنهر وحيد ينبع من الغرب ويجري مستقيماً عبر مناطق مروى والنوبة حيث ينحى بعد ذلك نحو الشمال، هذا بينما كان كل من هيرودوت وسترابون يعتقدان بأن إفريقيا لم تكن تمتد كثيراً وتصوروا بأن القارة لم تكن تزيد مساحة عن شبه جزيرة العرب بينما كان الملك جوبا وهو في دولته على علاقات بإفريقيا الغربية يعتقد بأن النيل كان متصلاً بنهر النيجر وأن منابعه كانت في غرب موريتانيا وأنه كان متصلاً بنهر النيجر وإن منابعه كانت في غرب موريتانيا وأنه كان متصلاً ببضع بحيرات وذلك في مجرى تحت الأرض، أما فليني فقد خلط بين نهري النيجر ودرعه في جنوب المغرب، كما خلط بين النيل والنيجر، وقد وقع بطليموس الجغرافي الشهير في خطأ فادح حين خلط بين الخيال والحقيقة بالنسبة لمجرى أنهار إفريقيا ولعلمه بوجود ثلاث أنهار كبرى فيها فقد كان النيل طبقاً لما ذكره ينبع من بحيرتين كبيرتين في الجنوب على سفح جبال القمر ومنها يخرج فرعان للنيل نحو الشمال وطبقاً لقوله يوجد نهران كبيران داخل الإقليم هما النيجر والجير وكلاهما ينبع من قلب بحيرة كبيرة[16].

وكانت معارف أهل أوربا وآسيا في العصور القديمة والوسطى في الواقع عديدة إلا أنها خاطئة وخرافية وسطحية في نفس الوقت كما كانت مؤلفات العصور القديمة تتناول فقط المعارف الجغرافية للقارة دون أي ذكر لتاريخ شعوبها.

---

(15) نفس المصدر، ص 32.

(16) Aymaru et Augoyer, **Rome et son empires,** Tomel Oucidat, Liban, P 82.

أما سواحل إفريقيا الشرقية فإنها كانت أوفر حظاً حيث زارها الملاحون الإغريق الذين أطلقوا عليها إسم إقليم العطور - أروماتياريحبو - ونقلت إلينا أعمال الجغرافيين الرومان الكثير عن أحوال سكان المنطقة فالجغرافي سترابون ذكر فيما كتبه عن إفريقيا الكثير من عادات أهل البلاد ووصف لنا طرق الدفن والجنازات عند سكان ساحل الصومال اليوم وتشبه هذه الطقوس الكثير من الطقوس التي يزاولها الصوماليون اليوم(17).

أما التاجر الروماني أريتيوس فقد صوف رحلته لسواحل البحر الأحمر وهي التي حدثت في القرن الأول الميلادي حوالي عام 85 م حيث ذكر الكثير عن قبيلة تسمى أوالتياي وهي على ما يبدو قبائل حبراوي الصومالية وذكر كذلك بأن سكان جزيرة سقطرى كانوا من أتباع ملك أرض التوابل والبخور وقد حاول الرومان إخضاع الشعوب الفنية في بلاد العرب والاستيلاء على مواطن تجارة التوابل والعطور وإيجاد الطريق المنشودة إلى الهند فجردوا حملة إيليوس جالوس في عام 34 م على جنوب الجزيرة العربية واستعانوا بالأنباط الذين ضللوهم حتى لا يفقدوا احتكارهم للتجارة الشرقية فعادت الحملة خائبة مهزومة(18) ولعبت اليونان أيضاً دوراً في هذه المنطقة تجارياً وحضارياً فقد أثرت الحضارة اليونانية في الحبشة التي استخدمت اللغة اليونانية فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلادي.

ومن المعروف أن الساحل الأريتري كان حلقة اتصال بين الأحباش وكثير من الأمم الأخرى وقد يرجع تاريخ هذا الساحل إلى فترة أقدم من قيام دولة أكسوم حوالي القرن الثالث ق. م، فعلى هذا الساحل كانت تقيم جاليات يونانية تشتغل بالتجارة ولهم موانىء ترسى فيها سفنهم وكان لميناء عدول الذي تأسس في عهد بطليموس فيلادلفيوس في القرن الثالث ق. م أهمية تجارية عظمى

(17) Copans, (L), **Histoir de L'Afrique Noire** Dakar, 1982, P 117.

(18) نفس المصدر.

حيث استعمل لتصدير أنواع العاج وقرون الكركون وجلود الحيوانات والرقيق الذين خصصت لهم أسواق تجارية يردون إليها من بلاد شرق إفريقيا لتصديرهم إلى غيرها من الدول، وقد أقام اليونان في عدول وغيرها من المناطق المحيطة بها، وفي القرن الأول ق. م. كثر فيها البحارة الإغريق القادمين من مصر والإسكندرية، وفي العصر المسيحي بسطت دولة أكسوم نفوذها على عدول فأصبحت المكان الذي يحشدون فيه أسلحتهم وعدتهم عند ماربة اليمن وقد تركوا فيها نقوشاً كثيرة تفيد ذلك، وقد بنيت آثار الميناء أن بلاط الملك والحكومة الأكسومية وربما الشعب الحبشي أيضاً كان متأثراً بالحضارة واللغة الإغريقية وإن كانت قد استخدمت استخداماً محدداً[19].

وهكذا يتضح لنا أن العالم الأوربي القديم كانت معارفه واتصالاته بجنوب الصحراء محدودة وسطحية خاصة غرب إفريقيا ولم ينجحوا في الوصول إلى أعماق هذه المناطق ولم يكن هناك اتصال بينهم وبين سكان هذه الأجزاء التي عاشت كما ذكرنا في عزلة تامة عن العالم الأوربي الخارجي وما قام به الرحالة والعلماء والتجار من نشاط في هذا المجال يعتبر محدوداً إلى حد كبير، وإن كان هذا النشاط قد وضح بصورة أكثر في الساحل الشرقي الإفريقي إلا أنه لم يتجاوز بعض الأقاليم كما ذكرنا.

ب ـ التغلل العربي إلى دواخل القارة

تتحدث المصادر التاريخية عن وجود علاقات اقتصادية بين مناطق الشمال وغربي القارة الإفريقية ووسطها في العصور الكلاسيكية، وقد ازدهرت هذه العلاقات وتطورت بعد الفتح العربي لمصر وشمال إفريقيا[20].

---

(19) Ganiag (J), P 112.

(20) أحمد سعيد الفيتوري «**الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1981، مركز الجهاد، طرابلس، ص 245.

وترجع أصول العلاقات القديمة بين شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا على وجه الخصوص إلى قرون كثيرة وقد جاء هذا الاتصال عبر منطقتين هامتين حملتا مختلف المؤثرات العربية إلى هذه المناطق وهاتان المنطقتان هما الجزء الجنوبي من البحر الأحمر والخليج العربي.

لقد ربط باب المندب منذ عصور مبكرة بين العرب والأفارقة حيث عبرته الموجات الأولى التي شكلت السكان في المنطقة، ولما كانت المصالح التجارية بين شاطىء باب المندب الإفريقي والآسيوي آخذة في التطور فقد أدى ذلك إلى تطور العلاقة والمصالح بين الشعوب المطلة عليه والمتمثلة في الروابط السياسية والاجتماعية والحضارية وقد تطورت هذه العلائق أيضاً عن طريق الخليج العربي وترجع جذورها إلى حقب قديمة يمكن تحديدها حسب الأدلة التاريخية بالنصف الأول من القرن الثالث ق. م[21].

لقد قامت مملكتي معين وحضرموت في عصور ما قبل الميلاد بدور تجاري هام بين منطقتي شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا وكان من الطبيعي أن يكون لكل منهما سفنهما التجارية العاملة بين الخليج والساحل الإفريقي، وفي الألف الأخير قبل الميلاد صارت الملاحة أمراً معروفاً من البحر الأحمر إلى السواحل الإفريقية والهند حيث كان تجار صور يبحرون عبر البحر الأحمر إلى السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وسواحل شرقي إفريقيا في القرن العاشر ق. م بحثاً عن السلع الإفريقية، كما لعبت دولة هوزان العربية التي أكدت الآثار وجودها في نهاية النصف الأول من الألف الأخير ق. م دوراً بارزاً في تعميق وتقوية الصلات العربية بساحل إفريقيا جنوب القرن الإفريقي ربما أقيمت بعض المراكز أو المحطات التجارية على ذلك الساحل كما فعل الفينيقيون في البحر المتوسط ومما يدل على عمق الأثر الذي تركته هذه الدولة على تلك السواحل

(21) أحمد الياس حسين، «انتشار الإسلام في شرق إفريقيا» محاضرات الموسم الثقافي الأول 1979 ـ 1980، طرابلس مركز الجهاد، 1989، ص 277.

منذ أكثر من ألف عام أن سواحل الصومال وكينيا وتنزانيا عرفت في المصادر القديمة باسم (ساحل هوزان) أو وازنيا[22]، وبينما كانت عمليات الكشوف والدراسات الجغرافية عن إفريقيا في أوربا في بداية العصور الوسطى قد وصلت إلى مرحلة الخمود التام فلم تكن الشعوب المسيحية الأوربية مهتمة بها ونسيت أعمال جغرافيي العالم القديم وضاعت في غياهب الظلام والنسيان وكانت خرائط العصور الوسطى عن إفريقيا تحتوي على التافه من المعلومات المغلوطة والساذجة ومنها أن النيل يفصل بين إفريقيا وآسيا، بينما اختفت عن الوجود تلك المراكز التجارية التي أقامها العالم القديم على سواحل إفريقيا الاستوائية ولم يعد أحد يعرف عنها شيئاً، وبانشغال أوربا بمشاكلها واستجلاء الغموض الذي يحيط بالقارة وكان ذلك ضمن خطة هدفت إلى تحويل نشاطهم هذا وفتوحاتهم في إفريقيا إلى مراكز وأسواق تجارية. فقد ظهرت المستقرات والمحطات التجارية العربية على سواحل شرق إفريقيا كما أشرنا في الفترة السابقة على ظهور الإسلام، وفي القرن السابع كانت هناك مراكز ومستوطنات تجارية عربية في الأقاليم الشمالية لنهر النيجر وفي شمالي السنغال حيث أخذ العرب يتعاملون مع الصحراء الكبرى.

إن تسمية واحات الصحراء الكبرى بالجزائر تدل على أن العرب لديهم فكرة واضحة عنها وعن اتساعها الشاسع وطبيعة أراضيها ومناخها وكيفية عبورها والعيش فيها بل كانت لديهم فكرة واضحة عن الحزام الصحراوي الذي يحيط بالكرة الأرضية في نصفها الشمالي فيما بين عرضي 10، 40 على وجه التقريب[23]. كما أنهم عرفوا الطرق الرئيسية التي تشقها في أطرافها المختلفة ووضعوا وعرفوا مراحل كل طريق وما عليه من الجزائر أو الواحات التي تحطّ

(22) نفس المصدر ص 228 ـ 229.

(23) حسين مؤنس، «فزان ودورها في انتشار الإسلام في إفريقيا» مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، 1969، بنغازي، الجامعة الليبية، ص 69.

بها القوافل للراحة، وعرفوا كذلك المسافات وحددوها بالمسافات والأيام والأميال وحددوا وتحدثوا عما يجده المسافر من أصناف الزاد في كل محطة من هذه المحطات وما يمكن أن يحمل إليها من البضاعة وما يمكن أن يصدر منها[24].

وفي فترة ظهور الإسلام كانت معلومات العرب عن شرق إفريقيا وبعض مناطق جنوب الصحراء ومسالكها وافية، فبعد هذه المرحلة التي تمثلت في قيام الدولة العربية الكبرى في آسيا وشمال إفريقيا وإسبانيا قامت في بعض أقطار وسط إفريقيا وبصفة خاصة على الساحل الشرقي وبعض أجزاء جنوب الصحراء العديد من الدول والمدن وهي غالباً ما كانت تابعة للسلطات العربية الرسمية وقد ازدهرت هذه المدن والسلطنات العربية خلال العصور الوسطى وقامت بالاتجار مع بقية العالم العربي والهند وكانت أهم صادراتها الذهب والتوابل، لقد شكّل هذه المدن والسلطنات بالإضافة إلى الأفارقة الذين أسلموا ـ الجاليات العربية التي توافدت في فترات مختلفة على هذه المناطق والتي كانت تتبع الثقل السياسي والاقتصادي في الممالك السودانية. ففي البداية تواجدوا في غانا ثم ارتحلوا إلى مالي ثم ءلى سنغاي وحملوا معهم العقيدة الإسلامية والحضارة العربية التي فتحت آفاقاً جديدة في حياة هذه الشعوب وقد أثرت تلك الجاليات تأثيراً بارزاً في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية في المناطق الإفريقية التي وصلت إليها[25].

إن العرب القدامى بإمكانياتهم المتواضعة في تلك العصور استطاعوا أن يركزوا وجودهم بإفريقيا إلى يومنا هذا في حين ظل الاستعمار هامشياً رغم إمكانياته وطول فترة بقاءه بالقارة، لأن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء المنطقة فهم يتاجرون وينشرون الإسلام واللغة العربية ولم يطغ أي هدف آخر

---

(24) نفس المصدر، ص 73.

(25) أحمد سعيد الفيتوري، ص 252.

غير نبيل بينما كان للاستعمار أهداف مريبة واضحة تمثلت في الاستغلال الاقتصادي للمنطقة ونفي الدور التاريخي والحضاري لها[26].

لقد قام العرب إلى جانب نشاطهم التجاري والاستيطاني بنشاط كشفي له أهميته بالنسبة لتاريخإفريقيا، فمنذ القرن العاشر الميلادي قام الرحالة والجغرافيون العرب ـ كما سنرى بالتفصيل عند حديثنا في الفصل الثالث عن دورهم في حركة انتشار الإسلام بالقارة ـ بزيارة أقاليم عديدة سواء على ساحل إفريقيا الشرقي أو جنوب الصحراء ودوّنوا معلوماتهم وانطباعاتهم واستنتاجاتهم العلمية عنها التي أفادت الجغرافي الصقلي العربي الإدريسي بوضع خريطة جديدة لإفريقيا إلى جانب خريطة الأرض التي كانت قد وضعها لملك النورمان في صقلية.

ومما لا شك فيه أن الاتصال العربي بإفريقيا قد تبلور في صورته الواضحة بفضل العناصر السامية المهاجرة من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة وكانت أرقى العناصر جميعاً وهم حملة الحضارة إلى هذه المناطق وهم الذين أسسوا الدولة الأكسومية الزاهرة بعد أن استقروا في الوطن وتأثروا بالبيئة الحبشية وتفاعلوا مع العناصر الإفريقية والحامية. وكان الساميون بالحبشة يتكلمون لغات ولهجات قريبة الشبه من العربية الجنوبية (لغة اليمن القديم) وأقدم لغة سامية تكلموها هي لغة الجعز نسبة إلى قبيلة الأجاعز وهم أقدم من هاجر إلى الحبشة من القبائل اليمنية وقد انتقلوا إلى الجانب الشمالي الشرقي منها وكانوا شعباً قوياً اشتغل بالتجارة واتسع نفوذه فيها بحيث أصبح على رأس الطبقات الحاكمة[27].

واستخدم الساميون في أيامهم الأولى بالحبشة اللغة والكتابة السبأية أي الخط المسند، وكان السبأيين الذين استطونوا المرتفعات الأريترية وهضبة

(26) محمد مرزوق، «العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر» مجلة البحوث التاريخية العدد الثاني 1985، طرابلس، مركز الجهاد، ص 84.

(27) Copans, P. 160.

النجراي لم يقطعوا صلاتهم بالوطن القديم ويظهر من الكتابات الأسكومية أن ملوك أكسوم كانوا في السواحل العربية الجنوبية في القرن الأول الميلادي والثاني أيضاً ويظهر أنهم كانوا قد استولوا على السواحل الغربية وهي سواحل قريبة من الساحل الأريتري[28]. وقد نقل هؤلاء إلى الحبشة أسماء مواطنهم الأصلية وأطلقوها على مناطقهم الجديدة مثلاً أوام ـ مدري ـ قلي ـ ضهر ـ حوزين، كما نقل هؤلاء إليها عقيدتهم الدينية، ووجود النضائر الدينية واللغوية في كل من الحبشية واليمن قد جعل الباحثين يرجحون وجود قرابة أو صلة عرقية بين الساميين والأحباش وبعض قبائل سبأ، وقد رجّح هؤلاء أن هذه القبائل اليمنية قد نزحت إلى السواحل الأريتيرية منذ زمن بعيد لمزاولة التجارة وربما كانت هجرة بعضهم من شرقي حضرموت[29] وليس من السهل تحديد أزمان هذه الهجرات ولكن الأرجح أنها حدثت قبل الميلاد بقرون عديدة.

ومن المعروف أن القبائل التي هاجرت إلى الحبشة كانت تسكن قبل هجرتها على الساحل اليمني أو قريباً منه ومنها قبيلة سهوت أو سحوت التي كانت تسكن على رأس المضيق ثم قبيلة حبشت وهي أشهرها وكانت تسكن على الساحل أيضاً وقد أخذت في هجرتها الطريق البحري الذي يصل إلى خليج مصوع وهضبة الحبشة فقد خرجوا منها ومروا بأكسوم وتغازه واحتلوا الجانب الشرقي من الحبشة وقد أطلق اسم هذه القبيلة أي حبشت على جميع البلاد بينما كان لسان هؤلاء هو لسان الجعز أي لسان قبيلة الأجاعز اليمنية القديمة. ومن المعروف أن نزاعاً قد حدث في أول الأمر بين المهاجرين وأصحاب البلاد من الحكام ثم لم يلبث المهاجرين أن تفوقوا عليهم بتفوق حضارتهم واتسع نفوذهم

---

(28) عثمان صالح سبي، **تاريخ اريتريا**، بيروت، شركة النهار للخدمات الصحفية، 1974، ص 24.

(29) Jaune (H) **Histoire de L'Afrique occidentale Francais** Fernand Nathan Paris, P 78.

تحت زعامة الأجاعز واستطاعوا أن يبسطوا عن طريق نفوذهم الاقتصادي سلطانهم السياسي على البلاد وأن يصبحوا سادة يملكون ناصية الحكم على الجزء الشمالي من الحبشة ثم على سائر الهضبة[30].

وكانت مدينة أكسوم حاضرة هذه الدولة القديمة القوية وهي تقع شمال الحبشة ولا نعرف عن تاريخها قبل هذه الدولة إلا القليل حيث أن تاريخها يرجع إلى القرن الأول ق. م وقد استخدمت الدولة لغة الجعز ثم ما لبثت أن تطورت في شكلها وموضوعها لم ينته القرن الرابع الميلادي حتى أصبحت لغة متميزة نوعاً ما كما تأثرت بمجاورة اللغات الحامية والإفريقية المختلفة، وقد لوحظ قوة التأثير الميني على أسماء الملوك الذين حكموا حوالي ميلاد المسيح وحتى النصف الثاني من القرن الثالث (8 ـ 274 م) إذ كانت أسماؤهم مصدره بالمقطع «زا» وتعني صاحب ويقابلها ذو بالعربية ويقال لأمثالهم من ملوك حمير بالأذواء مثل ذويزن وذوجدن وما يلي هذا المقطع يدل على اسم القبيلة أو الشعب أو المكان الذي ينتسب إليه الشخص، وابتداء من عام 275 وحتى 478 وجدنا البعض الآخر من ملوكهم تبدأ أسماؤهم مصدره بأل مع نطق اللام مفتوحة مشددة أو مفتوحة مخففة، وهذا التركيب كان معروفاً عند اليمنيين ومن أسماء ملوك الحبشة المسمون به آل سفح، وآل سمره، وآل برهه[31].

إن التأثير اللغوي لجنوب شبه الجزيرة العربية منذ عهود قديمة على ارتيريا وشمال شرقي إفريقيا يدل على مدى التواصل بين هذين الإقليمين المتجاورين حيث تعتبر جعز ـ والأصح جنز ـ أقدم لغة سامية في شمال شرقي إفريقيا حيث نجح الساميون في فرض ثقافتهم ولغتهم على الشعوب الكوشية التي سبقتهم استناداً على تقدمهم الحضاري وقد كانوا هم الذين استقدموا وسائل الزرع على التلال بالتروس وتعني الزراعة السفحية على المدرجات كذلك البناء بالحجر

(30) دانز، **الحضارة والتاريخ الإفريقي**، محمود نسيم، بيروت 1969، ص 119.

(31) نفس المصدر.

الخالص وبناء المعابد والقصور البيضاوية والكتابة وغيرها من أسس الحضارة والتقدم، وحلّت دياناتهم محلّ الديانات القديمة للأقوام الكوشية التي كانت تقدس أنواعاً معينة من الأشجار والمياه والثعابين، ولقد كانت ثجز في بادىء أمرها لغة لقبائل سامية كانت تعيش وسط قبائل إفريقيا في الهضبة الأريترية وفي أكسوام ولما أخذ العنصران يندمجان ويكونان أمة واحدة ليست بسامية خالصة ولا حامية خالصة ظلت هذه اللغة لغة هذه الأمة المختلطة الجديدة دون أن تفقد صبغتها وأصالتها السامية لأن أصول اشتقاقها موجودة في اللغة العربية وغيرها من اللغات السامية[32].

وقد ظهر إلى جانب الثقافات السامية العربية ثقافات أخرى تسربت إلى الحبشة ومن أهمها الثقافة اليهودية فقد استوطنت بعض العناصر اليهودية فيها بعد هجرات الساميين إليها ويسمى يهود الحبشة بالفلاشة وكثير منهم يقيمون الآن في شمال بحيرة تانا ويمتدون حتى مدينة أكسوم ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية ويقرأون كتبهم المقدسة بلغة الجعز وقد اندمجوا في العناصر الحامية والإفريقية وتأثروا بها. ولليهود بحكم خبثهم المعروف أثر كبير على أفكار الأحباش السياسية والدينية فقد استطاعت قصة سليمان وملكة سبأ التي عرفناها أن تنفذ إلى الحبشة وأن يلعب فيها خيال الأحباش واليهود فنسجوا حولها إفكارات وأحداثاً غريبة ويعلق الأحباش أهمية كبرى على هذه القصة ويجعلون منها أساساً هاماً يرتكز عليه تاريخ دولتهم بصفة عامة وتاريخ الأسرة الحاكمة بصفة خاصة، وقد حاولوا الربط بين قصة ملكة سبأ بالحشبة والإيعاز بأن سبأ هي الحبشة ورغم هذا لم يتيسر لهم إلى الآن البرهان التاريخي القاطع ليربطوا بين ما يتوارد عن علاقة هذه القصة بتاريخ الحبشة وملوكها ورغم ذلك فإنهم لا يزالون يتمسكون بأفكارهم العجيبة[33].

---

(32) عثمان صالح سبي، ص 69.

(33) Wekermarck (E) **Etudes sur les migrations des tribus en A'Frique Avaat L'Islamisme,** Trad FR, Paris, 1953, P 90.

ونص أسطورتهم التي يتمسكون بها يدور حول ملكة لهم تدعى ماكيدة (ماقده) وكانت ملكة على سبأ يقولون بأنها كانت بأرض الحبشة في المكان المعروف الآن بأريتريا ويعتبرها الأحباش بأنها هي الملكة التي أطلق عليها العرب إسم بلقيس!!. ثم تمضي القصة في مثل ما تمضي أي باقي المصادر الأسطورية حتى تنتهي بزيارتها لسليمان حوالي عام 1000 ق. م وتبين الأسطورة كيف خدعها سليمان حتى ينال منها وقد أدى ذلك إلى زواجهما وإلى ولادتها منه ولداً اسمه فليكك وعندما بلغ أشدّه أرسلته أمه إلى والده الذي فرح به وجعل منه ملكاً على الحبشة، وقد عاد إلى الحبشة ومعه نفر من شباب بني إسرائيل بعد أن سرق من والده تابوت العهد وحمله معه وحفظه في عاصمته أكسوم التي أطلق عليها اسم «أرض صهيون الجديدة»[34].

ولا شك أن هذه الأسطورة لم يكن لها صلة بأكسوم التي لم تكن قد أسست بعد، وعلى كل حال فنحن نعرف أنه لا يوجد شاهد تاريخي يدلنا على أن دولة أكسوم كانت قد اعتنقت قبل المسيحية ديناً آخر غير الوثنية وبالذات المتأثرة بالعبادات اليمنية، وقد كتبت هذه الأسطورة في القرن الثالث عشر وغلبت على كاتبها رغبته في تأييد دعوة الأسرة السليمانية الحديثة العهد بالملك بالحبشة والتمكين لها عن طريق الأسطورة فيما تطمع فيه من قوة روحية، وكان القصد منها اختفاء القدسية على الأسرة الحاكمة الجديدة حتى لا يحاول أحد الانتقاص منها أو الانقضاض عليها واعتمد واضع هذه الأسطورة على شدّة تعلّق أفراد الشعب الحبشي بأمثال هذه القصص التي ترضي غروره القومي.

ومنذ أن أعلن عنها وتمكن الملك «يكونوا أملاك» من العرش صار ملوك الحبشة يطلقون على أنفسهم لقب ملوك الحبشة وذلك ليزيد من اليقين بأن سجل الملوك المسمّى «كبرابخست» والذي أورد هذه القصة قد وضع في القرن الثالث عشر ليخدم الهدف الذي سبق ذكره.

---

(34) نفس المصدر، ص 103.

فإن الأرجح أن القصة موضوعة حتى تجعل للأسرة الحاكمة حقاً إلهياً لا منازع فيه في ملك الحبشة.

وخلال هذه القرون الثمانية التي عاشتها الدولة كانت العلاقات الودية تارة والعدوانية تارة أخرى قائمة بينها وبين اليمن وقد مرت هذه العلاقات بمراحل منها:

1 ـ إرسال حملة أكسومية إلى اليمن في القرن الأول ق. م.

2 ـ تحالف الحبشة مع زعيم همدان في حروبه مع ملوك سبأ وقد انتصر الهمدانيون أول الأمر ولكنهم انهزموا أخيراً وظلّ الأحباش مخلصين لحلفائهم حتى نهاية الحرب حيث استطاع ملك سبأ الشرعي أن ينتصر وقد اتخذ الجيش الحبشي قاعدة له في مدينة صحرت بساحل تهامة.

3 ـ في نهاية القرن الثالث الميلادي احتل ملك أكسوم آل أسفح (290 ـ 277) باليمن وظلّ الحبش سادة على البلاد حتى القرن الرابع وقد تلقّب ملوك الحبشة بلقب ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين وكاسو، وكان الملك عيزانا (342 ـ 317 م) هو أول ملك تلقّب بهذا اللقب وفي عهده اضطربت أحوال الحبشة وتألبت عليها القبائل الجنوبية وطمع عرب الشمال فيهم وقد استغلوا ضعفهم للاستيلاء من جديد على اليمن وقد تمكّن الملك الكندي الشمالي من التغلغل حتى وصل إلى حدود اليمن أي إلى نجران، وقد استطاع الملك الحميري شمريرعش أن يطرد الأحباش من البلاد وأرسل حملة حررت قاعدة صحرت من حاميتها الحبشية وكان من نتيجة ذلك تقهقر أهل صحرت وطردوا إلى الشمال، كما يبدو كان نشاط شمريرعش سبباً في تدخل الأكسوميين مرة أخرى في شؤون بلاد العرب، وقد ظلّ الحبش سادة على بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث حتى القرن الرابع[35] ومما يؤكد هذا الرأي سكوت النقوش

(35) Weter Marck, **Ethnogrphied de L'Afrique Septentrionale,** T, Paris, 1962, P 78.

إن هذا الأمر دفع بكل شخص متمكن من الاستيلاء على العرش إلى المسارعة لربط نسبه بتلك الأسرة حتى ولو من سبيل الادعاء والاختراع.

ونحن لا نشك في أن مملكة سبأ كانت باليمن وأن لها ملكة تدعى بلقيس ولكن ليس هناك ما يمنع من أن تكون تلك الملكة الشهيرة قد ضمّت بلاد الحبشة تحت سلطانها في ذلك العهد. وهذا أقرب إلى الفهم وأكثر اتفاقاً مع تاريخ هذه الفترة، وليس هناك ما يمنع من احتمال صحة ما جاء عن منليك وعندئذ لا نستبعد أن يقوم سليمان بتعيينه ملكاً على ذلك الجزء البعيد، أي أنه لا خلاف في أن سبأ قد تكون قد تملكّت الحبشة وإن أنباء لكلا من ملكة سبأ اليمنية وسليمان يكون قد حكم بالحبشة ولكن الخلاف هو أن بلقيس هذه ومملكة أكسوم لم تكن قد وجدتا قبل الميلاد في القرن العاشر. ولكن هذه القصة تؤكد بأن ملوك الحبشة كلهم من أصل سامي عربي وهذا ما يقره واقع الهجرات اليمنية إلى الحبشة منذ القرن العاشر ق. م وقد تكون العزّة القومية قد دفعت ملوك هذه الفترة للاستفادة من أساطير قديمة تبيّن رفعة أصولهم وأصول أسلافهم السبأية ومن أساطير قديمة ومن بعض الوقائع التاريخية والأساطير التي تحيط بسبأ ابتدعوا تلك الأسطورة بشكلها الذي رأيناه.

ولو أن هؤلاء الملوك في تلك الأزمان السحيقة كانوا على ثقة حقاً بأنهم أحفاد سليمان لرسخ إيمانهم بالدين اليهودي وتعصبوا له ولما كان من السهل اعتناقهم المسيحية بتلك الاستجابة السريعة التي حدثت عندهم في القرن الرابع الميلادي، كما وأن اليهود بالحبشة أي (الفلاشة) قد أطلق عليهم اسمهم هذا الذي يعني بالحبشة (المهاجرون أو الأعراب) ولعل في شيوع هذه التسمية على اليهود ما يؤيد استنتاجنا بعدم وجود أية علاقة قوية مع أهالي البلاد ولو كانت الأسرة المالكة تنحدر حقاً من نسل اليهود لما استمر اليهود يحملون ذلك الاسم أي الفلاشة ـ الأعراب، ولما بقي اليهود يعيشون في الحبشة في شبه عزلة عن باقي أجناسهم وليس هناك أي مرجع أو برهان يؤيد شخصية منليك وعلى ذلك

اليمنية عن ذكر هذه الفترة أو أي خبر عن حكام اليمن وقد كان أول ذكر لهم بعد ذلك في عام (378 م) حين حكم كرب يهنهم في بلاد اليمن.

أما عن دخول الديانة المسيحية إلى الحبشة فقد دخلت هذه الديانة إلى أرتيريا وأكسوم في وقت مبكر على أحد رجال الدين الاسكندريين ويدعى فرمنتوس (Firmentius) حيث يروى أن مجموعة من تجار صور قاموا برحلة تجارية إلى الهند وفي صحبتهم فرمنتوس وشاب آخر قريب له يدعى أوديسيوس (Edisius). وفي أثناء الرحلة وقفت السفينة في ميناء عدوليس في الشاطىء الأيتري واعتدى أهل المدينة على هذه السفينة وأغرقوا من فيها ولم ينج إلا هذان الشابان فباعهما الأهالي إلى ملك أكسوم الذي سرّ بهما ومنحهما ثقته وجعل أكبرهما أميناً على حساباته وجعل الثاني ساقيه الخاص وعندما واتته المنية بقيا إلى جانب الملكة لرعاية أمور الدولة إلى أن بلغ الملك الصغير عيزانا أشدّه واستمرا في خدمته، وعلى هذا الأساس نجح فرمنتوس في التأثير على الملك عيزانا حتى جعله يعتنق الدين المسيحي، وقد عاد أوديوسيوس إلى صور وأصبح راعياً لكنيستها، أما فرمنتوس فقد ذهب إلى الإسكندرية حيث اجتمع بالبطريك وحثّه على إرسال مطران إلى أكسوم لرعاية شؤون المسيحية والمسيحيين في تلك البلاد فوجد فيه البطريرك خير من يقوم بهذه المهمة فعينه مطراناً على أكسوم. وأثناء حياته وحياة الملك عزانا أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة تمثلها الكنيسة التي تتبع الكنيسة المصرية على المذهب الأرثوذكسي (القبطي اليعقوبي) وظلّ بطاركة الإسكندرية يرسمون المطارنة المصريين الذين يرئسون الكنيسة في أكسوم ومن بعدها الحبشة واحداً بعد الآخر، ولم يكن اعتناق الدين المسيحي في عهد الملك عيزانا إلاّ بين فئة قليلة من الناس إذ أن القبائل الوثنية ظلّت مستعصية تتسرب إليها المسيحية ببطء شديد خلال قرنين من الزمان[36]. ويروى أنه بعد فرمنتوس لسنوات ـ أي ما بين

(36) عثمان صالح سبي، ص 34.

341 ـ 346 ـ ذهبت إلى اليمن بعثة أجنبية وكانت اليمن في ذلك الوقت قد استردّت استقلابها وحريتها وكانت هذه البعثة قد أوفدها قسطنطين الكبير برئاسة يثوفيلوس الهندي مصحوباً بهدايا إلى حمير للتبشير بالمسيحية على مذهب أريوس وكان الخلاف على أشدّه بين أريوس ممثل مذهب كانت تعدّه الكنيسة المصرية إلحاداً وبين بطريك الإسكندرية وكان فرمنتوس كما رأينا موفداً من قبل هذا البطريك إلى الحبشة من قبل أن يصل إليها ثيوفيلوس بسنوات ولهذا كانت المنافسة شديدة بين الطرفين أي بين فرمنتوس في الحبشة ويتوفليوس في اليمن. كذلك سعى ثيوفليوس إلى ملك الحبشة حيث حمل رسالة من الإمبراطور الروماني قسطنطين إلى ملك الحبشة عيزانا وحاول إقناع فرمنتوس بالتخلي عن بطريك الإسكندرية واعتناق مذهب أيوس ولكنه لم يفلح[37]. وكان طبيعياً ألا بحصل ثيوفيلوس على فوز ديني أو سياسي في اليمن بسبب تدخل الفرس في شئون اليمن وتحريضها على مقاومة نفوذ الرومان بها وقد كانت وقتذاك قائمة بينهما وكان الفرس قد ملكوا ناصية الطرق التجارية مع الهند.

وخلال القرنين الرابع والخامس الميلادي أخذت المسيحية في الانتشار ولم يسمح ذلك للحبشة أثناءها بأي نشاط إلى أن جاء عام 534 حيث اتصلت بهم بيزنطة تطلب منهم حماية المسيحيين الذين كانوا يعيشون في جنوب الجزيرة العربية[38].

أما عن الغزو الحبشي لليمن وجنوب الجزيرة العربية فيبدو أن الدوافع السياسية والاقتصادية كانت من أهم العوامل اليت دفعت إلى هذا الغزو، فقد كان العالم القديم في القرن الخامس وبداية القرن السادس منقسماً إلى معسكرين هي الدولة الفارسية الطموحة ثم الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطه) التي حاولت

---

(37) محمود حسني، دراسات في التاريخ الأريتري، بحث غير منشور، جامعة قاريونس، بنغازي، 1978، ص 19.

(38) Luas (M) **Description de L'Afrique**, Paris 1967, P 119.

بكل السبل الحفاظ على مقاطعاتها الشرقية بعيداً عن الغزو الفارسي وكذلك لتشديد قبضتها على التجارة الشرقية. غير أن الصراع بين الطرفين ما لبث أن تخفّى وراء رداء العقيدة وأصبح الدين هو الواجهة الظاهرية في مناطق النفوذ المتصارع عليها أي في القرن الإفريقي وجنوب الجزيرة العربية فلقد اتخذت كلتا الدولتين من الدين وسيلة لمحاربة بعضها وقامتا بتشجيع المذاهب المخالفة بين رعايا الدولة الأخرى، لهذا تعرض اليمن لبعثات تبشيرية عديدة كل منها يحاول فرض المذهب الذي يربط مسيحي البلاد به فانتشرت المسيحية بمذاهبها في اليمن وذلك في الأقاليم الشمالية بنجران ثم ساحل المحيط العربي، وفي نفس الوقت أقامت جالية من اليهود باليمن إذ لجأ إلى بلاد العرب سلالة يهودية هرباً من اضطهاد الرومان وقد أسس هؤلاء جماعات قوية في الأماكن التي لجأوا إليها، وقد أولع اليهود في التاريخ بحب الانتقام وإشعال الثورات على حدود الامبراطورية الرومانية كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً فحرّضوا الباريثيين والفرس والعرب وقبائل الشرق وقد استقرّت بها في اليمن طائفة منهم ووجدوا أنفسهم في حماية الفرس أصحاب الدعامة القوية بها وهنا بدأ اليهود يواجهون المسيحية باليمن وبدأت المسيحية تواجه مصاعب عديدة، وكان الدافع لاضطهاد النصارى بسبب انتمائهم برابطة روحية مع دولة أجنبية هي بيزنطه متزعمة مسيحيي الشرق وكذلك بسبب دسّ اليهود ضدهم لدى ملوك اليمن لا سيما وأن أهل نجران الذين تعرضوا للاضطهاد وكانوا من أصحاب نفوذ مالي وسياسي كبيرين وهذا ما زاد من حقد اليهود عليهم[39].

وقد عكست الأحداث الدولية صداها في اليمن حيث انقسم إلى معسكرين المعسكر الفارسي ويؤيده ويسانده اليهود وغيرهم ممن يرون مصالحهم مع الفرس ثم المعسكر البيزنطي ويسانده النصارى وغيرهم من التجار الذين ارتبطوا مع بيزنطه ومما لا شك فيه فإن الحروب الفارسية البيزنطية الطويلة قد لعبت

(39) Martin (L) **Les Juifs en Afrique,** L., SR. L. Paris, 1962, P 119.

دوراً هاماً في توسيع شقة النزاع بين المعسكرين وأنصارهما.

لقد كان لاضطهاد النصارى بنجران باليمن صداه لدى ملوك أكسوم كما وإن تحول التجارة الشرقية خلال الحروب الدائرة وقتذاك بين الفرس وبيزنطة نحو الأسواق الخارجية كان له دوره وأثره على الحياة الاقتصادية بالبحر الأحمر ومنطقة القرن الإفريقي، لذلك سارع ملك أكسوم أيلا أصبحه بالاستجابة لدعوة الإمبراطور البيزنطي جستينان لتخليص نصارى اليمن وهم من أصحاب بيزنطة عقائدياً من الاضطهاد(40).

وفي عام 523 م أنزل ملك الحبشة قواته في البحر استعداداً لقتال حمير وساعده الروم بأسطول بحري وعلى شواطىء ميناء جيزا رابط عشرون ألف جندي من رجال أصبحه وقد انتقل الجيش إلى الساحل اليمني واحتلّت قوة من عشر الآف رجل إقليم المخا اليمني ثم تقدموا سريعاً نحو نجران وانتهت المعركة بهزيمة الملك اليمني ذي نواس وسقطت ظفار عاصمة ملكه وقتله الأحباش.

ورغم أن الأحباش قد أفلحوا في قمع الثورة الدينية التي كانت متأججة بين اليهود والنصارى باليمن وتدعيم المسيحية والقضاء على التسلّط اليهودي الفارسي، إلا أن ثورات من نوع آخر قد بدأت تندلع بعد فراغ الأحباش من هذه الحرب، فقد أتاح خضوع اليمن الفرصة للنفوذ البيزنطي أن يقوّى ويشتد في البلاد وعادت التجارة مع بيزنطة مما أدّى إلى تنشيطها مع المدن الواقعة على طريق التجارة مع الشام، وهذا ما لم يرضه الفرس فقاموا ببثّ روح الثورة في نفوس القبائل اليمنية وإثارتهم على الأحباش، ولم يلبث أن دبّ الخلاف بين الأحباش باليمن وبين الحبشة وأرادت الأولى الانفراد بالحكم والاستقلال عن ملك الحبشة وكان على رأس الثائرين أبرهة، واضطر ملك الحبشة للخضوع

---

(40) Rymond F, **Commerces de Afrique**, 1972, P 119.

أخيراً لرغبة هؤلاء على أن تظلّ اليمن ولاية تابعة له من الناحية النظرية، كما ثار الزعيم اليمني المسيفع أشوع على الأحباش وقد قام أبرهة بمطاردته هو والأمراء الثائرين معه وربما وجد أبرهة الفرصة سانحة له فبعد أن قمع الثورة وهزم المسيفع أعلن نفسه حاكماً على حمير وربما كان ذلك في عام 520 م[41].

وقد نقش أبرهة عن ترميم سدّ مآرب ذكر عن نفسه بأنه مفوض ملك الجعز (الحبشة) وملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في الهضاب، وقد ورد في النقش أنه استقبل بعد أن رمم السد في (542 م) وفود المهنئين الذين قدموا إليه من بلاد الحبشة وبيزنطة وفارس وكذلك وفود ملك الحيرة والحارث بن جبلة وأبي كرب بن جبلة وهذا ما يؤيد استقلاليته بحكم اليمن[42].

وقد عمل أبرهة منذ اللحظة الأولى على توطيد حكمه بالبلاد فأرسل نائباً عنه في كنده وهو يزيد بن كبشه ولكن هذا ثار عليه فيما بعد عندما أخضع تلك الأقاليم التي عيّن عليها لذلك أرسل إليه أبرهة قوة بقيادة ذي دنبور ولكن يزيد قتله واكتسح حصن كدر وجمع أبرهة جيوشه الحبشية بالآلف وسار حتى أودية سبأ وهناك سلّم له يزيد بن كبشة طائعاً مستسلماً.

وقد سعى الروم إلى إيجاد وحدة بين القبائل العربية لتقف جبهة واحدة في وجه الفرس ولتقفل طرق التجارة المؤدية إلى فارس، فتضافرت القبائل المعادية مع الأحباش وجردوا حملة كبيرة على القبائل الكندية اليت كانت تحتكر التجارة في وسط الجزيرة العربية[43].

وقد انتهت تلك الحملة التي ذكرها القرآن الكريم سورة الفيل بالفشل، إذ

---

(41) Martin, P 161.

(42) Ganiag, P 119.

(43) Herve, **L'Impire Romanne,** P. 82.

رجع أبرهة من الحجاز وقد سمي ذلك بعام الفيل، وقد انتهى حكم أبرهة في عام (544) وقد تولّى بعده إبنه يكسوم وقد حكم تسعة عشر عاماً ثم خلفه أخوه مسروق وحكم إثني عشر عام وفي عهد الثاني بلغ ضيق حمير بالأحباش مبلغه ووجد الفرس أن الفرصة سانحة لغزو اليمن حيث أغاروا عليها وكان ذلك في نهاية حكم الحبشة لها، ومنذ تلك اللحظة أخذت أكسوم في الضعف وتسبّبت الحروب السالفة الذكر في كساد التجارة بين الجانبين ووقوف تيار المهاجرين الذين كانوا يدفعون بعجلة الحياة في الحبشة إلى النشاط والرواج. وكانت هذه الأحداث بداية العزلة الطويلة التي عاشتها الحبشة مدة طويلة استمرت من (570 ـ 630 م) وأصبح تاريخها في تلك الفترة مثار خلاف بين الباحثين، فالعرب يتحدثون عن ملكين من ملوك الحبشة أحدهما كان سابقاً لعصر الرسول ﷺ ويسمونه أبحر، والآخر عاصره وهاداه وراسله ويسمونه أصحمه ويقولون إن الحبش قتلوا أبحر وولوا أخاه الذي هو عم أصحمه وأبعدوا أصحمه عن الحبشة حتى يأمنوا جانبه فأتوا به إلى بلاد العرب وظلّ بها حتى مات عمه ملك الحبشة فأحضروه وملكوه عليهم[44].

أما الباحثون المحدثون فيرجحون أن ملك الحبشة المعاصر للنبي ﷺ هو أرماح الثاني أو أرمحة، بينما يرجّح الأحباش بأن أصمعه هذا كان حاكماً في إقليم يقع في جوار يتحكّى دانسا الحالية[45].

وهكذا تعرفنا في هذه العجالة على العلاقات والصلات التي كانت بين شاطىء البحر الأحمر أي العرب والأحباش من الغرب وسكان الجزيرة العربية من الشرق وعلى وجه الخصوص بلاد اليمن والجنوب العربي التي مرت في تلك الأيام بأوج مجدها وحضارتها القديمة، فكانت مركزاً للنشاط التجاري والإشعاع الحضاري الذي تكفلت به جماعات المهاجرين ونشرته في بلاد الحبشة

---

(44) عرب فقيه الجيزاني، فتوح الحبشة ود. ن 1960، ص 116.

(45) Jaque (M) P. 119.

والصومال وتطوير الحياة بتلك الأنحاء. كما كان الحال بالنسبة للجماعات التي هاجرت من شمال إفريقيا إلى جنوب الصحراء وشكل كل هؤلاء النواة الأولى للحضاة الإفريقية وذلك بتأسيسهم للإمارات والممالك التي نقلوا إليها حضارتهم الزاهرة وقد شهد بذلك الرحالة الأوربيين الذين أخذوا في ارتياد القارة مع نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس عشر. كذلك الكتّاب والمؤرخين المهتمين بالدراسات الإفريقية إذ يذكر كوبلاند (Coupland) إن الرحالة العرب والأجانب على حدّ سواء والذين زروا الإمارات العربية في شرق إفريقيا تحدثوا عمّا رأوه من مظاهر الحضارة والرقي، كما شاهد فاسكو داجاما (Vasco Dagama) الذي اشتهر برحلته حول إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر هذه المظاهر الحضارية المتمثلة في الملبس والبناء وأشاد بهما. كما أشاد بذلك دوار بربوسا (Duart Barbousa) الذي زار كلوه وممبسا ومالندي وبمبا وزنجباز وشاهد نفس المظاهر الحضرية[46] وتحدّث البرتغاليون الذين استقروا بعد ذلك في هذه الجهات عن مظاهر هذه الحضارة العربية ويقول كوبلاند في هذا الصدد: «إننا يجب ألاّ نندهش لما يذكره هؤلاء الرحالة عن مظاهر الحضارة التي نقلها العرب لشرق إفريقيا فإن العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة، فلا شك في أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التي في أكسفورد أو في أية مدينة مسيحية أخرى»[47]. ويقول بوفيل (Bovil) إنه قبل قدوم العرب لم يكن يعرف الكثير عن إفريقيا جنوبي بلاد المغرب، فنحن ندين بمعلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة إلى فئة قليلة من المؤلفين والرحالة من أهمهم المسعودي، وابن حوقل، والبكري، والإدريسي، وياقوت والعمري، وابن بطوطة، وابن خلدون[48].

(46) شوقي الجمل، كشف إفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية 1971، ص 43.

(47) نفس المصدر، ص 44.

(48) نفس المصدر، ص 47.

الفصـــل الثالـــث

العوامــل التــي ساعـدت
علــى حركــة انتشــار الإســـلام
فــي إفريقيــا

العوامل التي ساعدت على حركة انتشار الإسلام في إفريقيا

يعتبر موضوع انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من أهم الموضوعات التي شهدها هذا الجزء حيث تترتب عليه نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية غيرت تغييراً شاملاً البنية والسمّات العامة التي كانت عليها القارة من قبل، كما أن حركة انتشار الإسلام وما أحدثه من تغيرات جوهرية كانت مثار اهتمام وجدال وحوار بين الكتّاب والمؤرخين والمهتمين بالدراسات الإفريقية، وقد تعددت هذه الآراء واختلفت، فمنها تلك التي تحاملت على هذه الحركة، وغالبية هؤلاء من المستشرقين حيث اتفقت معظم آرائهم على أن عملية نشر الإسلام لا في إفريقيا وحدها بل في معظم أنحاء المعمورة قد تمّ بحدّ السيف والإكراه، ومنها ما يقع على النقيض من ذلك إذ أوضحت آراء الفئة الثانية من المهتمين بهذا الجانب مدى إعجابها بهذه الحركة وبسهولة انتشارها بين الإفريقيين. وهناك فريق ثالث وهو من المؤخرين المعاصرين الأجانب الذين حاولوا أن يضفوا بعض الموضوعية على آراء من سبقوهم فأنصفوا الإسلام في بعض المواضيع ولكنهم شككوا في بعض القضايا الأخرى التي تتعلق بهذا الدين وانتشار[1]. وحتى نتمكن من استجلاء هذا الأمر ومناقشة هذه الآراء والوقوف عليها وحتى نتمكن من إعطاء هذا الموضوع حقّه من الدراسة والبحث

(1) Mage, L'Historie de L'Islame en Afrique Paris, Payot 1970, P. 101.

والتمحيص لا بد من تسليط الضوء على كافة جوانبه خاصة دراسة العوامل التي اعتمد عليها الإسلام في انتشاره في إفريقيا.

وتسهيلاً للدراسة والبحث في هذا الموضوع فإننا أثرنا تقسيمه إلى ثلاثة عوامل رئيسية وهي في واقع الأمر عناصر متداخلة لا غنى لإحداها عن الآخر وهذه العناصر هي:

أولاً: العامل الذاتي.

ثانياً: العوامل الخارجية.

ثالثاً: العوامل المتعلقة بالقارة ذاتها.

أولاً: العوامل الذاتية

العوامل الذاتية هي تلك التي ترتبط بالإسلام كدين وعقيدة ومنهج وسلوك، وهي بطبيعتها تمثل الجانب الأساسي والمهم الذي تتمحور حوله بقية أو غالبية العوامل الأخرى، فالدين الإسلامي في جوهره يحمل الكثير من الخصائص والسمّات المتميزة التي تتعلق بحياة الإنسان أياً كان وتخاطب مباشرة عقله ووجدانه، كما أنها تتعلق بسلوكه وحياته اليومية، لذا فإن كل ما جاء به الإسلام من خلال النصوص القرآنية الواضحة أو من خلال السنّة النبوية أو سلوكيات الرسول ﷺ والصحابة والمسلمون الأوائل كل ذلك كان له تأثيره المباشر في عملية انتشار الإسلام سواء في شبه الجزيرة العربية أو المناطق الإسلامية الأخرى من آسيا وأوربا وإفريقيا مجال دراستنا.

لقد اشتمل الإسلام على مجموعة من المبادىء التي تتعلق بالعقيدة والإيمان والسلوك، فبالنسبة للعقيدة والإيمان فقد بني الإسلام على الوحدانية وأن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، وهذا هو جوهر الإسلام الذي لا يعطي لأياً كان حقّ مشاركة الله في هذه الوحدانية. كما أقرّ الإسلام المبدأ المميز والواضح وهو (لا إكراه في الدين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وهذا

المبدأ لو توقفنا عنده قليلاً وفكرنا جيداً في مضمونه ودلالاته لاكتشفنا بأنه المبدأ الأساسي والهام بين كل المبادىء الذاتية الأخرى التي تميز بها هذا الدين وكان له تأثيره الواضح في عملية انتشاره ورسوخه فهو يمثل روح الإسلام الحقيقية التي بنى عليها منهجه حيث يجسد الحرية بكل معانيها. فالإسلام أقرّ حرية الفرد في تفكيره ومعتقده لأن الله ميّز هذا الإنسان بنعمة وخاصية عن سائر الكائنات وهي العقل الذي به يستطيع أن يميز بين الخير والشر والحق والباطل وبين الغث والسمين فجاء الانخراط في الإسلام سهلاً ودون إكراه كما يدعي أعداءه ومنذ انتشار الإسلام المبكر تجسّد هذا المبدأ وكانت أوامر وتعاليم الله إلى نبيه: ﴿يا محمد أنك لن تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ناهيك عن العديد من الآيات والأحاديث التي تؤكد على هذا المبدأ الصريح، لذا فإن الأفارقة عندما تعاملوا مع الإسلام أدركوا هذا الجانب جيداً واقتنعوا بأنه دين سلم وقناعة وحرية، وليس دين تعسف وإكراه كما أن الإسلام أقرّ مجموعة من المبادىء والقيم تتعلق بالإنسان ذاته بشخصه وسلوكه حيث أمره بالصدق وتجنب الكذب، وأن يكون أميناً وفياً مع نفسه وأهله وأقاربه ومجتمعه ونهاه عن الغش والسرقة والنفاق وخيانة الأمانة، كما أن تحريم الإسلام للربا كان من العوامل الهامة التي ساعدت على انتشاره بين الأفارقة وغيرهم، كما أن هناك العديد من القيم والمبادىء الأخرى التي وردت في العديد من السور القرآنية والأحاديث النبوية وهي في مجملها تتعلق بالإنسان ودوره في مجتمعه حيث أنه يمثل النواة الأولى في تكوين هذا المجتمع فإذا ما شبّ هذا الإنسان وترعرع على هذه المبادىء النبيلة التقيّة فإن ذلك بطبيعة الحال سيؤدي حتماً إلى تكوين مجتمع إنساني، كما أن الإسلام أقرّ العديد من المبادىء التي تتعلق بحياة الفرد اليومية من عمل ومأكل وملبس وغيرها من السلوكيات البشرية فحثّ الفرد على العمل والكدّ والعطاء، وقال: ﴿اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنين﴾ وقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

كما حثّه على نظافة البدن والملبس، كما أقرّ لهؤلاء الأفراد العديد من

القيم والمبادىء التي تتعلق بعلاقتهم وهذا ركن أساسي وهام لأنه الركيزة الأساسية في إقامة العلائق الاجتماعية في أي مجتمع.

كما أقرّ الإسلام مبدأ العدالة بين الأفراد في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية أو الاقتصادية أياً كان شكلها أو حجمها فالناس في الإسلام سواسية ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ ويقول أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خير منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب﴾ ويقول أيضاً: ﴿وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل﴾ كما ترتبط مقاومة التفرقة العنصرية في الإسلام بقصة الخلق كما جاءت في القرآن الكريم وكما بينتها الأحاديث النبوية.

يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا بكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منها رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً﴾ وأكرم ما قال المصطفى ﷺ وما تتطلع إليه الأفكار والقلوب: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي ولا لأحمر فضل على أسود إلاّ بالتقوى».

ولا يعتبر الإسلام الفرد مسؤولاً عن عمله ولا يبنى أية مسئولية على عوامل أخرى خارجة عن قدرته كاللون مثلاً، ولم يرجح القرآن لون على لون، والألوان في الكتاب المبين مظهر من مظاهر قدرة المولى عز وجل، كما يعتبر الإسلام الإنسانية أسرة كبيرة خلقها الله من نفس واحدة وإن اختلاف الألسنة والألوان فيها مظهر قدرة الله وحكمته، وما جاء به القرآن من تفاضل بين الناس كان بعد توفير فرص متكافئة ولا يرضى الإسلام بتحول مواهب الأفراد أو مواقعهم الاجتماعية إلى مراكز قوة يجتمعون فيه على أساس اللون أو أي مظهر

فيضطهدون بقية فئات المجتمع وينقلون هذا السلوك إلى الأجيال التالية فروقاً وأحقاداً[2].

إن الله جلّت قدرته يقول عن خلق الإنسان في كتابه العزيز ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والبصر والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ [السجدة: 6 ـ 9].

وعلينا يهدي القرآن والسنّة المطهرة وأن نحسن ونحترم كرامة الأصل، كرامة المادة التي خلق الله منها الإنسان فلقد كان الاختبار لإبليس ﴿أأسجد لمن خلق من طيناً﴾ [الإسراء: 61] وكان في الشعور باحتقار الأصل الترابي لمحة من منطق إبليس تتسرب إلى الذهن واعياً أو مقلداً[3].

إن الآخاء الذي أشار إليه القرآن وأكده الرسول في مواضيع كثيرة يفرض على المسلم التزامات متعددة فهو مبدأ يفرض احترام آدمية الإنسان وتكريمه وأن تكون العلاقة بين البشر قائمة على الاحترام المتبادل الذي يقوم على التعاون ومراعاة المصالح المشتركة ويوجب الاعتراق بحق جميع الناس في الحياة الحرّة الكريمة[4].

وأمر الله المؤمنين بأن ينتقلوا بالترابط فيما بينهم ويرتفعوا به إلى دائرة الهداية بكتاب الله وهي أسمى من دائرة الترابط التي كانت سائدة قبل الإسلام ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: 103] وبالانتقال إلى هذه

(2) عبد العزيز كامل «الرسول والتفرقة العنصرية» المؤرخ العربي، العدد 16، بغداد 1981، ص 116.

(3) نفس المصدر، ص 131.

(4) محمد فتح الله الزيادي ـ **إنتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه** ـ دمشق، دار قتيبة 1990، ص 91.

الدائرة الأسمى والأعمّ في الترابط يجنب القرآن المؤمنين الفرقة على أساس الاختلاف في القبلية أو الشعب أو اللون ويذكرهم بأحداث الماضي في العلاقات البشرية التي كانت تنشأ على أساس مادي كما يذكرهم بآثارها السلبية فيقول: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتهم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ [آل عمران: 103][5]. إن عمر رضي الله عنه كان يقول عن بلال بن رباح الحبشي، أبو بكر سيدنا وأعتقه سيدنا ـ ويعني بلال وهذا التكريم من عمر لبلال الأسود الحبشي يدلّ دلالة واضحة على أن روح التفرقة العنصرية لم تكن قائمة في التطبيق العلمي في المبادىء الإسلامية[6].

لقد وجه الإسلام منذ انتشاره المبكر دعوته القوية إلى تفويض الأوضاع والأفكار الفاسدة مبتدئاً بالوثنية وما يتبعها من ضلالات الشرك وحارب العصبية والقبلية التي كانت تحول دائماً دون توحد الناس واجتماع شملهم وكانت تؤدي إلى إثارة الضغائن واستمرار الأحقاد والحروب، ولقد وجدت العصبية القبلية نفسها بظهور الإسلام أمام خصم قوي هو هذه العقيدة الجديدة التي تدعو العرب كافة إلى التآخي والتآزر ونبذ العداوة بينهم والتخلي عن الروح القبلية، قال تعالى ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً﴾ [الفتح: 26][7].

وهناك قضية أخرى على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لإفريقيا جنوب

---

(5) محمد البهي «الإسلام والتفرقة العنصرية» المؤرخ العربي ـ العدد 16 بغداد 1981 ص 110.

(6) نفس المصدر.

(7) صلاح الدين الأيوبي ـ الإسلام والتمييز العنصري، ط 2، سوريا، دار الأندلس، 1981، ص 116.

الصحراء عانت ولا تزال من تأثيراتها عليها وهي تجارة الرقيق وقد عالج الإسلام هذه الظاهرة وحدّ من انتشارها فليس هناك في القرآن ولا السنّة ولا سلوكيات الصحابة من يأمر بالاسترقاق والعكس صحيح، فهناك مئات النصوص تدعو إلى العتق، ولما كانت مسألة الرقّ شديدة التعقيد في هذه الفترة فقد تدرّج الإسلام في حلها كما تدرّج في تحريم الخمر فأبطل الإسلام ما كان متعارفاً عليه من أسباب تبيح استرقاق الإنسان وسلب حريته ونستطيع أن ندرك كيف أن الإسلام لم يفرّق بين العبيد وغيرهم بل رفع شأنهم واعتمد عليهم من أجل تحريرهم لقد كان إحياء لهم وعتق لرقابهم من ظلم الاستعباد فكان أغلبهم من الرعيل الأول ممن آمن بالرسول ﷺ فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلاّ خمسة عبد وامرأتان وأبو بكر فهم أول من آمن بالرسول ﷺ»(8).

ومن العوامل الذاتية الهامة التي تميز بها الإسلام معالجته للجوانب الاقتصادية التي تتعلق بحياة الفرد والجماعة حيث اعتادت المجتمعات القديمة ومنها بطبيعة الحال المجتمعات الإفريقية على حياة تخالف في جوهرها وخصائصها تلك التي نادى بها الإسلام الذي أقرّ مبدأ اقتصادي تعاوني هام حيث فرض الله الزكاة وجعلها ركناً أساسياً من أركان هذا الدين ولا يكتمل إيمان وإسلام الفرد القادر إلا بأدائها ويقول أيضاً ﴿وفي أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم﴾ وهذا إقرار بحق الفرد على غيره وحقوق الغير على هذا الفرد وهو مبدأ المشاركة، وكذلك دعى الإسلام من خلال نصوص القرآن الكثيرة والأحاديث النبوية إلى منع التعامل بالربا، بل حرمها تحريماً قاطعاً وأمر بإيفاء الحقوق والديون واستيفاء المكاييل والموازين وعدم الغش في البيع والشراء، كما أن الإسلام بذاتيته يدعو إلى الطهارة والنظافة وحسن المظهر والهندام وتجسّد ذلك من خلال الاغتسال والضوء، فالصلاة مظهراً جوهرياً يتعلق بكيان

---

(8) نفس المصدر، ص 182.

وسلوك الشخص وعلاقته بخالقه فهي تكسر الغرور والكبرياء عند هذا الشخص فالانحناء والسجود لا يجوز إلا لله فقط دون سواه.

وخلاصة القول إن الإسلام اشتمل على العديد من السمّات والخصائص الذاتية التي تتعلق به كدين وهي كما أشرنا المرتكز الأول في حركة انتشاره والمحور الأساسي في إقناع الآخرين وقاتناعهم به كدين سماوي خاتم لكافة الأديان.

ثانياً: العوامل الخارجية

يمكننا تقسيم العوامل الخارجية التي ساعدت على حركة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء إلى جزئين رئيسيين هما:

أ ـ العوامل الخارجية المتعلقة بالعامل الذاتي.

ب ـ العوامل الخارجية الصرفة.

أ ـ العوامل الخارجية المتعلقة بالعامل الذاتي:

يقصد بهذه العوامل الأفراد أو الجماعات أو الهيئات والمؤسسات وغيرها التي قامت بنشر الإسلام والدعوة إليه وتجسيد العوامل الذاتية الآنفة الذكر على الأرض الإفريقية فكانت بمثابة صورة حية مترجمة لهذه العوامل قولاً وفعلاً.

ويأتي على رأس هذه الفئات في بداية انتشار الإسلام في هذه المناطق التجار ثم يليهم الدعاة في الدعوات الدينية والهجرة والرباطات والرحالة والزعامات الدينية والسياسية المحلية.

1 ـ التجـــار:

لقد كان للعرب قبل الإسلام علاقات تجارية مع إفريقيا وكانت بعض القبائل تقوم بهذه التجارة عبر الصحراء منذ أمد بعيد وتطورت هذه التجارة

وأصبحت هناك صلات تجارية كبيرة ومنظمة وفي نشاط متزايد بين أطراف هذه القارة شمالها وجنوبها وشرقها وغربها وعن طريق الهجرة وتجارة القوال. تلك القوافل التي كانت تأتي من الشمال الإفريقي ومصر وشبه الجزيرة العربية وفي مواسم مختلفة ناقلة إلى إفريقيا ما تحتاج إليه من هذه المناطق وتعود محملة بالبضائع الإفريقية الرائجة في أسواق المغرب والمشرق العربيين وقد آلفت إفريقيا جنوب الصحراء هؤلاء التجار في مرحلة ما قبل انتشار الإسلام بها كما آلفتهم وشاهدتهم في صور مغايرة إبان حركة انتشاره فقد كان هؤلاء التجار في المرحلة الأولى يمثلون ويجسدون حياة الجاهلية الأولى بكل أبعادها وأشكالها وقد أثر ذلك إلى حد كبير في طرق تعاملهم مع الأفارقة ذلك التعامل الذي كان قائماً على الكبرياء والغطرسة والتعالي بكل ما يحمل من جوانب سلبية كما أنهم كانوا يتعاملون بالربا وأكل الأموال بالباطل وعدم الاهتمام بمصدرها أياً كان كما كان أغلبهم يعيش حياة الفسق والفجور كما أنهم كانوا يقومون بإجبار الأفارقة على القيام بأعمال السخرة ويعتبرونهم سلعة رائجة قام عليها ركناً هاماً من أركان حياتهم الاقتصادية الذي تمثل في تجارة الرقيق.

وبدخول هذه الفئة إلى الإسلام الذي نجح في قلب نمط وسلوك معتنقيه رأساً على عقب حيث غير من سلوكهم وطباعهم ومعتقداتهم البالية وقواعد حياتهم فأصبحت كلها تسير وفق المبادىء الإسلامية السمحاء ووفق ما تمليه قواعد الدين الإسلامي ونصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية فكان التجار الذين تحدثنا عنهم يمثلون فئة من هؤلاء الأفراد الذين غيّر الإسلام نهائياً من أنماط حياتهم وسلوكهم فعندما استمروا في ارتياد القارة بعد إسلامهم فإنهم أصبحوا يمثلون صورة حية ومترجمة لواقعين متناقضين ولكنهما تجسدا في شخصية واحدة وهذان النموذجان هما فترة ما قبل الإسلام وفترة ما بعد انتشاره. فقد أصبح سكان القارة يشاهدون أولئك التجار وقد تغيرت تماماً طباعهم وسلوكهم فقد شاهدوهم الآن وهم يقومون بآداء الصلاة في أوقات محددة بعد أن يقوموا بالوضوء والطهارة ثم يركعون ويسجدون على الأرض في خشوع تام، فأدركوا

أن هناك بدون شك قوة إلهية عظيمة ورهيبة أقوى من هؤلاء البشر الذين آلفوا منهم حياة الغطرسة والتكبر واللامبالاة وهذا دفعهم إلى التفكير في هذه القوة العظيمة. كما أنهم شاهدوا هذه الفئة وهي تقوم بأعمالٍ خيرة تمثلت في إخراج الصدقات والزكاة وتوزيعها على المحتاجين وهذا أيضاً عاملاً مبهراً للنفوس لم يألفه الأفارقة من قبل، وحلّ هذا محلّ تعاملهم بالربا وأكل الأموال بالباطل وعدم إيفاء الكيل والميزان وكان التاجر يجمع بين بيع سلعته ونشر الدعوة.

وفي شرق إفريقيا كان التجار اليمنيون أو الحضارمة كثيري التردد على هذه المنطقة وكانوا ينتشرون في بلاد الصومال والحبشة يتاجرون ويدعون إلى الدين الحنيف، إلا أن الفضل الأكبر في نشر الإسلام في الحبشة يعود إلى طائفة من التجار المسلمين نشأت في مدينة قومر المصرية تألفت من مهاجرين من أهل التكرور وبعض الهنود والعرب وقد أخذت لنفسها اسم الكارمية أو الكانمية نسبة إلى بلاد كانم حول بحيرة تشاد وإلى الشرق من برنو وكانوا على قدر كبير من الورع والتقوى جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجار، ومما ساعد على نجاح هؤلاء أن الحبشة في القرن السابع عشر قد انقسمت إلى إمارات تكاد تكون مستقلة وسادت بينها الحروب، وكانت الطبقات الفقيرة من المسيحيين المثقلة بالضرائب أكثر الناس تحولاً إلى الإسلام[9]، وقد أسلم على أيدي الكارمية كثير من قبائل الجلا والصومال[10] ودخل الإسلام الصومال وكينيا وتنجانيقا بفضل جهود ونشاط التجار العمانيين وعن طريق التجار العرب دخل الإسلام أوغندا في النصف الأول من القرن التاسع عشر[11] وكان للتجار

(9) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1961، ص 45.

(10) عبد الرحمن عابدين، الحبشة والعرب، القاهرة، دار الفكر العربي، د. ت، ص 150.

(11) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، جـ 6، ط 14، القاهرة مكتبة 1983، ص 207.

فضل كبير في نشر الإسلام في بلاد الهوسا حيث تمتد رحلاتهم من ساحل غانا إلى القاهرة وبلغ من أثرهم أن صارت لغتهم اللغة التجارية لأهل السودان العربي وبانتشار لغة الهوسا اتسعت دائرة الدعوة إلى الإسلام[12].

وأصبح التجار المسلمون عبر المراحل المتعددة يمثلون حلقة الوصل بين إفريقيا والدول الإسلامية المجاورة وساعد على ازدياد حركة التجارة وتعميق هذه الصلات الأحداث السياسية التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في أعقاب الصراع أو ما يعرف بالفتنة الكبرى حيث زاد عدد المهاجرين المسلمين الفارين من نقمة النظام الأموي والصراع على السلطة إلى شرق إفريقيا[13].

وفي غرب إفريقيا كانت حركة التجارة نشطة وذات بدايات مبكرة وقد كان دور التجار الشماليين والجنوبيين واسعاً للغاية فقد كانت هناك حاصلات في الشمال يحتاجها سكان الجنوب وفي مقدمتها الملح والمنسوجات والحلى كما كانت هناك حاصلات إفريقية يحتاجها سكان الشمال كالذهب والأخشاب وجلود الحيوانات.

وذكر السلاوي أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار ثم يسيرون في قوافلهم إلى غانا وكانوا يقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وفي شهر ونصف إياباً وكانوا يبيعون ما معهم من الأمتعة بالبتر[14].

---

(12) محمد أحمد حسونة، **أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية**، القاهرة، دار النهضة، مصر د. ت، ص 67.

(13) عبد المولى الحرير **«الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية والاقتصادية في إفريقيا جنوب الصحراء»** مجلة البحوث التاريخية ـ العدد الثالث، طرابلس، مركز الجهاد 1989، ص 103.

(14) السلاوي، أبو العباس أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، الدار البيضاء 1954، ص 99.

ويقول ابن حقول في هذا الصدد: «عرف العرب التجارة مع إفريقيا منذ أمد بعيد ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلماً زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها كما زاد النشاط الذي كان يقوم به العرب فقد عنّى المسلمون بالطرق والأمن وحددوا المكاييل والموازين والمقاييس وأشاع التاجر المسلم حوله جواً من الثقة فوجد ترحاباً أينما حلّ وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة واختار مساعديه بالجنوب من خيرة الناس فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة(15).

وكان التاجر المسلم بسلوكه وخبرته بالناس وخلقه الإسلامي ما جعله محل ثقة الأفارقة ووفر له ذلك القبول الحسن لديهم وما أن يدخل هذا التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وعبادته التي يبدو فيها وهو خاشع يناجي ربه وخالقه ومنظره في سجوده وسكينته يضفي عليه من المهابة والجلال ما يحرك فطرة الإفريقي الوثني فضلاً عمّا يتحلّى به من سمّو عقلي وسلوك حضاري يفرض الاحترام والثقة به على الوثنيين ويجذبهم إلى الاقتداء به وتقليده(16).

كما كان هؤلاء التجار في هذه الأصقاع يحملون مع بضائعهم العقيدة الإسلامية والمعارف الإساسية لها وكانوا يعملون بمختلف الوسائل على نشر الإسلام وترويجه بين الوثنيين(17).

---

(15) أبو القاسم ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت، ص 99.

(16) حسين عيسى عبد الظاهر، **الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن 12 الهجري**، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1981، ص 79.

(17) إسماعيل العربي، **حاضر الدول الإسلامية في القارة الإفريقية**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984 ـ 342.

2 ـ الدعـــاة:

ليس هناك اختلاف كبير بين التاجر والداعي والفرق البسيط بينهما هو أن التاجر يهتم بالتجارة والدعوة معاً، أما الداعي فكان اهتمامه الأول هو الدعوة إلى الدين الحنيف. وكانت غالبية التجار لا تجيد الفقه والفكر الإسلامي وليس منهم من يستطيع التفرغ لذلك، لذا نجد الكثيرين من هؤلاء يستقدمون الفقهاء والعلماء لتعليم وتثقيف الناس بأمور دينهم ودنياهم وشرح ما يستوجب شرحه لهم فأصبحوا دعاة لهذا الدين وكان بعض هؤلاء يقومون بتشييد المدارس وإنشاء المساجد وكثيراً ما كانوا يختارون الطلاب المميزين والأفذاذ لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في المشرق العربي أو الشمال الإفريقي لكي يتتلمذوا على أدي علماء الأزهر ومكة والقيروان والزيتونة وطرابلس وفاس ومكناس وغيرها من المراكز والمؤسسات الإسلامية الشهيرة ويعودوا قادّة للفكر في هذه البقاع.

وهكذا وبمرور الوقت تكوّنت طوائف عديدة من الدعاة، وعندما ازداد إقبال هؤلاء الطلاب على السفر للتعلم في هذه المراكز العلمية الشهيرة والبعيدة قام كثير من التجار ببناء بيوت لهم بالشمال يعيشون بها طيلة التحاقهم بهذه المعاهد كما قدم هؤلاء التجار ما احتاجه هؤلاء الطلاب من نفقات ومصروفات لغرض الإقامة أو شراء الكتب والمخطوطات(18)، وكان الداعي المسلم يباشر دعوته بهمّة ونشاط وكان يجد تكريماً باعتباره رجل علم تفقّه في الدين والشريعة الإسلامية وقد درس العديد من هؤلاء المعلمين الدعاة في مدارس القيروان وفاس وطرابلس والقاهرة وعادوا إلى بلادهم الأصلية وقد تحولوا إلى دعاة(19).

وكان الدعاة يتفرغون للدعوة والتعليم فكانوا يجمعون حولهم عدد من

---

(18) إبراهيم موسى جوب، ص 30.

(19) عبد الرحمن زكي، **تاريخ الدول الإسلامية**، ص 53.

الأطفال والشباب وسرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم الذين لم ينخرطوا في سلك التعليم وهذا ما ساعد على جذب أعداد أخرى جديدة كل يوم للانضمام إلى الحلقة، والداعي المسلم يستطيع أن يمد القبائل الزنجية غير المتحضرة بكثير من الحقائق المتعلقة بالله وبالإنسان تصل مباشرة إلى القلب والوجدان، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصاً بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية تتيح لهم حق الحماية والمساعدة في البلاد الإسلامية قاطبة من المحيط الأطلسي إلى صور الصين شرقاً، وإذا استطاع المعلم الداعي إقناع شيخ القبيلة فإن القبيلة كلها تتبع شيخها في دخول الإسلام وإقناع هذا الشيخ لم يكن عسيراً فإن الإسلام يحافظ له على مركزه ومكانته ويمنحه حقوقاً مقابل التزامات ليس من الصعب الوفاء بها وقد زاد من تسهيل جهود الدعاة أن الاعتقاد بوجود الله وهو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان ويمكن أن يتحول الوثني دون عناء إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين وكذلك الحال في بعض المظاهر الأخرى في دياناتهم، وكانت نظرة الإفريقيين العامة وكثير من شرائعهم الدينية قابلة لأن تصطبغ بصبغة إسلامية وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إحداث تغييرات كبيرة[20].

لقد تعاون التاجر والداعي تعاوناً ملحوظاً وبذلا معاً جهداً مضنياً في سبيل نشر الدين وإعلاء كلمة الحق على الأرض الإفريقية فكما رأينا كثيراً ما كان التاجر يدفع من ماله الخاص ليهيىء للمعلم مكاناً يلتقي فيه بالناس ويزوده في نفس الوقت بما يحتاجه من نفقات شخصية، ومقابل هذا يعطي المعلم والداعي من جهده وفكره ما يهدي الناس ويحقق الغاية المنشورة وهي نشر الإسلام ولقد نجحا معاً نجاحاً باهراً في هذا المجال، ولكن دورهما وجهودهما مهما بلغت فإنها محدودة وتعتبر جهود فردية وقضية نشر الإسلام بصورة أوسع يحتاج لوسائل أكبر وجهداً جماعياً منظماً وهذا ما ظهر في المرحلة الثانية التي تمثلت

(20) حسن إبراهيم حسن، **انتشار الإسلام في القارة الإفريقية**، ط 2 القاهرة، مكتب الأنجلو المصرية 1963، ص 53.

في ظور الحركات الإصلاحية الدينية أو حركات التصوف وظهورها لم يلغ دور التاجر والداعي بل استمر كلاهما يعمل ويؤدي دوره إلى جانب هذه الدعوات الدينية الجماعية.

3 ـ الحركات الصوفية:

لقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار في شبه الجزيرة العربية ومصر والشمال الإفريقية وفي سواها من الدول الإسلامية حتى مطلع هذا القرن، ونحن هنا لسنا بصدد دراسة كل الدعوات الصوفية المتعددة بسمّاتها وخصائصها لأن ذلك خارج عن نطاق دراستنا هذه، ولكننا سنحاول أن نتبع ونستنتج ما قدمته هذه الدعوات من خدمة للإسلام وما قامت به من دور في سبيل نشره وترسيخه على الأرض الإفريقية وبالتالي استكمال الحلقة أو الدور القذ قام به التجار والدعاة في المرحلة الأولى وأياً كان التباين والتشابه بين هذه الدعوات أو الحركات إلا أنها جميعاً كانت تتفق على هدف واحد وهو العمل بجد وهمة على نشر الإسلام وتعميقه في النفوس وإعلاء رايته والعمل على إزالة كل الشوائب التي حاول المتحاملين على الإسلام إلحاقها به[21].

كانت هذه الحركات الدينية الصوفية الجماعية تمثل نموذجاً آخر من النماذج التي جسدت وترجمت الخصائص الذاتية للإسلام ونقلتها إلى واقع ملموس فأصبحت تمثل مع سابقاتها من العوامل عاملاً خارجياً هاماً ذو علاقة مباشرة بالعامل الذاتي بكل أبعاده وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار

---

(21) لمزيد من المعلومات عن دور الحركات الصوفية راجع:
- محمد عبد القادر احم ـ **المسلمون في غينيا** ـ القاهرة 1986.
- مقداد يايحن ـ **فلسفة الحياة الروحية** ـ بيروت، دار الشروق للنشر 1985.
- عبدالله محمد زروق ـ **قضايا التصوف الإسلامي** ـ الخرطوم، دار الفكر للطباعة والنشر 1985.

وبالذات في المناطق التي يوجد بها فراغ روحي فوجد الناس في الالتفاف حول شيخ الطريقة وفي الانضمام لحلقات الذكر ما يشبع غريزتهم في البحث عن الأمان والاطمئنان، وتحقيقاً للتوازن النفسي عند الفرد الإفريقي وسعيه لكمال الأخلاق وسعيه لمعرفة طلاسم هذه الحياة كان سرعان ما ينضم إلى الصوفيين[22] خاصة وأن هذه الحركات الصوفية التي انتشرت في هذه المناطق والبيئات البسيطة حيث ينتشر الفراغ والبطالة بين الناس عمدت غالبيتها إلى العمل على تصفية النفس قبل الدخول في الأمور الأخرى[23] فالمرحلة الأولى هيأت الأفارقة للدخول للإسلام والمسك به حيث نشطت حركة الإحياء الديني لتنتقل بعد ذلك إلى مرحلة الثورة على النظم الاجتماعية والسياسية وقد شجع على ذلك ما وجدته هذه الحركات من تأييد كبير عمق ووسع من قاعدة اعتناق وانتشار الإسلام بين الإفريقيين وذلك عن طريق التربية والتعليم والجهاد، وإن كثير من هذه الحركات الدينية قد أخذت الطابع الصوفي من زهد في الدنيا وإعراض عن ملذاتها وزخارفها وتجنيد الروح للفوز بالآخرة[24].

لقد استطاعت هذه الحركات أن تثبيت وجودها في هذه المناطق وأن تحول الصحراء القاحلة الميتة إلى مناطق مزدهرة ومجالات حيوية بعد أن بعثت فيها الحياة والطمأنينة، فكما نعلم أن الانتقال بين ربوع أجزاء هذه القارة كان يعتريه في كثير من الأحيان صعاب وعراقيل تتمثل في فقدان الطريق أو التعرض للجوع والعطش أو للسلب والنهب الذي كان يقوم به قطاع الطرق واللصوص فكان لجهود الحركات الصوفية لإحالة الصحراء إلى مناطق آمنة ما يعجز اللسان عن التعبير عنه حيث بدأت هذه الصحراء المترامية الأطراف تشهد ظهور

---

(22) أبو الوفا الغنيمي ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. ت. 1974، ص 286.

(23) عبد القادر محمود ـ الفلسفة الصوفية في الإسلام ـ مصادرها ونظرياتها ومكانتها من الدين والحياة، القاهرة، دار الفكر العربي 1966، ص 9.

(24) حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، ص 81.

مؤسسات دينية واجتماعية وثقافية متعددة حيث قامت بناء مراكز لها كالزوايا والتكايا والخلاوي ذات سمات وخصائص إسلامية تمثلت في نشاطاتها الثقافية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية فكانت تقدم لهم ولغيرهم ما يحتاجون إليه من مأكل وملبس، كما أنها كانت تضم أمكان لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة والوعد والإرشاد بأمور الدين والدنيا، وكل هذه الأمور لم يكن يألفها الإفريقي من قبل، كما أن هذه المؤسسات استطاعت أن تحول هذه الصحراء المخيفة إلى منطقة أمان وهدوء حيث كانت القوافل التي تجوب هذه الصحراء أو الأفراد يلجئون إلى هذه المؤسسات للحصول على تصاريح أو رسائل أو توصيات تحمل أختام هذه المؤسسات وعندما يتعرض هؤلاء لقطاع طرق يبرزون لهم هذه الوثائق فيتركون سبيلهم وهذا يمثل منتهى القوة التي وصلت إليها هذه المؤسسات. كما كانت هناك نظم ساسية واجتماعية واقتصادية نابعة من تقاليد الإسلام ومبادئه أقرها رواد هذه المؤسسات وهي عند انخراط أحد الأفارقة في الإسلام وانضمامه إلى هذه المؤسسات تتعهد له بتوفير فرصة العمل له مقابل إعاشته أو قيامه بتعليم مجموعة من المسلمين الآخرين القراءة والكتابة أو بعض الحرف التي يجيدها.

لقد انخرطت أعداد كبيرة من الأفارقة في الدخول إلى الإسلام والتردد على هذه المؤسسات بشكل منقطع النظير، وفي فترة قصيرة جداً ونحن ندلّل على ذلك بما قاله أعداء الإسلام أنفسهم إذ يقول الرحالة جوزيف توسون عند حديثه عن انتشار الإسلام في إفريقيا: «. . . إذا بلغنا غربي إفريقيا والسودان الأوسط نجد الإسلام كجسم قوي فيه روح الحياة والنشاط وتتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام كما كان في أيامه الأولى، فترى الناس تدخل فيه أفواجاً وتقبل عليه إقبال عجيب شبه أيامه السالقة، نرى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون وآخذة في إنارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحم البشر عند منبع النيجر، وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفض الجناح، وفي الأزمان

الحاضرة كان القائم بأمره تاجراً ذا همة وإقدام يدعى (هوذا أو نوبيه) كان ذلك الراعي يجهد نفسه لشراء لواء ديانته من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الأطلانتيكي وينتج عن ذلك أن أشرقت شمس الإسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها»[25].

وقد كان للطرق الصوفية مجالات غير التي كانت للتجار، فإذا كان التجار ينزلون المدن فقد كان رجال الطرق الصوفية يميلون للقرى والنجوع وإذا كان التجار بطبيعة عملهم يقومون بالبيع والشراء ويسعون للربح فإن رجال الطرق لا يكترثون للمال ولا يسعون إلا إلى الكفاف، وإذا كان التاجر يقوم بنشاطه نهاراً فإن نشاط الطرق الصوفية كان ليلاً فهدوء الليل له سحر وجاذبية وإقبال من الناس حيث تقام حلقات الذكر التي لها جاذبية فتشدّ لها الحاضر وتقرّب لها البعيد، ومع هدوءه تغمز أصواب الذاكرين النجع له فيهرع الجميع إلى حلقات الذكر[26].

وهكذا كان للطرق الصوفية دوراً كبيراً في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء وقد نشط دعاة هذه الطرق في الدعوة إلى الإسلام ساعدها في ذلك خصائص الإسلام الذاتية من سهولة ويسر فيهو دين الفطرة وما ينعم به الداخل فيه من مساواة وعدالة واحترام ذاتي كما ساعدها ما قام به التجار والدعاة واستمرارهم في آداء دورهم وقد تميّز التصوف بدور إيجابي خاصة في غرب إفريقيا وهو الاستيلاء على السلطة عن طريق الثورات الإصلاحية في أكبر حركتين للجهاد عرفتا في هذه المنطقة وهما ثورة المرابطين وثورة الموحدين وظهور الشخصيات الإسلامية الإفريقية[27].

(25) محمد فتح الله الزيادي، **إنتشار الإسلام وموقف المستشرقين**، ص 134.

(26) إبراهيم موسى جوب ـ **الفولانيون ودورهم في نشر الإسلام**، ص 49.

(27) عمر أحمد سعيد «**دور حركات التجديد الإسلامي في إفريقيا**» مجلة بحوث نصف شهرية، العدد السادس، فبراير 1990، الخرطوم المركز الإسلامي الإفريقي، ص 121.

4 ـ دور الدول الإسلامية :

أ ـ الأدارســـــة :

بعد معركة فخ التي جرت عام 169 هـ في أيام الهادي تمكّن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الفرار إلى المغرب هو وأخوه يحيى وقد نجوا من الوقوع في الأسر وقد وصل إدريس في عام (172 هـ ـ 780 م) إلى المغرب وكان ذلك في أيام الرشيد والتّف حوله الناس في صنهاجة ولمتونة والملثمون من إقليم شنقيط وبايعوه بالخلافة فأقام دولة الأدارسة التي دانت لها المغرب بأكملها وبفضل هذه الوحدة التي جمعت هؤلاء السكان استطاعت الدولة الجديدة أن تعمل بهمة ونشاط على ترسيخ أقدامها بقوة لا في المغرب فحسب، ولكن حتى في دواخل إفريقيا فأعلنوا الجهاد المقدس لنشر الإسلام والقضاء على الشرك والمعتقدات البالية والشاذّة. فانطلقوا بقواتهم من المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التي تفصل المغرب عن إقليم السودان وأصبحت ديار الملثمين في هذه المناطق خاضعة للأدارسة وجزءاً من ممتلكاتهم لذلك زاد تحول صنهاجة إلى الإسلام وانتشر بين الملثمين في القرن الثالث الهجري بشكل واسع. وكان لإسلامهم تأثيره البالغ على تاريخ المغرب والسودان وقد قام في هذه الفترة تحالف ضمّ قبائل الملثمين الموجودة في كل المناطق بزعامة لمتونة وأخذت تعمل على التوسع من جديد ولكنها لم تتمكن من ذلك بسبب تطور قوة الأدارسة وحلفائهم بالمغرب فلم يبق أمامهم إلاّ التوجه صوب الجنوب فرفعوا رايات الجهاد في هذه المناطق وأخذوا ينشرون الإسلام بين القبائل الزنجية المنتشرة بكثرة في هذا الجنوب وكانت القبائل اللمثمة حديثة العهد بالإسلام وقد أرادت أن تسهم في حركة الجهاد هذه ومما ساعد هذه القبائل على التوجه جنوباً أن مملكة غانا الزنجية قد بدأت في التفكك مع أن نفوذها امتدّ بصورة واسعة حتى قضى عليها المرابطون وقد مكّن ذلك هذه القبائل من التقدم نحو الجنوب ونشر الإسلام في غرب إفريقيا[28].

---

(28) إبراهيم موسى جوب، ص 65.

ب ـ المرابطـــون:

بعد ضعف دولة الأدارسة وانقسامها خضعت المغرب للأمويين في الأندلس ثم خضعت بعض أقسامها للفاطميين. وأخيراً عاد الأمويين لحكمها، وبشكل عام فقد ظلت البلاد الغربية منذ قرنين من الزمان غارقة في حروب وصراعات حتى قيام دولة المرابطين في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي.

ويطلق اسم المرابطين على الزعماء والقبائل الذين رحلوا من الصحراء الكبرى في القرن الحادي عشر لبث الدعوة إلى الإسلام السني وفرضه بالجهاد وأسسوا دولة في الشمال الإفريقي وإسبانيا وقد نفذ هؤلاء المحاربون الصحاريون إلى شمال المغرب الأقصى قادمين من الجنوب الغربي واستقروا هناك، ولقد كان المرابطون والموحدون فرقاً دينية قبل أن يصبحوا دولاً[29].

لقد تكونت دولة المرابطين على أيدي صنهاجة التي كونت حلفاً من القبائل كان من أبرزها جدالة ـ لمتونة ـ مسوقة ـ ولمطة ـ وكانت إقامتهم في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين في البيد الممتدة من خط طرابلس الغرب إلى المحيط الأطلسي على الشريط الجنوبي من الشمال الإفريقي عند حدود السودان وبلاد الزنج وكانوا يملكون القسم الشمالي الشرقي من السنغال وفي هذه الفترة كان هؤلاء الصحراويون أو على الأقل أولئك الذين كانوا يسكنون في منطقة السنغال والنيجر قد دخلوا الإسلام[30] ولا نعرف كيف بدأ إسلامهم ومن الذي نشره بينهم.

ويعتبر عبدالله بن ياسين هو مؤسس هذه الدولة وزعيمها الروحي قام

---

(29) الفرد بل **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ت، عبد الرحمن بدوي، بنغازي دار ليبيا للنشر والتوزيع والإعلان، 1969، ص 226 ـ 227.

(30) نفس المصدر، ص 227.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى تعاليم الدين السليمة بين هؤلاء لمرابطين في صحرائهم الذين حولهم إلى دعاة للدين الإسلامي بين القبائل لوثنية بين أهل السودان وتشاد والنيجر وغيرها من بلاد إفريقيا جنوب الصحراء م اتجه بحركته الإصلاحية يحارب قبائل المغرب الأقصى ممن لا زال على ثنيته[31].

أما سبب تسميتهم بالمرابطين فيذكر أنه أمام ما لقيه ابن ياسين في دعوته ن صعاب اعتزل هو وعدد صغير جداً من وجوه صنهاجة المخلصين له ومنهم بو بكر ويحيى ابنا عمر وكانا زعيمين لبطون من قبيلة لمتونة القوية وانقطعوا لمعبادة في جزيرة النيجر فسمع الناس بأخبارهم وحرصهم على طلب الجنة والنجاة من النار فترددوا عليهم فأخذ ابن ياسين وأتباعه يعلمونهم القرآن ويستميلونهم حتى تمكّن الإسلام من قلوبهم، فلم تمرّ عليه أيام حتى اجتمع له ن تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة فسمّاهم المرابطين للزومهم رابطته. والمكان الذي اعتزل فيه هؤلاء المحاربون وانقطعوا للتفقّه في الدين كان يسمى منذ القرون الأولى للإسلام بالرباط[32] وهو في مصطلح المرابطين يعني الاستعداد لمواجهة إعلاء الله في حقيقته يعني جهاد النفس والمقيم فيه مجاهد نفسه، ومن كلا المعنيين لا تتعدى حقيقة الرباط أن يكون لجماعة من لزهاد انقطعوا لأجل هدف واحد مشترك هو الدفاع عن الدين[33].

لقد قامت الأربطة الإسلامية بدور كبير في نشر الإسلام والإصلاح في إفريقيا وذلك لوجودهم على طرق القوافل التجارية التي ارتبط بها انتشار الإسلام في هذه المناطق كذلك طرق الحجاج وليس من المستبعد أن يكون ذلك

(31) مراجع عقيلة الغناي، **قيام دولة الموحدين**، بنغازي، جامعة قاريونس 1988، ص 48.

(32) الفرد بل، ص 231.

(33) عمر أحمد سعيد، ص 122.

سبباً رئيسياً في نشأتها وتنقسم الأربطة الإسلامية إلى نوعين: أربطة ساحلية وأربطة صحراوية ومع مرور الزمن تطورت بعض هذه الرباطات إلى مدن وقرى تجمّع فيها السكان نظراً لتوفر الأمن وكسب العيش وطلب العلم، كما مثلت هذه الأربطة حلقات وصل بين مختلف مناطق القارة الإفريقية والمراكز الإسلامية ولقد لعبت هذه الأربطة دوراً رئيسياً وفعالاً إذ أصبحت مراكز للدعوات الإسلامية التي انطلقت من الشمال الإفريقي والمشرق الإسلامي وساعدت فيما بعد على إقامة الدول والممالك الإسلامية(34).

لقد كان للرباط الذي بناه يوسف بن تاشفين في جنوب السنغال أثر كبير في نشر الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا كما كان لغيره من الرباطات التي نشأت قبله في عهد ابن ياسين بين قبائل صنهاجة دور واضح في هذا المجال.

بعد أن أرسى المرابطين دعائم دولتهم ووطدوا أركانها انطلقوا داعيين ومجاهدين بقيادة زعيمهم ابن ياسين لمقاتلة قبائل برغواطة وحلفائها لأنهم يدينون بمذاهب مبتدعة وملحدة حيث نشر بينهم صالح نبين طريف ديانته الجديدة بعد أن ادعى النبوة وانسلخ عن آيات الله وأقام شعائر جديدة للصلاة والصوم والعبادة تختلف تماماً عما جاء به الإسلام وقد نمّت حركته هذه وانتشرت ولم تفلح قوات الأدارسة والأمويون والفاطميون من القضاء عليها حتى جاء المرابطون في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري فانتصروا على هذه البدعة وتمكن بعدهم الموحدون من القضاء على البقية الباقية منهم في القرن السادس الهجري، كما قضى المرابطون على المنشقين على الإسلام من قبائل مصمودة(35).

---

(34) عبد المولى الحرير، الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية في إفريقيا، ص 101.

(35) انظر، الغناي، **قيام دولة الموحدين**، ص 48، والفرد بل ص 180.

وفي عهد المرابطين وجهّت حملات نحو السودان لنشر الإسلام استشهد في إحداها يحيى بن عمر (1055 م) فعين ابن ياسين مكانه أخاه أبو بكر بن عمر الذي قام (1057 م) فغزا السوس واستولى على تار ودنت وهذه المقاطعة البعيدة يبدو أنها منذ أيام الأدارسة قد أفلتت من سيطرة حكومات الشمال وبقيت مستقلة، وحوالي (1061 م) سلّم الأمير أبو بكر قيادة الجيش والبلاد المفتوحة إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ليسوّي الخلافات الناشبة بين قبائل صنهاجة ويتابع دعوته إلى الإسلام في بلاد السودان[36].

وقام يوسف نزولاً على رأي أهل الأندلس واستجابة لما يأمر به الدين الإسلامي بالقضاء على دولة الطوائف التي حاربت الإسلام واستباحت دماء وأموال المسلمين وأطمعوا فيهم النصارى بعد أن استفتى أهل الرأي والفقه بالمغرب والأندلس كما استفتى أبا حامد الغزالي إمام المشرق الإسلامي وقد أفتاه الجميع بوجوب القضاء عليهم لأن وجودهم خطر على الإسلام والمسلمين[37].

وقد تمكن من القضاء عليهم وعلى دولتهم وإدخالها في حظيرته بعد أن كانوا يعرقلون حركة انتشار الإسلام في مناطقهم وفي مناطق جنوب الصحراء الإفريقية. وكان يقول في هذا الصدد: «... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش إنما هم أحدهم فرس يروضه وليستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ ينسى دعوته»[38].

لقد استمرت حركة المرابطين في الجهاد في غرب إفريقيا جنباً إلى جنب

---

(36) الفرد بل، ص 232.

(37) الغناي، **قيام دولة الموحدين**، ص 49.

(38) عبد الواحد المراكش، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ط 1، القاهرة، مطبعة الاستقامة 1946، ص 163.

مع تغلغلهم السلمي فيها، فبالرغم من أن مملكة غانا التي سقطت في أيديهم قد أعادت سلطتها بعد حوالي عشرة أعوام فقط من سقوطها، فإن دخول الإسلام فيها قد أدّى إلى انتشاره في الأقطار المجاورة أضف إلى ذلك أن المرابطين أنفسهم قد سعوا إلى نشر الإسلام سلمياً في هذه المنطقة وذلك لرجوعهم إلى الزوايا بعد انهيار دولتهم حيث شرعوا في نشر تعاليم الإسلام في هذه المناطق.

ج ـ الموحـــدون:

مرّت إمارات ودول بلاد المغرب والأندلس بظروف اجتماعية ودينية وسياسية في الفترة التي سقبت قيام دولة الموحدين أدّت إلى إضعافها بل وأدّت في النهاية إلى إسقاطها على أيدي الموحدين الذين تهيأت لهم الأسباب والعوامل لإقامة دولتهم، وقد ساهمت هذه الحركة في ثورة الإصلاح الديني الذي قام به مؤسسها عبد الله بن تومرت وكما اختلفوا في تحديد ميلاده اختلفوا أيضاً في تحديد نسبه وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن جدهم عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول ﷺ[39].

ولقد بدأ ابن تومرت نشاطه بالدعوة إلى طريق الحياة في عهد الرسول فسافر عام (1110) إلى القاهرة ودمشق وبغداد والحجاز وترحل داخل بلاد المغرب والأندلس وأتاحت له هذه الرحلات الطويلة فرصة دراسة أحوال العالم الإسلامي وأدرك ظروف الانهيار والتدهور التي تعانيها دول إمارات بلاد المغرب، وكان كل ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم هذه والتخطيط لإقامة خلافة إسلامية قوية تستولي على مقاليد الحكم لا في المغرب فحسب بل والعالم الإسلامي كله، وهو لم يتأثر بأي تيار من التيارات الفكرية التي كانت سائدة في زمانه بل أخذ منها فقط ما يتلائم مع

---

(39) مراجع الغناي، **سقوط دولة الموحدين**، بنغازي، جامعة قاريونس، 1988، ص 36.

شخصيته ومعتقده ويتلائم مع أهدافه[40].

وفي عام 1125 التجأ إلى جبال أطلس حيث أعلن نفسه إماماً للأمة الإسلامية ولقّب نفسه بالمهدي الذي ينتظره المسلمون.

أما عن أسباب تسميتهم بالموحدين فيعود إلى أن زعيم هذه الحركة قد اتخذ لها شعار التوحيد وأتباعه هم الموحدون لأنه ينفي الصفات عن ذات الله تعالى وهو في هذا متأثر بالمعتزلة، فكان موحداً على طريقتهم. وبعد أن اطمأن على انتشار تعاليمه ورسوخها بين أتباعه بدأ في مواجهة دولة المرابطين وحدثت معارك عديدة بين الطرفين كان النصر حليف الموحدين.

وهكذا أفادت هذه الحركة في النهاية إلى قيام دولة الموحدين التي بسطت سلطانها على شمال إفريقيا والصحراء والأندلس أكثر من عشرين عاماً ولا يمكن إهمال أثرها في الإصلاح في غرب أفريقيا وذلك لأن منشأ الحركة كان في القبائل الصحراوية ومعروف أن هذه القبائل تسيطر على طرق التجارة المتجهة إلى غرب إفريقيا ولا بد أن تكون آثار هذه الدولة القوية قد انتقلت إلى بلاد السودان فقد ذكر أن هناك اتصال بين مملكة كانم وشمال إفريقيا في عهد الموحدين والعصور التالية لهم كما أن هناك تشابه واضح بين دعوة الموحدين والدعوات الأخرى التي ظهرت فيما بعد في غرب إفريقيا عند المختار الكنتي والشيخ عثمان دان فوديو وعمر الغوني وذلك عن طريق الإصلاح والمنهج ونلاحظ بصفة خاصة فكرة الهجرة التي وجدت لدى كل منهم بالإضافة إلى فكرة الاجتهاد في الشرع وعدم الالتزام بمذهب معين والزعامة الروحية[41].

لقد أكمل الموحدون ما سبق للمرابطين أن قاموا به من جهود في سبيل نشر الإسلام في جنوب الصحراء وذلك عندما بدأت حركة التصوف تنمو وتتطور

---

(40) نفس المصدر، ص 38.

(41) عمر أحمد سعيد، دور حركات التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص 125.

في هذه الأقاليم حتى تمكنت من السيطرة على السلطة فيها ومن أشهر الطرق الصوفية التي انتشرت في عهد الموحدين في إفريقيا الطريقة القادرية التي اتخذت من مدينة تاكيدا Takeda التي تقع في قلب الصحراء مقراً لها حيث اعتنقها عدد كبير من قبائل صنهاجة كما انتشر الإسلام عن طرق دعاة هذه الطريقة بين الشعوب الزنجية واعتنقه الملوك الوثنيون على طول الطرق التجارية وصارت مدينة كانو في غرب إفريقيا مركزاً لنشاط رجال الدين وقاموا بنشره على نطاق واسع في أقصى الجنوب والغرب[42]، وامتدت حركة انتشار الإسلام نحو حوض السنغال ثم اتجهت إلى الجنوب الشرقي حتى منطقة الفولتا ثم امتد نشاطها إلى شرق إفريقيا والقرن الإفريقي.

وخلاصة القول إن حركة انتشار الإسلام في عهد الموحدين ساهم فيه إلى حد كبير تشجيع هؤلاء للفكر الصوفي الذي انتشر بدوره في غرب إفريقيا وشرقها من زنجبار إلى غينيا بفضل الدعاة الذين ينتسبون إلى هذه الطرق والذين تحدّث أرنولد عن سمّاتهم وطريقتهم في نشر الدين والدعوة له إذ يقول: «كان نشاط هذه الجماعة ذا طابع سلمي للغاية يعتمد على الإرشاد كما يعتمد على التأثير ونشر التعليم»[43].

5 ـ الهجـــرة:

لقد لعبت الهجرة الإسلامية إلى دواخل إفريقيا دوراً كبيراً وهاماً في نشر الإسلام في هذه المناطق منذ بداية الدعوة لهذا الدين التي أخذ سيدنا محمد يبثها بين مشركيّ قريش في مكة وقد تعرّض هو وأصحابه إلى الاضطهاد والشدّة، فصرح الرسول الكريم بهجرة المستضعفين وكانت الحبشة من أقرب البلاد

(42) Foge. D.H. **History of Africa,** London, 1972, p. 195.

(43) أرنولد (توماس) **الدعوة الإسلامية**، ت حسن إبراهيم حسن، القاهرة 1971، ص 365.

المسيحية التي يربطها بالعرب تاريخ مشترك ويحكمها ملك مسيحي، فإلى جانب قربها كان السفر إليها أهون أمراً من اختراق الجزيرة شمالاً أو جنوباً عبر قبائل معادية، وكان عدد المهاجرين الأوائل أي الهجرة الأولى لا يزيد على أحد عشر ومنهم عثمان بن عفان ومعهم بعض زوجاتهم ثم تتابع المسلمون فيما يطلقون عليه الهجرة الثانية وكان فيها جعفر بن أبي طالب ومنهم من خرج بأهله معهم ومنهم من خرج بنفسه فكان من لحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً عدا زوجاتهم وأبنائهم وتطورت الهجرة حتى بلغت ما يقارب الستمائة مسلم(44) وهؤلاء المهاجرون لم يهاجروا جميعاً من مكة بل إن فوجاً منهم قد هاجر من اليمن برئاسة أبي موسى الأشعري وقد قدر عددهم ببضع وخمسين رجلاً، وهناك من الأراء من يحاول أن يجعل الدفعة الأولى من المهاجرين بعثة إسلامية لقبول المهاجرين وقد أقام هؤلاء بالبلاط الأكسومي فترة قصيرة قدرت بشهرين أو تزيد قليلاً وقد أرسل النجاشي وفداً إلى الرسول ﷺ بمكة ليتثبت من حقيقة هؤلاء ويقال إن الوفد الحبشي أسلم ويعتبر هذا أول تأثير مباشر لحركة الهجرة في نشر الإسلام، وعندما تأكد النجاشي عن طريق المعلومات التي وصلته عن طريق هذا الوفد بصحة الأخبار عن النبي محمد أذن للمسلمين بالهجرة إلى بلاده فأذن النبي للمسلمين بالهجرة بعد أن اطمأن إلى حماية النجاشي لهم فتدفقت الهجرة الإسلامية إلى الحبشة حيث كانت تسير أقدام العرب منذ زمن بعيد وحيث استقرّ بها إخوان لهم من قبل يشتغلون بالتجارة ولم يمنع الإسلام من اعتنقوه من تجار العرب من مزاولة حرفهم الأولى فالهجرة إلى الحبشة والعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الإسلام استمرت من بعده وحمل المهاجرون والتجار الجدد إسلامهم معهم ومن ثم أخذ الإسلام يظهر وينتشر بالحبشة ويتغلغل في المناطق القريبة لها حيثما سار التجار.

والإسلام الذي وحّد بين العرب وحدّ من خصوماتهم وأوقف غزواتهم

---

(44) Moneill (V) **L'Islam en Afrique Noire** Paris, 1958, P. 22.

التي كانوا يشنّونها على بعضهم حرّم أيضاً أن يسترق مسلم مسلماً وبذلك لم يكن هناك مخرجاً أمام أفواج الرقيق وسكان الصومال والحبشة وكذلك السودان الذين تعرضوا دائماً لغزوات النخاسين إلا الارتماء في أحضان الإسلام الذي يمنع ذلّ الأسر ويقيهم مهانة الرزق والعبودية فأخذ الإسلام ينتشر بينهم بتزواجهم مع بعضهم ومع العرب والمسلمين المهاجرين إليهم والنازلين بينهم وهذا هو التأثير الثاني المباشر للهجرة في حركة انتشار الإسلام(45).

لقد حاول بعض المستشرقين أن يرجعوا أسباب الهجرة هذه إلى العامل الاقتصادي وهو التجارة واكتساب الرزق في الحبشة لأنه حسب وجهة نظرهم أن مكة وأهلها من قريش قد سدوا أبواب الرزق أمام هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام ومنعتهم من الاتجار معها منكرين على هؤلاء المهاجرين من أن يفتنوا في دينهم(46).

وقد ناقش أحمد الشامي هذا الرأي مناقشة جادة حيث فنّد هذا الزعم وأوضح بالدليل أن الدوافع المادية ورفع مستوى المعيشة لم يكن الشغل الشاغل لهؤلاء وأن هجرتهم لم تكن حرصاً على تجارة مهددة بالكساد أو من أجل أسواق جديدة بدلاً من التي سدّت في وجوههم، ولكنهم تركوا أوطانهم وذويهم بعد أن تحملوا ألواناً من العذاب والاضطهاد وهاجروا خوفاً على دينهم الذي حرصوا عليه أكثر من حرصهم على تجارتهم ومكاسبهم وأن الغرض الحقيقي من وجود هؤلاء المهاجرين في الحبشة هو الجانب السياسي والجانب الإعلامي لنشر الدعوة الإسلامية بطريق غير مباشر وبطريقة ودية. فوجودهم على أرض الحبشة يدفع الأحباش إلى الالتفاف حولهم للوقوف منهم على أسباب مجيئهم ودوافع هجرتهم وفرارهم من بلادهم ومعرفة الدين الجديد الذي يؤمنون به،

---

(45) Arnauld (H), **L'Islam et la politique** Paris, Payot, 1923, P. 12.

(46) Claud, F. **L'Islam et L'Afrique noire** J.P. Paris, 1927, P. 60.

وهذا في حدّ ذاته مكسباً إعلامياً للإبلاغ عن الدعوة الإسلامية والدليل على ذلك الحديث الذي دار بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب في شأن المسيح وبكاء النجاشي حتى ابتلّت لحيته حينما سمع آيات الكتاب الكريم ودخوله الإسلام. ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك منهم قسيس ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [سورة المائدة: 47](47)، وقد تعاقبت بعد ذلك مجموعة من الأحداث على الدولة الإسلامية وساعدت على الهجرة منها حروب الردّة والفتنة الكبرى والخلافات المذهبية، ولم يكن الهدف من الردّة بين بعض القبائل العربية هو الخروج عن الإسلام بقدر ما كان الوقوف ضد سيطرة قريش وكانت ثورة القبائل المرتدة مركزة في طيء وغطفان البحرين وعمان واليمن وحضرموت وقد أجبرهم أبو بكر الصديق على الخضوع من جديد للدولة الإسلامية ولكن البعض منهم هاجر إلى شرق إفريقيا والحبشة ووصل البعض منهم إلى أقاليم السودان الأوسط حاملين معهم إسلامهم، كما قامت بعض القبائل الباقية ومنها قبيلة بني مخزوم التي أصبحت محطّ اهتمام عمر بن الخطاب فاضطر معظم أبناؤها إلى الهجرة فراراً من سياسته المتشددة معهم فهاجر أحد كبار رجالهم وهو ود بن هشام المخزومي على رأس عشيرته إلى الحبشة واستقرّ في أخصب مناطقها وهي منطقة شوا وأسس دولة بني مخزوم بها(48).

وقامت الفتنة الكبرى على أيام عثمان وتلتها حروب الجمل وعبد الله بن

---

(47) أحمد الشامي «**نظرات في هجرة المسلمين إلى الحبشة**» المؤرخ العربي، العدد 16 بغداد، 1981، ص 100 ـ 105.

(48) Rymond, (S) Etudes sur **L'Islam en Afrique**, Paris, 1946, P. 70.

الزبير وظهور الخوارج واضطهاد آل البيت على أيام الدولتين الأموية والعباسية كل ذلك دفع الأطراف المغلوبة سياسياً وعسكرياً إلى طلب الهجرة إلى الحبشة التي كانت بعيدة عن متناول السلطة الأموية وقد تركزت هذه الهجرة عقب موقعة كربلاء خوفاً من بطش بني أمية[49].

وقد فرّ زعيم العلويين الإمام زيد بن الحسن بن علي ومعه أنصاره فقصدت جماعة منهم شواطىء شرق إفريقيا حيث وسعوا من رقعة أراضيهم بها بفضل ما كان يتوالى عليهم من المهاجرين من شبه الجزيرة إلا أن احتلال الدولة الأموية لجزر دهلك يدلنا على اتجاه موجات أخرى من المهاجرين إلى شرق إفريقيا فوجهت الدولة إليهم الجزء الأكبر من قواتها وجعلت همها أن تراقبهم مراقبة دقيقة.

ثم توالت الأحداث والتي تمثلت في خروج الحجاز على الدولة وقد أمدّ المسلمون القاطنون على الساحل الغربي للبحر الأحمر عبد الله بن الزبير بما يلزمه من مؤن وسلاح حتى استطاع الصمود أمام الدولة الأموية، كما وأن كثرة قيام اليمنيين بالخروج على الحكم الأموي تعبّر أبلغ تعبير على مدى سخطهم وعمّا يلاقونه في ظل هذه الدولة.

كل هذه العوامل مجتمعة دفعت بالكثير من أهل الحجاز واليمن إلى الهجرة حيث كان يهاجر أسلافهم، وكانت هذه الجماعات تقصد الساحل حيث المدن الآهلة بالسكان والمزدحمة بحركة التجارة أو إلى الشريط الصحراوي الذي يلي الساحل، ثم جاء دور الأمويين إذا حلّت بهم الهزائم وقضى العباسيون على دولتهم عام 132 هـ وطاردوهم وفرّ الكثير منهم إلى إفريقيا شمالها وشرقها. ولم يكد العباسيون ينتهون من بني أمية حتى التفتوا إلى الشيعة والخوارج. لقد وجد هؤلاء ملاذاً لهم في شرق إفريقيا فوفد كثير منهم من

(49) عبد المولى الحرير «الإسلام وأثره على التطورات السياسية» ص 106.

سواحل الخليج العربي واليمن إلى شرق إفريقيا في هجرات متتالية وقد هاجرت مجموعة من الخوارج عام 76 هـ ونزلوا في منطقة لامو حيث كان هناك حوالي عشرة الآف مسلم ويؤكد هذا العدد الكبير في ذلك الوقت أن الإسلام قد بدأ بالاستقرار والانتشار في تلك المناطق منذ زمن مبكر[50] وفي النصف الأول من القرن الثاني للهجرة هاجرت مجموعة كبيرة من الزيدية بسبب الخلافات اليت حدثت للشيعة واستقرّت هذه المجموعات في المنطقة التي قامت عليها فيما بعد مدينة مقديشيو.

وفي منتصف القرن الرابع الهجري وصلت هجرة أخرى أكبر من سابقاتها واستقرّت إلى الجنوب منها ويرجع سببها للهجوم الذي قام به المغول ودخولهم شيراز مما اضطر حاكمها إلى الخروج على رأس ألف ومائتي رجل ركبوا البحر نحو ساحل الزنج وتمكنوا من فرض سيطرتهم على الساحل وأسسوا مملكة الزنج التي أخضعت لسلطانها الكثير من المراكز والجزر[51].

وتعتبر هذه الهجرة الأخيرة من الهجرات التي قام بها مسلمون فرس غير عرب، وفي جنوب إفريقيا انتشر الإسلام عن طريق جماعات مهاجرة من أهل الملايو وأندونيسيا وسيلان وشبه القارة الهندية كما استطاع هؤلاء المهاجرون تأسيس مجموعة من الوكالات التجارية في ساحل شرق إفريقيا مثل مقديشيو وماليزي وممبسه وبمباوزنجبار وموزمبيق[52]. كما حدثت هجرات في فترات متأخرة من جزيرة سومطرة والخليج الفارسي حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي[53].

---

(50) أحمد الياس حسين «انتشار الإسلام في شرق إفريقيا» ص 233.

(51) نفس المصدر، ص 234 ـ 235.

(52) شارل أندريه جوليان، **تاريخ إفريقيا**، ت طلعت عوض أباظة، القاهرة، دار النهضة المصرية 1968، ص 77.

(53) عمر طلعت زهران «**الإسلام في مدغشقر**» مجلة الأزهر، المجلد 22 جـ 6، =

أما في غرب إفريقيا فقد لعبت حركة التجارة والهجرة كما رأينا دوراً بارزاً في نشر الإسلام في مناطق جنوب الصحراء وقد تمركزت هذه الهجرات حول بحيرة تشاد والنيجر ثم مالي والسنغال وغيرها وعندما اضمحلت دولة مالي وغيرها من الإمارات الإسلامية في منتصف القرن السادس عشر حمل لواء الدعوة إلى الإسلام ونشره قبائل إفريقية مثل الفولا والبوهان حيث قامت هذه بهجرات جماعية في حوض السنغال مدفوعة بدوافع دينية وسياسية في نفس الوقت بغرض توحيد أرض المسلمين في غرب إفريقيا، وقد توجهت هذه الهجرات نحو الشرق إلى نيجيريا وتشاد وجنوباً إلى غينيا وتمركز نشاط هذه الجماعات في إنشاء دور التعليم وإنشاء المدارس بغية نشر التعليم الديني[54] وتمكنت القبائل المهاجرة إلى غينيا من تأسيس دولة إسلامية على مبدأ الشورى استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر[55].

لقد كانت كل هذه الهجرات وغيرها مورداً لا ينضب معينه من الدماء التي تسري في شرايين حركة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء حيث ساهمت مساهمة فعالة مع غيرها من العوامل في إرساء دعائم هذه الحركة ونجاحها في فترة وجيزة من عمر الزمن.

6 ـ دور الرحالة والجغرافيين المسلمين:

كان للعرب فضل كبير في كشف القارة الإفريقية حيث ارتادوا سواحلها وتوغلوا في صحرائها قبل أن تصل إليها الحملات الكشفية البرتغالية بعدة قرون كما تمكنوا من الوصول إلى غرب هذه القارة ووسطها، وقد قام هؤلاء بإعطاء معلومات كثيرة وقيمة عن مجاهل إفريقيا، صحرائها وغاباتها وجبالها مما شجع

= القاهرة مطبعة الأزهر، 1950، ص 556.

(54) عبد المولى الحرير، ص 113.

(55) نفس المصدر.

المسلمين على ارتيادها ونشر الإسلام في هذه البقاع، كما قام هؤلاء الرحالة أيضاً بإمدادنا بالمعلومات عن هذه المناطق بعد انتشار الإسلام وتشكيل الدول والممالك الإسلامية بها ومدى التقدم والتطور الذي حدث بها نتيجة لانتشار الإسلام والمؤثرات الثقافية والحضارية والعمرانية والاقتصادية التي أحدثها خلال مراحل انتشارها فيها.

ومن أهم الرحالة المسلمين الذين جابوا القارة وكتبوا عنها المسعودي الذي ولد ببغداد وأمضى عشرين عاماً متجولاً ورحالاً حتى وفاته عام 956 م، وقد زار مدغشقر وتوغل في المناطق المحيطة بها وترك لنا وصفاً جيداً في كتاباته عن مناطق السودان الغربي وحركة الاتصال بين أجزائه والصحراء الكبرى عن طريق التجارة وبالذات تجارة الذهب(56).

أما الرحالة الثاني فهو أبو القاسم محمد بن حوقل الذي ظهر في القرن العاشر الميلادي حيث قام بداية من عام 977 بعدة رحالات إلى آسيا والأندلس ثم بعد ذلك توجه إلى القارة الإفريقية من الشرق إلى الغرب وقدم لنا معلومات قيمة عن بلاد الحبشة والبجة وسكانهما كما كتب وصفاً عن سكان زيلع والنيل الأبيض وأرض الزنج، كما زار النيجر واعتقد أنها امتداد لوادي النيل، وفي وصفه أعطانا صورة عن المعادن المستغلة والنواحي الطبوغرافية للأماكن والأراضي التي مرّ بها كما رسم خرائط لهما، وقد ذكر أن أهالي زيلع كانوا يدينون بالمسيحية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وكان يرجع ذلك إلى أنهم كانوا تحت سيطرة الحبشة ثم تحول أهلها إلى الإسلام في القرن الثاني عشر وألف ما يشبه رابطة إسلامية قوية ضمت إمراء أوفات وهاديا وداوود، كما وصف لنا الطريق الذي قطعه من الفسطاط إلى الإسكندرية ووصف لنا أيضاً بلاد المغرب والسودان الغربي(57).

---

(56) شوقي الجمل، **تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها**، ص 48.

(57) عبد الرحمن زكي ص 46.

ويعتبر أبو عبيدالله البكري (1028 ـ 1094) من الرحالة المسلمين الذين لعبوا دوراً بارزاً في هذا المجال وهو من عائلة عربية كانت تعيش بأسبانيا وبالتحديد من قرطبة، وكتب عدداً من المجلدات باسم المسالك والممالك معتمداً على ما توفر من وثائق الأرشيف الرسمي بقرطبة حيث أمدنا بمعلومات عن بلاد المغرب والسودان، ويذكر أن تجارة القوافل التي كانت تسير من طرابلس في اتجاه المناطق الإفريقية عبر مدينة جادو وكان أهلها يجيدون التحدث باللغة الكانمية إلى جانب اللغة العربية(58). ويذكر لنا في كتابه «المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب» وهو جزء من كتابه الكبير «المسالك والممالك» أنه حدث قحط في عام من الأعوام في بلاد غانا وقد حدث لهم الفرج نتيجة دخول ملكهم الإسلام، بناء على نصيحة داعية مسلم زار بلادهم وتبعته بقية عائلته وقبيلته والقبائل الأخرى(59) أما الجغرافي محمد بن عبدالله بن إدريس المعروف بالإدريسي فهو رحالة عربي من عائلة عربية بالأندلس هاجرت لشمال إفريقيا وقد ولد الإدريسي بمدينة ستبه سنة 1100 م ودخل في خدمة ملك صقلية روجر الثاني وكان مغرماً بالترحال طيلة حياته، ترحل إلى إفريقيا عدة مرات حيث كلفه الملك روجر بجمع المعلومات الجغرافية والعلمية عن هذه المناطق وقد ألّف لنا كتابين هامين هما «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وكتاب «المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» قدم فيهما وصفاً شيقاً لهذه المناطق ودروبها استفاد منه المسلمون فيما بعد عند ترددهم لنشر الإسلام بها(60).

أما الرحالة محمد بن أحمد بن جبير فرغم أنه قد قام بثلاث رحلات ما

(58) محمد المبروك يونس، **تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الإفريقية**، 1952، 1977، ط 1، طرابلس 1988، ص 21.

(59) أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، بغداد، مكتبة المثنى د. ت. ص 178.

(60) شوقي الجمل، ص 49.

بين أعوام 1182 ـ 1185 إلى مناطق مصر وساحل البحر الأحمر والحجاز وقوص وعيزاب إلا أنه لم يتوغل داخل القارة ولكنه قدم لنا وصفاً شيقاً للطرق الموصلة إليها، كذلك فعل أيضاً الرحالة العربي ابن فضل الله العمري فهو لم يزر إفريقيا ولكنه استفاد ممن سبقوه وأعدّ دراسات جادة ضمنها لنا في كتابه الضخم «مسالك الأبصار في الممالك والأمصار»(61).

أما عبدالله محمد بن بطوطة (1304 ـ 1377 م) فهو من أشهر الرحالة السملمين حيث ولد في طنجة وطاف معظم بقاع العالم القديم في عهده وله ثلاث رحلات هامة في الفترة (1325 ـ 1354) ففي الرحلة الأولى زار تلمسان وسوسة والإسكندرية وقوص ووصل إلى سواكن ومنها أبحر إلى اليمن ثم عاد إلى شمال إفريقيا الشرقي فوصل إلى زيلع ويقول عنها: «أن سكانها طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقديشيو وهي مدينة كبيرة لها سوط عطمه(62) وزار مقديشيو وذكر أن أهلها يحترمون الدين والحجاج حيث قال أنه عندما أتى من الحج إلى مقديشيو استقبل بحفاوة بالغة من قبل سلطانها حيث مكث في ضيافته عدة أيام، كما زار بعد ذلك كلوه وغيرها من بلاد شرق إفريقيا وتحدث عما رآه من مظاهر الحضارة في هذه الجهات(63). أما رحلته الثالثة فقد كانت في غرب أفويفيا فقد أبحر من الأندلس إلى مراكش وسافر إلى مكناس وفاس وتابع رحلته إلى السودان الغربي فوصل إلى سجلماسة ثم زار بعض السلطنات التابعة لملك مالي ووصل إلى تمبكتو واتجه شرقاً حيث زار تاكدا أكبر مدن الطوارق وأخيراً رجع إلى فاس بعد أن دوّن انطباعاته وملاحظاته حول هذه المناطق الهامة.

(61) نفس المصدر.

(62) محمد بن عبدالله بن محمد بن بطوطه، **رحلة ابن بطوطة**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1966، ص 158.

(63) نفس المصدر، ص 170.

أما حسن الوزان الملقب بليون الإفريقي فقد ولد في غرناطة عام 1493 وقد غادر والداه وهما من المغرب غرناطة إلى فاس وكانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فوجد مجالاً مناسباً للاطلاع والثقافة وأظهر ذكاءاً خارقاً وعمل في عدّة وظائف وبدأ رحلاته صحبة التجار وقد أعطته هذه الرحلات معرفة واسعة بالبلاد الإفريقية التي زارها وأمدنا بمعلومات قيّمة عن دواخل إفريقيا لم تكن معروفة من قبل، وزار تمبكتو ووصفها وصفاً شيقاً وقد كانت في ذلك الوقت في قمة مجدها ثم زار مملكة مالي وكانت في حالة سيئة بسبب الحروب الدائرة فيها وزار بلاد الهوسا وبورنو وأمدنا بمعلومات قيمة عن إفريقيا(64) وبعد هذه الفترة ظهر عبد الرحمن السعدي (1596 ـ 1655) وهو من أسرة سودانية ولد في تمبكتو وعين إماماً في جنى وكانت في ذلك الوقت من مراكز العلم ثم سافر بعد ذلك إلى تمبكتو وشغل فيها عدّة وظائف مدنية وحكومية وألّف كتابه المشهور «تاريخ السودان» حيث تحدث فيه عن الدول التي قامت في السودان الغربي وأمدنا بمعلومات قيمة لا غنى للباحث في تاريخ هذه المناطق من الرجوع إليها وإلى مثيلاتها.

ب ـ العوامل الخارجية الصرفة:

يقصد بها تلك العوامل التي لا علاقة لها بالإسلام كدين من خلال خصائصه وسماته ولكنها عوامل مادية وطبيعية لعبت دوراً رئيسياً زهاماً في تسهيل حركة انتشار الإسلام وكانت عاملاً مساعداً في هذا المجال، وهذا العامل الخارجي يتمثل في عنصرين رئيسيين هما الموقع والمناخ.

وبالنسبة للموقع فإن القارة الإفريقية تقع وسط قارات العالم مما جعلها تتميز عن القارات الأخرى بسهولة الاتصال بها، كما أنها تمثل أكبر قارات العالم القديم بعد قارة آسيا كما أنها تمثل خمس يابس الكرة الأرضية ويخترقها

(64) Jaque (P) Les voyages en Afrique, Paris, Matin, 1923, P 64.

خط الاستواء مما جعل التوازن قائماً بين فصول السنة فيها، كما أن القارة تمتاز بوجود البحار التي تحيط بها كذلك وجود الأنهار فيها بكثرة حيث يوجد بها أطول نهرين على سطح الكرة الأرضية هما نهر النيل ونهر النيجر اللذان يمثلان طريقين رئيسيين توصلان إلى البحار والمحيطات المحيطة بالقارة والنهر الأول يبلغ طوله (6640 كم) لهذا يعتبر أطول أنهار العالم، يليه النهر الثاني الذي ينبع من مرتفعات Loma Mountain في غرب إفريقيا ويمر عبر ست دول[65].

ومن الظواهر الطبيعية المميزة أيضاً لهذه القارة وجود الصحراء الكبرى التي تفصل بين شمالها وجنوبها وتعد أكبر صحراء في العالم لاحتلالها مساحة تقدر بـ 5،5 مليون كم^2 وتمتد من البحر الأحمر في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب[66] وهذه الصحراء المترامية الأطراف والمتميزة بكثرة وتحرك رمالها والتي تربط بين طرفي القارة الشمالي والجنوبي قد يبدو للوهلة الأولى أنها تشكل عقبة أو مانعاً يحول دون حركة الاتصال بين هذه الأجزاء. ولكن المتتبع لتاريخ وحركة الاتصال بهذه المنطقة يلاحظ أنه على العكس فإن هذه الصحراء كانت ولا تزال عامل وصل ولم تكن عائقاً كما يقول كاني وهو أحد المتخصصين في هذا المجال إذ يقول: «. . . أما ما يقال من أن الصحراء شكلّت حاجزاً ضخماً يفصل بين ما يسمى بإفريقيا جنوب الصحراء وشمالها فهو الآن غير مقبول وقد دحضته عدّة أبحاث أصيلة. . . إن دماء هؤلاء الذين جاءوا من الصحراء أو من الأراضي الممتدة إلى شمالها ما زالت تجري في عروق بعض شعوب السودان، كذلك فإن دماء السودانيين قد تركت آثارها في أهل المدن في المغرب[67].

(65) محمود عبدالله نجم «إفريقيا والاستعمار» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني 1989، طرابلس، مركز الجهاد، ص 140.

(66) نفس المصدر.

(67) كاتي د. أ. م «مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط =

إن هذه الصحراء كان لها في العصر الوسيط دور كبير ومباشر في عمليات التبادل التجاري بين الأقطار المتاخمة لها شمالاً وجنوباً وفي تغطية الأسواق الإفريقية والعالمية بما تحتاج له من المنتجات، وهذا الاتصال والتفاعل بين الصحراء والأقطار المتاخمة لها يعود إلى عهود سحيقة أي إلى مرحلة ما قبل التاريخ[68].

لقد شكلّت القارة الإفريقية بأجزائها المختلفة وحدّة سياسية واحدة ولا توجد بينها عوائق وموانع طبيعية قاسية تمنع وتعيق حركة الاتصال فيما بينها فالحدود السياسية الموجودة الآن هي ظاهرة سياسية حديثة أملتها الأطماع والمصالح الاستعمارية ولم تكن معروفة في إفريقيا من قبل، وقد ظهرت بعد مؤتمر برلين 1884، الذي أقرّ مبدأ استعماري خطير حيث أخذت الدول الاستعمارية تتسابق حول هذه القارة التي أصبحت كرقعة الشطرنج أينما تصل قوات أو نفوذ أي دولة استعمارية من هذه الدول إلى أية منطقة أو رقعة جغرافية فإنها ترفع فوقها راياتها وتصبح منطقة حدود ونفوذ لها. وهكذا قسمت القارة وشرد سكانها وتقطعت أوصال القبيلة الواحدة والأسرة الواحدة وبعد أن كان الأفارقة يتجولون في ربوع قارتهم في سهولة ويسر أقيمت أمامهم الحواجز والبوابات والعراقيل المختلفة، وهذا الأمر لم يكن موجوداً في مرحلة ما قبل انتشار الإسلام أو خلال مرحلة انتشاره وإقامة الدول والممالك الإسلامية حيث كانت القارة تمثل وحدة سياسية واجتماعية واحدة ومتميزة لا يوجد بينهما فرق واضح سواء في مظاهر سطح الأرض أو في معالم السكان. فالصحراء كما ذكرنا

السودان» مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، مركز الجهاد، طرابلس، ص 10.

(68) إبراهيم حركات «**دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، مركز الجهاد، ص 27.

تربط ليبيا بجنوب القارة وكذلك الأراضي الصحراوية التي تمتد على جانبي النيل سواء في الشرق أو الغرب لا نجد فرقاً ملموساً لا في سطح الأرض ولا في معالم السكان(69) وهذا النيل الذي يجري من قلب القارة الاستوائي نحو البحر المتوسط عبر المناطق المدارية وحشائش السافانا والصحراء فإنه يجري بالماء والخصب من الجنوب أيضاً وبذلك تكوّنت منذ عصور ما قبل التاريخ مراكز للحضارة البشرية في وادي النيل(70).

كما أنه من الظواهر الطبيعية التي تنفرد بها القارة وجود ما يسمى بالأخدود الإفريقي العظيم الذي يمتد على طول البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب وأن أجزاء كثيرة منه امتلأت بالمياه وتمثل الآن أوسع وأعمق بحيرات العالم منها بحيرة فكتوريا وتانا وتانجانيقا ويناسا حيث تلعب هذه البحيرات الغنية دوراً بارزاً في حياة مكان القارة اقتصادياً وتمثل وسيلة مواصلات جيدة بين دول إفريقيا(71).

لقد ارتاد الأفارقة سواء أولئك القاطنين في جنوب الصحراء أو في الشمال قارتهم في سهولة ويسر ولم تقف الصحراء الكبرى عائقاً دون خلق الروابط والصلات المتعددة بل كانت طرق ومسالك ومنافذ ما وراء الصحراء ـ والتي سنتحدث عنها بعد قليل ـ من العوامل الهامة التي ساعدت في تطور العلاقات وتقويتها بين مناطق المغرب العربي ومناطق ما وراء الصحراء وقد ساعد ذلك على دخول الإسلام إلى مناطق غرب إفريقيا ووسطها حيث توسّعت قاعدة انتشاره بعد استيلاء المرابطين على غانا عام 1076 وترتب على هذا المد القادم

---

(69) عطية مخزوم الفيتوري، «فرنسا ومشكلة الحدود الليبية» مجله البحوث التاريخية العدد الثاني، يوليو 1989، طرابلس، مركز الجهاد، ص 161.

(70) محمد السيد غلاب، **الوطن العربي والاتصالات العالمية**، المجلة، العدد 67، القاهرة 1962، ص 21.

(71) محمود نجم، 140.

من الشمال والشمال الشرقي قيام ممالك إفريقية ذات شأن في المجالين الحضاري والإنساني نتيجة اعتناقها الإسلام(72).

إن الجبال والوديان والسهول المختلفة التي تربط بين أجزاء القارة قد سهلّت عملية الاتصال بين أطرافها وبالتالي كانت عاملاً مساعداً في عوامل نشر الإسلام والدليل على ذلك هو حركة التجارة القائمة بين هذه الأجزاء منذ أقدم العصور فكان سكان المشرق الإسلامي والمغرب العربي كما ذكرنا يجولون هذه المناطق في سهولة ويسر لقربها عنهم أولاً ثم لملائمة طبيعتها ومناخها لتحركاتهم لأنهم يعيشون نفس الظروف والمناخ، فكانوا يتحركون في سهولة دون أن تعترضهم عوائق أو عراقيل وحركة الاتصال هذه حركة قديمة وليس كما يدعي بعض المؤرخين الغربيين بأنهم هم الذين اكتشفوا واتصلوا بالقارة وتجاهلوا دور العرب والمسلمين الذي سبقهم إليها بعدّة قرون.

لقد ساعد على هذا الاتصال عاملين رئيسين هما وسيلة المواصلات والطقس أو المناخ، حيث لعب الجمل دوراً بارزاً في عملية الاتصال بفضل ما تميز به من سمّات وخصائص منها كما نعرف الصبر على تحمل المشاق والصعوبات وقطع المسافات دون كلل أو ملل والصبر على العطش وقوته البدنية على تحمل مثل هذا العمل بطبيعته القاسية المتمثلة في حمل الأمتعة الثقيلة والسير على الرمال لمسافات طويلة وهذه خاصية انفرد بها الجمل دون غيره من سائر الحيوانات حيث قال تعالى ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وقد انفرد المسلمين دون غيرهم باستعمال هذه الآداة في إتصالهم وتواصلهم فالسودان الغربي اتصل ببلاد المغرب الإسلامي عن طريق الجمل كما استعمله سكان شمال إفريقيا وأصبح وسيلتهم الوحيدة لعبور رمال الصحراء وبواسطته أصبحوا يتدفقون إلى نطاق السافانا جنوب الصحراء واختلطوا بالعنصر الإفريقي وكونوا ما يسمى بأنصاف الحاميين أو السودانيين الغربيين وزاد هذا الاختلاط

(72) محمد المبروك يونس، ص 16.

بعد أن دخل العرب إفريقيا عن طريق برزخ السويس.

أما العامل الثاني وهو المناخ فلا شك أن الطقس يلعب دوراً هاماً في التأثير على الأحداث وتطورها، ويكون في غالب الأحيان إما عاملاً مساعداً لهذه الأحداث أو معرقلاً لها وبخصوص انتشار الإسلام فقد لعب هذا العامل دوراً هاماً في هذا الجانب وكان عاملاً مساعداً حيث أن مناخ القارة الإفريقية بأجزائها المختلفة يكاد يكون مناخاً متشابهاً خاصة في المناطق الجنوبية التي يغلب عليها المناخ الصحراوي وقد ألف سكان القارة هذا المناخ واعتاد عليه أولئك الذين تولوا مهمة نشر الإسلام من التجار والدعاة حيث عاشوا نفس الطقس في مناطقهم الأصلية وهو المناخ الصحراوي بشبه الجزيرة العربية واليمن والصحراء الليبية والجزائرية.

ولقد ساعد العامل المناخي على دعم وتطوير العلاقة بين سكان شرق إفريقيا والعرب والمهاجرين إليها، إذ لعب هبوب الرياح من مواطن المسلمين في فصل الشتاء نحو شرق إفريقيا والعكس في فصل الربيع دوراً أساسياً في تطوير هذه العلاقات. ففي ديسمبر من كل عام تهب هذه الرياح متجهة إلى الشمال الشرقي وتظلّ تهب حتى آخر فبراير ثم يتكرر هبوب الرياح مرة أخرى من إبريل إلى سبتمبر في اتجاه مضاد نحو الجنوب الغربي حيث تحمل أهل زنجبار إلى سواحل الهند ثم تحمل أهل الهند إلى سواحل زنجبار عن طريق ساحل جزيرة العرب الجنوبي ومضيق عدن، والتجار والرحالة وغيرهم الذين يركبون سفنهم الصغيرة من ساحل العرب أو الخليج الفارسي في الشتاء يتأكدون أن رياح هذا الفصل تحملهم إلى ساحل القارة الإفريقية وبعد أن يقضوا بضعة أشهر تحملهم الرياح إلى أوطانهم مرة أخرى[73].

أما التجار الذين يجرون بسفنهم الشراعية من الشاطىء العربي في الشتاء

---

(73) حسن إبراهيم حسن، ص 26.

فإنهم يستعينون بقوة الرياح المساعدة في سفرهم جنوباً صوب الساحل الإفريقي، بينما في أثناء عودتهم لأوطانهم في الربيع يجدون أيضاً الرياح مؤاتية للاتجاه صوب الوطن الأصلي لهم وبمضي الزمن أصبح للتجار المسلمين خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها وأصبحت رحالاتهم من شبه الجزيرة إلى الساحل الإفريقي ومدة استقرارهم بهذا الساحل تنظم تنظيماً دقيقاً طبقاً لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لديهم(74).

وهكذا فإن الفئات المتعددة التي كانت آداة لنشر الإسلام في هذه المناطق والتي سبق الإشارة إليها والذين جاءوا من مناطقهم المختلفة إلى إفريقيا جنوب الصحراء كانوا في حقيقة الأمر ينتقلون بين أطرافها دون معاناة من قسوة الطقس وتقلباته حيث أن البيئة الجغرافية الإفريقية بيئة واحدة متشابهة، وبقدر ما كان هذا العامل قد ساعد إلى حد كبير على نشر الإسلام وتسهيل وصوله إلى القارة فإنه على العكس من ذلك كان عاملاً معرقلاً لحركات التبشير والتنصير التي حاولت الدول الأوربية الاستعمارية نشرها فيها، فعندما بدأ الأوربيون أو ما يعرف بالرجل الأبيض يأخذ طريقه صوب القارة في نهاية القرن الخامس عشر لغرض اكتشافها والتمهيد لغزوها والاستيلاء عليها واجه هؤلاء صعوبات جمة في هذا الجانب حيث أنهم يعيشون مناخاً وبيئة يختلفان كل الاختلاف عن البيئة التي وفدوا إليها والدراسات المتعددة حول الرحالة والرحلات هذه توضح لنا عمق المعاناة التي يعانيها هؤلاء فكان الكثيرون منهم يلقون حتفهم في أعماق الصحراء لأنه لم يكن في مقدورهم مواجهة مصاعبها وتقلباتها(75) حتى أن كثيراً من الدول الأوربية كفرنسا وإنجلترا وهولندا وغيرها حاولت دراسة هذه المشكلة ووضع علاج لها وبالفعل وضعت برنامجاً لهذا الغرض يقوم على محاولة إقامة

(74) شوقي الجمل، ص 37.

(75) فريال قاسم حميد، **الرحلات الاسكتشافية الإنجليزية في ليبيا**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي، 19، ص 22.

محطات تكييف لمواطنيها الذين سترسلهم إلى إفريقيا جنوب الصحراء حتى يستطيعوا تدريجاً أن يتأقلموا مع المناخ الجديد، فكانت هذه المحطات تقام أولاً في الجنوب الأوربي مثل مرسيليا وخبوا وإشبيلية وصقلية وغيرها وهي مناطق تسطع عليها الشمس أكثر من المناطق الشمالية ثم بعد ذلك يتم نقلهم إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط كسواحل الشمال الإفريقي أو مصر أو مناطق المشرق العربي حيث يقيمون فيها درحاً من الزمن حيث يتم بعد ذلك نقلهم إلى جنوب هذه المناطق كالجنوب الليبي بغات وغدامس وفزان ومرزق وجنوب الجزائر أو غيرها، حيث يمضوا فيها وقتاً زمنياً لا لشيء إلاّ لكي يعتادوا ويألفوا المناخ الحار والصحراوي ليتم بعد ذلك نقلهم إلى المناطق المقصودة وكانت هذه العملية تستغرق وقتاً وجهداً كبيراً(76).

وهكذا يتضح لنا أن العوامل الجغرافية سهلت إلى حد كبير التواصل بين أبناء القارة الواحدة أو القريبين منها وكانت في الوقت ذاته عاملاً معرقلاً بالنسبة للمناطق القابعة فيما وراء البحار والمحيطات والبعيدة عنها.

إن القرب الجغرافي بين الفئات التي وقع على عاتقها نشر الإسلام وبين المناطق الإفريقية المتعددة قد عدّد الطرق والمسالك التي لجأ إليها هؤلاء واستعملوها في هذا المجال وهنا لا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة على أهم ههذ المنافذ التي سلكها الإسلام في تغلغله إليها.

إن إلقاء نظرة سريعة على أعداد الدول الإفريقية التي دخل إليها الإسلام وعدد المسلمين بها يوضح أن انتشاره بها جاء عن طريق نطاق الغابات في غرب إفريقيا كما انتشر على طول الساحل الغربي لها في مناطق الكونغو كذلك الحال بالنسبة لتسربه عن طريق شرق القارة ومن هذه المناطق تمكن الإسلام من التغلل إلى جنوب السودان وهضبة البحيرات الإفريقية وقلب الهضبة الحبشية وتخطى

(76) Jean Martin, **L'Afrique Aclidantal,** Pous, 1970, P. 102.

ساحل شرق إفريقيا إلى المناطق الداخلية خاصة كينيا وتنجانيقا، وأهم الطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقيا هي:

أولاً: طريق شمال إفريقيا مجتازاً مصر، برقة، طرابلس، تونس، المغرب الأوسط، بلاد السوس الأقصى إلى مصب نهر السنغال، وبعد نمو البحرية الإسلامية اشترك معها طريق بحري من مرافىء الشام ومصر إلى مرافىء المغرب الأقصى.

ثانياً: طريق القوافل من طرابلس وبلاد المغرب بقسميها الأوسط والأقصى إلى شمال السودان وخاصة الطريق الذي يبدأ من جنوب تونس إلى بلاد برنو غربي بحيرة تشاد ومن جنوب الجزائر إلى بلاد الهوسا شمالي نيجيريا ومن جنوب مراكش إلى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر.

ثالثاً: المسالك الصحراوية عبر مصر المارة بأسيوط وواحات الصحراء الغربية ودارفور إلى أوسط السودان وغرب إفريقيا.

رابعاً: طريق وادي النيل عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة وشمال السودان.

خامساً: الطرق البحرية عبر مياه البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي إلى ساحل إفريقيا الشرقي ومنه إلى قلب القارة(77).

وقد نشطت حركة القوافل التجارية بليبيا عبر شبكة الطرق الداخلية التي تتصل بعضها بمناطق السودان جنوباً، وقد شهدت هذه الطرق نمواً واسعاً منها:

1 ـ طريق نفوسه ـ زويله الذي يبدأ من جادوا.

2 ـ طريق زويله ـ سبها إلى فزان.

---

(77) عبد الرحمن زكي، ص 45، ص 46، وانظر أيضاً عبد المولى الحرير، ص 99.

3 ـ طريق طرابلس ـ ودان وهو أكثر الطرق استعمالاً.
4 ـ طريق فزان الممتد إلى بلما وكانم وتشاد.
5 ـ طريق غدامس ـ تادقله.

وهناك طريق يربط تادمكه بالقيروان عبر وارغله وقسطيلية، وقد سمح النشاط التجاري الذي عرفته تمبكتو منذ القرن الثامن الهجري بتقوية هذا المركز وغيره من المراكز الصحراوية الأخرى كتوات وتكدا وكاوكاو وكلمباسة وغدامس[78].

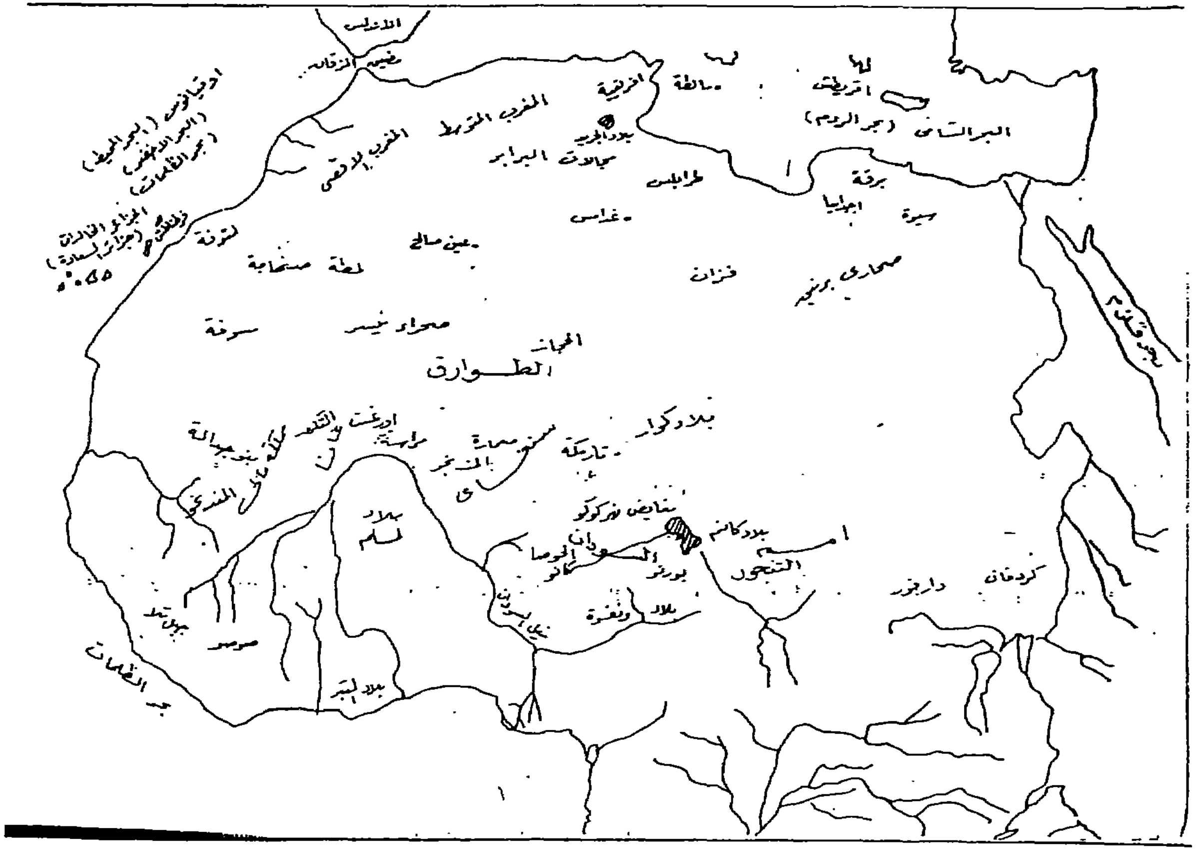
وقد كانت كاوكاو ـ جادوا التي تقع في مالي حالياً قد ساهمت مساهمة فعالة في الاتصالات التجارية بين شمالي إفريقيا وغربها منذ أواسط القرن الثاني الهجري (أواخر القرن الثامن الميلادي) ويذكر أن هناك تجاراً من مناطق وارجلا Wangala والجريد Jarid وجبل نفوسه كانوا يسافرون إلى تادمكه التي دخلت الإسلام في النصف الأول من القرن السادس الهجري وكانت رحلاتهم هذه قد حدثت إبان القرنين الرابع والخامس الهجريين[79].

وأهم الطرق البرية التي كانت تتصل بتمبكتو هي:

1 ـ الطرق من مصر ماراً بكانم إلى تمبكتو.
2 ـ الطرق من تونس ماراً بهجار إلى تمبكتو.
3 ـ الطرق من المغرب الأقصى ماراً بهجار إلى تمبكتو.
4 ـ الطريق من تغاره ماراً بولاته إلى تمبكتو[80].

---

(78) إبراهيم حركات، ص 39.
(79) باولو فرناندو، «نظام تجارة تادمكة وجاو كاو وكوكبا في إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على امتداد طرق التجارة عبر الصحراء» **مجلة البحوث التاريخية**، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، مركز الجهاد، ص 40.
(80) .إبراهيم طرخان، **إمبراطورية البرنو الإسلامية**، القاهرة 1963، ص 75.



خريطة بلاد السودان واضحة نقلاً من الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى رقم الخريطة (13).

وقد كان بإفريقيا مسالك أخرى عديدة عرفها التجار والرحالة العرب منذ أمد بعيد تربط بين أجزاء القارة المختلفة وقد استعملها هؤلاء الرحالة ووصفوها بدقة وأوضحوا أهم المراكز التجارية التي تقع عليها والمراحل المختلفة بين كل مركز تجاري وآخر أو بين كل طريقٍ للقوافل ونظيره الآخر، ومنهم من قدّر هذه المسافات بالأميال كابن خرداذبه ومنهم من قدرها بالمراحل أو بأيام السير من نقطة إلى أخرى كالبكري ولذلك سميت كثير من كتب هؤلاء الراحالة «المسالك والممالك» وقد وصف البكري في كتابه هذا الطرق وعددها مبيناً عدد المراحل بها ذاكراً أهم ما يقع عليها من مدن وأسواق وأهم ما يعرض بالأسواق من سلع[81].

إن هذه المسالك والدروب لم يكن من السهل ظهورها لولا العوامل الجغرافية التي لعبت دوراً بارزاً من خلال القرب والترابط المكاني بين أقطار القارة ووجود الصحراء كحلقة وصل بينها بالإضافة إلى المناخ المشترك الذي دأب عليه وعايشه ملايين الأفارقة الذين ينتمون إلى هذه الرقعة الجغرافية الهامة.

ثالثاً: العوامل المتعلقة بالقارة ذاتها:

تعتبر العوامل الجغرافية بشقيها الموقع والمناخ والتي سبق الحديث عنها بطبيعة الحال عاملاً رئيسياً خارجياً من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام وهي تتعلق بالقارة ككل، شمالها وجنوبها ولكن إضافة إلى ذلك هناك عوامل خارجية أخرى تتعلق بجنوب الصحراء لعبت دوراً رئيسياً ومكملاً للأدوار السابقة في حركة الانتشار هذه وهي ظروف القارة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية قبل مجيء الإسلام ونحن بطبيعة الحال لن نتحدث عن هذه السمّات بالتفصيل لأن ذلك خارج عن نطاق دراستنا ثم لأننا سنفرد فصلاً خاصاً عن مؤثرات الإسلام في القارة سنتعرض فيه لهذه الأمور بشيء من

(81) البكري، ص 163.

التفصيل، كما أن هذه السمات هي بطبيعتها متداخلة وكلاها يؤثر في الآخر تأثيراً مباشراً لذا فإننا هنا سنحاول أن نستخلص تأثيراتها بصورة عامة على القارة وبالتالي دورها في تسهيل حركة انتشار الإسلام.

إن الظروف السياسية والدينية والثقافية وكذلك الاقتصادية التي كانت عليها إفريقيا قبل الإسلام أعطت لهذه المنطقة سمّة خاصة شبيهة إلى تلك التي كانت عليها مناطق شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام حيث كانت هذه المناطق ككل تعيش حياة الجاهلية بكل أشكالها وأبعادها فعاشت إفريقيا أيضاً عصراً متخلفاً مخالفاً تماماً لكل ما جاء به الإسلام فيما بعد، حيث كان المجتمع الإفريقي مجتمعاً وثنياً يعيش في جهل وتخلّف حيث وجدت العداوة والبغضاء طريقهما إلى الشعوب الإفريقية، إن هذه الديانة الوثنية بكل ما تحمله من تأخر وفساد لا نستطيع مطلقاً مقارنتها بالإسلام وتعاليمه، وكان من الطبيعي عند وصول الإسلام إلى هذه المناطق التي تعيش حياة مضطربة حيث ينتشر الجهل والفساد أن يكون البون شاسعاً والفرق واضحاً بين هذه الوضع وبين المتغيرات الجديدة التي جاء بها الإسلام، لقد وجدت هذه الشعوب في الدين الإسلامي المخرج الوحيد من هذه الأوضاع لأنه دين الحق والسماحة والمساواة والأخاء والحرية، هذا الدين هو خير ما يلائم طبيعة الإفريقيين البسيطة وروحهم المتقشفة المتواضعة المطالب وتعطشهم إلى عبادة صحيحة وواضحة يبتهلون فيها إلى إلّه واحد يعبد حيث وجد دون بدع وطقوس وتفسيرات غامضة وهذا ما كان في الوثنية التي يصعب على الإفريقي أن يدرك حقيقتها، والطبيعة في ديارهم هي مبعث الحياة وانطلاق النفس تدفع بهم نحو الإسلام، وهذه الطبيعة هي مأوى الإفريقي ومرشده، وكانت حضارة الإسلام خير حضارة تنظم مجتمعهم في الإطار الذي يعيشون فيه[82].

---

(82) أحمد سويلم العمري، **الإفريقيون والعرب**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967، ص 63.

وفي هذا الصدد يقول شارل أندريه جوليان: «كانت القبائل الإفريقية متعطشة إلى عبادة حقّة يبتهلون فيها إلى إلّه واحد، والطبيعة في إفريقيا تدفع بالإنسان إلى اعتناق الإسلام لأنه حر»[83].

لقد أدرك الإفريقي بعد وصول الإسلام إليه وبكل بساطة ودون عناء التفكير والجهد هذا الفرق بين الوثنية والإسلام ونحن لسنا بصدد عقد مقارنة فهذا الموضوع غير قابل أصلاً للمقارنة لأنه يجب مقارنة الأشياء القابلة للمقارنة التي يحمل كلاهما بعض السمّات والخصائص المتشابهة والإسلام والوثنية كلاهما على طرفي نقيض، فالإسلام أكبر بكثير من أن نقارنه بديانة قائمة على الخرافات والبدع وهي من صنع البشر ولكننا سنحاول تتبع ومعرفة الدور الذي لعبته هذه الديانة دون إرادتها في خدمة الإسلام وتسهيل حركة انتشاره فالأفارقة بصورة عامة الذين كانوا يعيشون حياة الوثنية بكل أشكالها وأبعادها انبهروا جميعاً بالتعاليم والمبادىء والقواعد والأخلاقيات الجديدة في التعامل التي جاء بها الإسلام كذلك مبدأ التوحيد القائم على وحدانية الله والنظرة إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق وكان من الطبيعي جداً ـ وكما سبق وأن أشرنا في حديثنا عن العوامل الذاتية ـ أن ينكّب هؤلاء دون تردد على الإسلام والدخول فيه والدعوة إليه فالبيئة الإفريقية كانت بيئة صالحة لكي تنبت فيها بسهولة ويسر بذور الدعوة الإسلامية التي ألقى بها في البداية التجار والدعاة على الأرض الإفريقية حيث سرعان ما نمت وترعرعت وأتت أكلها حيث أغلب الأفارقة يسارعون إلى الدخول في الإسلام رويداً رويداً بعد أن تمكنوا من استيعاب تعاليمه وتفقهوا في القرآن والسنة أصبحوا هم أنفسهم من رواد حركة انتشاره والداعين إليه وبذلك انتقل الإسلام إلى مرحلة أخرى هامة ميزته عن غيره إذ أصبح ينتشر على أيدي إفريقية وأنه لم يكن قط ديناً خارجياً مفروضاً عليهم بقوة السلاح والإكراه بل هو ديناً يتلائم وطبيعتهم قائماً على أسس ومبادىء هي أقرب إلى نفوسهم وعقولهم من أية تعاليم أخرى.

(83) شارل أندريه جوليان، ص 79.

كذلك أصبح الإسلام يتمتع بخاصية وسمّة أخرى لم تكن تتوفر لغيره حيث أنه بعد أن تغلغل في مناطق إفريقيا احتضنه دعاتها ومصلحيها وأمرائها وملوكها ورؤساء عشائرها وقبائلها وغيرهم من الذين يتمتعون بمراكز سياسية واجتماعية مميزة في المناطق الإفريقية المتعددة، هذه الشخصيات الهامة أمثال منسى موسى، والشيخ عثمان دان فوديو، وعمر التكروري، ومحمد الأمين، وعمر تال، والشيخ المختار الكنتبي، ومحمد الكانمي، وأحمد لولو وأحمد بن إبراهيم وغيرهم اعتنقوا الإسلام بقناعة مطلقة فأخذوا على عاتقهم نشره والدفاع عنه وهذه سمّة خاصة أخرى من سمّات الإسلام التي توفرت له دون غيره، فهذه الشخصيات كانت غالبيتها تجمع ما بين السياسية كسلطة وحكم وبين الاتجاهات الدينية كدعاة يعملون على نشر الإسلام فاجتماع هاتين السلطتين في يد واحدة قد سهلت بطبيعة الحال من حركة الانتشار لأنه عندما آمنت هذه الطبقة الحاكمة بالإسلام واعتنقته كانت ترى بأنه لزاماً على شعوبهم أن تتبعهم فانتشر الإسلام انتشاراً سريعاً وتشكلت الممالك الإسلامية المتعددة[84]، تلك الممالك التي لعبت بدون شك دوراً هاماً في ترسيخ وجود الإسلام بهذه القارة حيث تحولت غالبيتها بالفعل إلى مناطق إسلامية.

وفي هذه العجالة سنحاول أن نتطرق إلى الدور الذي قامت به بعض هذه الزعامات أو الشخصيات الإفريقية متحاشياً الدخول في التفصيلات والجزئيات لأننا سنقوم بذلك عند حديثنا عن الممالك الإسلامية ودور هذه الشخصيات فيها فيما بعد.

إن دخول الإسلام المبكر إلى مملكتي غانا ومالي قد تبلور في شكله النهائي كما سنرى عند حديثنا عن هاتين المملكتين كان بفضل ظهور زعامات إسلامية منها بر منران وسونجاتا وسنديانا وآل منسى وغيرهم، فكانت هذه الزعامات ذات تأثير قوي وفعال في خدمة الإسلام وأكثر نجاحاً في هذا المجال

---

(84) أحمد شلبي ص 334.

منذ القرن الثالث عشر إذ أصبح الإسلام يظهر في هذه المجتمعات بصورة ثقافية وقومية وفكر إفريقي وأصبح الدخول فيه يعني الانضواء تحت رايات يحملها زعماء من الداخل ويعني أيضاً الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي سليم. لقد لعبت هذه الشخصيات وغيرها في مرحلة الانتشار المبكر للإسلام دوراً فعالاً في هذا المجال حيث أدى اعتناقها له والعمل على نشره إلى إحداث تغييرات جوهرية وأساسية في البنية السياسية والاجتماعية والثقافية في الحياة الإفريقية ككل تمثلت في قيام الممالك والمراكز الإسلامية التي تأثرت إلى حد كبير بخصائص وسمّات الدول الإسلامية.

كذلك كان لإسلام ملك كانم أومي حلمي (1085 ـ 1096) دور هام في هذا المجال حيث بدأ الإسلام يشقّ طريقه في هذه المناطق إذ انتشرت اللغة العربية والمدارس وظهرت طبقات العلماء، عندما خلفت دولة برنو كانم ظهرت شخصية هامة لعبت دوراً بارزاً في تشكيل هذه الدولة تشكيلاً إسلامياً وهي شخصية محمد الأمين الكانمي وهو مؤسس الأسرة الجديدة التي قضت على أسرة السيفيين والتي تولت الحكم بعد ذلك في دولة برنو.

وفي القرن الثامن عشر شهدت أرض الهوسا بروز عالم ثائر هو عثمان دان فوديو (1754 ـ 187) وهو فقيه عالم حج إلى مكة وله نفوذ روحي بين قومه وينسب لأعظم عشائر الفولانيين في غرب إفريقيا وقد تحرك هذا الفرع من هذه العشيرة إلى أداماوا نحو نهر النيجر وكان هذا الفرع من أشد فروع الفولانيين تحمساً للإسلام ويدين بالمذهب المالكي. وفي عام 1801 جمع عثمان جيشاً كبيراً وخرج نحو الشرق وسار حتى وصل ماسنيا واستولى على العديد من المناطق حتى أقام بين نهر النيجر وبحيرة تشاد دولة مستقلة وأخذ يوسع حدودها حتى وصلت إلى نوبة في الجنوب الغربي وإلى أدماوه في الجنوب الشرقي[85].

لقد تميز الشيخ عثمان بدوره الثقافي كرجل مصلح حيث خلف لنا إنتاجاً

(85) إبراهيم جوب ص 58، ص 135.

أدبياً فريداً يتناول مشاكل الحياة اليومية في مجتمعات السودان الأوسط تناولاً مباشراً، ويروى أنه قد كتب أكثر من مائة كتاب ألفها في خلال أربعين عاماً وهي تتناول الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت مثارة في أيامه، كما كان من بين الزعماء المجاهدين الذين عرفوا بوفرة الإنتاج والتأليف شقيقه عبدالله ونجله محمد بلو الذي ألّف أكثر من مائتي كتاب من بينها كتابه المشهور «إتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور»[86].

وعندما تعرض الإسلام إلى حركة تشويه مع نهاية القرن الثامن عشر وصارت شعائره مشوهة بشعائر ما بقي من الوثنية القديمة شهد غرب إفريقيا ظهور مصلحين اضطروا في أكثر الأحيان إلى الجهاد في سبيل الله لاسترجاع صفو شعائر الإسلام الأولى فظهر سليمان بال وعبد القادر كن في فوتا تورو Futa Tooro التي كانت من أكبر المناطق تمسكاً بالإسلام وقد نجح سليمان في القضاء على نفوذ ملوك الفولانية الوثنيين وأقام حكومة فولانية مسلمة (1775 ـ 1776) قبيل وفاته وسميت بالحكومة الإسلامية الفونية وتولى الحكم فيها زعيم ديني يطلق عليه لفظ المامي وهي تحريف بسيط لكلمة الإمام العربية، وكان عبد القادر كن أول إمام حكم فوتي (1776 ـ 1805) وخلفه في الحكم ثلاثة وثلاثون إماماً[87].

ولم يقتصر هؤلاء العلماء والمشايخ على تأسيس طرق صوفية وتعليم الشرعية وعلوم الدين الإسلامي فقط، بل عملوا على الجهاد ونشر الإسلام وتشكيل دول وممالك إسلامية.

وفي أيام هذه الممالك بدأ الإسلام يتسرب إلى الشعوب الإفريقية وكانت حركة الدفاع عن الإسلام أبرز ما تميزت به مرحلة البلورة والانصهار إنها المرحلة التي جاءت بعد بناء الإسلام وتوسعاته فعندما توقفت حركة التوسع

---

(86) كاني ص 23.

(87) إبراهيم جوب ص 73.

بدأت مرحلة الترتيب وحصانة القيم الجديدة وذلك أن الإسلام قد أزال القوى الحاكمة التي وقفت في طريق دعوته وأتاح للشعوب التي انضمت تحت لوائه نطاقاً جديداً قوامه التوحيد والعدل والمساواة، جاءت بديلاً عن الأوضاع الظالمة القاسية التي كانت تعيشها الأقطار الإفريقية[88].

وفي هذه الفترة كانت تسود العالم الإسلامي حركة واسعة تهدف إلى بعث الفكر الإسلامي وإعادته إلى ما كان عليه من مجد سابق وظهرت شخصيات إسلامية لعبت دوراً هاماً في هذا المجال منها شخصية المختار الكنتبي (1793 ـ 1811) الذي يرجع إليه الفضل في بلورة الطريقة القادرية الصوفية وصبغها بالطابع الإفريقي وقد اعترفت له جميع القبائل بالمشيخة واهتمّ بتأليف الكتب التي وصلت إلى ألف واثنين وتسعين كتاباً منها ما يقع في أربع مجلدات تناول فيها شتى فنون المعرفة[89] لقد تزعم هذا الشيخ الصوفي حركة الإصلاح في السودان الغربي عامة وفي منطقة فوتا تورو خاصة حت أدّت حركته في النهاية إلى قيام دولة إسلامية في منطقة فوتا جالون في أواخر القرن الثامن عشر وفي هذه الحركة تتمثل قدرة التصوف عامة على تهيئة الناس للإصلاح بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ التصوف الإسلامي[90].

أما الشيخ عمر تال الفولاني الذي ولد عام 1797 م فقد تربى تربية إسلامية صحيحة حيث حفظ القرآن ودرس صحيحي مسلم والبخاري وعندما بلغ الخامسة عشر رحل إلى فوتا تورو ليتلقى علوم الدين تحت إشراف العلماء المحليين ثم حجّ إلى بيت الله وما بين أعوام (1849 ـ 1864) قام بالجهاد والكفاح لدعوته ونشر الإسلام وتصحيح مساره في إفريقيا الغربية حيث تمّ له

(88) نفس المصدر ص 77.

(89) كمال ضو الدقير دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي 1996، ص 28.

(90) عمر أحمد سعيد، ص 129.

فتح مدينة بمبا ولبت عام 1849 كما فتح مدينة تمبا بعد حصار دام ستة أشهر كما فتح كنفودي عاصمة سلطان بنجو كينا وبعد غزوات دامت خمس سنوات استولى على مملكة كهرتا وأجبر أهلها على دخول الإسلام، كما أعلن في عام 1852 الجهاد ضد الوثنيي في السودان الغربي واستطاع في خلال عشر سنوات أن يسيطر على كل السودان الغربي من حدود مدينة تمبكتو حتى حدود السنقومايو الفرنسية ورغم أنه اعتبر نفسه مصلحاً دينياً وأعلن الزهد في الأمور الدنيوية إلا أنه كان مستعداً لتحقيق ذلك عن طريق القوة والجهاد واعتبر أن رسالته المقدسة هي تنقية الإسلام في السودان الغربي من كل ما علق به من شوائب ووضع حد للوثنية وتطبيق الشريعة الإسلامية ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية واتبع أسلوب العنف في تحويل الناس الوثنيين إلى الشريعة الإسلامية(91)، ومنذ عام 1858 بدأت مقاومته للاستعمار الفرنسي في المنطقة حيث بدأ الفرنسيون يخشون من نشاطه وتوسعاته ذلك أن قوات الحاج عمر بعد أن اكتسحت كامو وباماكو اخترقت طريقها إلى كارتا وبالتالي تكون قد اقتربت من المراكز الفرنسية في المنطقة.

وهكذا بعد أن تناولنا مجمل العوامل التي ساعدت على جركة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء اتضح أن هذه الحركة قد اعتمدت في انتشارها هذا على عامل هام هو خاصية هذا الدين وذاتيته التي ترجمها إلى واقع ملموس أناس آمنوا بصحة هذا الدين فاعتنقوه عن إيمان مطلق فحملوا رايته إلى قلب الصحراء داعيين له باذلين قصارى جهدهم وتكاتفت جهودهم من تجار ودعاة متصوفيين ومهاجرين ورحالة ومصلحين وأكمل كل طرف من هذه الأطراف جهود صاحبه دون كلل أو ملل ليحولوا مناطق كثيرة من هذه القارة إلى مناطق إسلامية ذات سمات وخصائص تتفق ومبادىء هذا الدين الحنيف وتكون شاهداً ودليلاً على أنه لم ينتشر بالإكراه أو بحد السيف، وإنما كان انتشاره في أغلب الظروف بالإقناع والطرق السلمية.

(91) إبراهيم جوب، ص 140.

الفصـــل الرابـــع

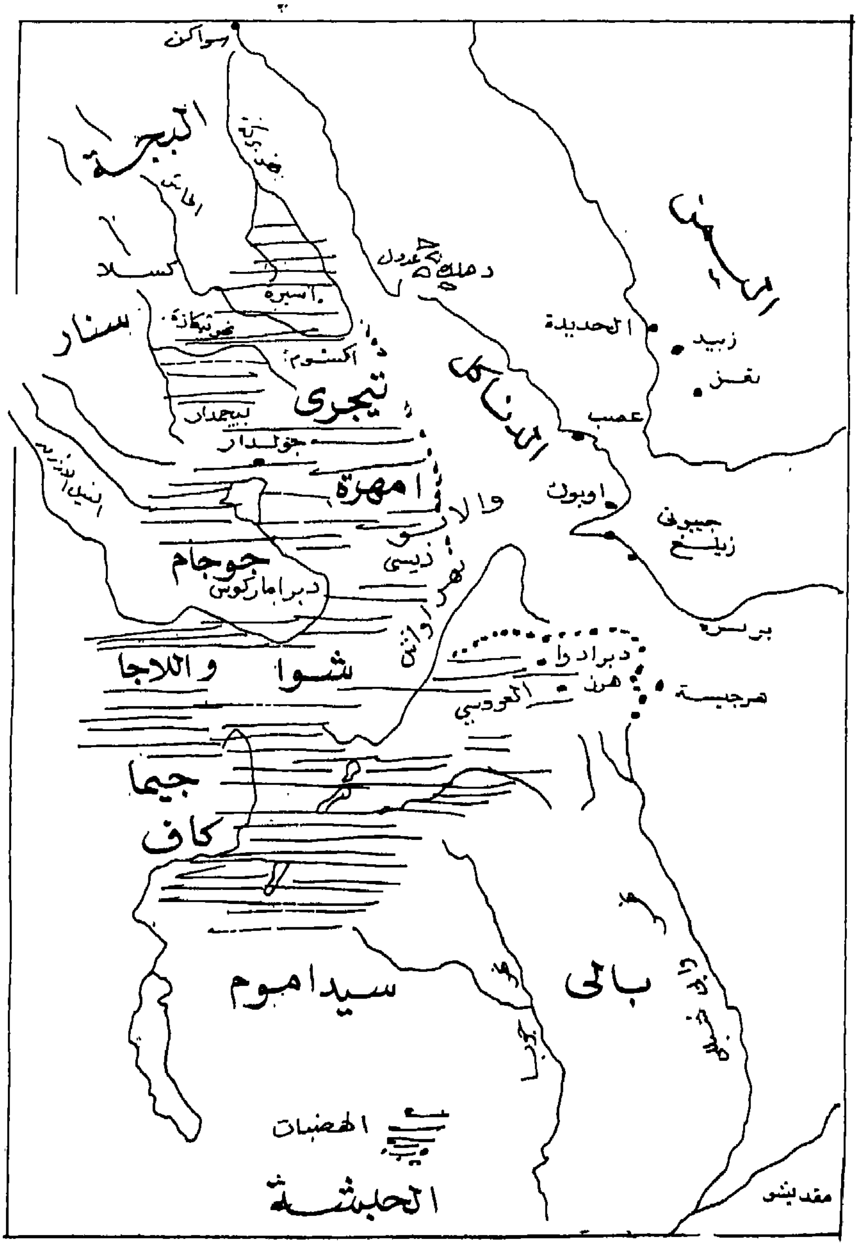
إنتشار الإسلام في الحبشة وشرق إفريقيا وتأسيس الإمـــارات الإسلاميـــة

إنتشار الإسلام في الحبشة وشرق إفريقيا
وتكوين الإمارات الإسلامية

أولاً: الحبشة في عصور الإسلام الأولى

رأينا في الفصل السابق مدى ما كانت عليه الصلات بين شاطىء البحر الأحمر والأحباش من الغرب، وسكان الجزيرة العربية من الشرق وعلى وجه الخصوص بلاد اليمن والجنوب العربي التي مرت في تلك الأزمان بأوج مجدها وحضارتها القديمة، فكانت مركزاً للنشاط التجاري والإشعاع الحضاري الذي تكفلت به جماعة المهاجرين ونشرته في بلاد الحبشة والصومال وتطوير الحياة بتلك الأنحاء، ولما استقر المهاجرون واختلطوا بالسكان الأصليين وتكونت منهم دولة جديدة على جانب كبير من الرقي والازدهار، بدأت موجات الهجرة تسير في الاتجاه المعاكس وإن كانت هذه المرة على هيئة جيوش يقال أنها سيطرت على اليمن فترة طويلة من الزمن وقد رأينا نهاية تلك الفترة عندما استنجد إمبراطور بيزنطة بملك الحبشة كي يحمي مسيحيي اليمن من الفناء على يد ذي نواس وليضمن بذلك استمرار حركة التجارة الشرقية التي توقفت بسبب الحروب الفارسية.

وتدخل الفرس بعد ذلك مباشرة فعاد الأحباش إلى بلادهم في عام 590 م وكانت تلك نهاية السيطرة الحباشية على بلاد العرب، وما إن جاء عام 602 ميلادية حتى كان نفوذ الفرس قد شمل جميع أنحاء الجزيرة العربية بسبب تقلص النفوذ البيزنطي عن الشرق، واستمرت اليمن تحت حكمهم المباشر حتى العام


سواكن
البجة
كسلا
سنار
اسمرة
اكسوم
تيجرى
امهرة
جوجام
دبرا ماركوس
شوا
واللاجا
جيما
كاف
سيداموم
بالى
الدناكل
اليمن
الحديدة
زبيد
تعز
عصب
اوبوك
جيبوتى
زيلع
بربرة
هرجيسة
هرر
الهضبات
الحبشة
مقديشو

الثاني للهجرة حين اضطرهم المسلمون إلى الانسحاب وبدأت الدعوة الإسلامية بمكة وتعرّض المسلمون إلى الشدّة والاضطهاد، فصرّح الرسول الكريم بهجرة المستضعفين واختيرت الحبشة مقصداً لهذه الهجرة لاعتبارات كثيرة منها أنها من أقرب البلاد المسيحية التي يربطها بالعرب تاريخ مشترك، وأيضاً موقعها الجغرافي حيث كان السفر إليها سهلاً وأسلم عاقبة، إذ أنه لا يزيد عن كونه عبور البحر، أضف إلى ذلك العلاقات الطويلة التي كانت تربط بينها وبين الجزيرة وتلك الصلة التي توطدت بين الكثيرين خلال الرحلات التجارية إلى أكسوم[1] ولم تكن الحبشة ضمن الممالك التي وجه إليها المسلمون حملاتهم في ذلك العهد الأول الذي شاهد الاندفاع الإسلامي العظيم ويبدو أن ذلك راجع إلى عدة عوامل منها: تركيز المسلمين على كسر شوكة الامبراطوريتين المجاورتين لبلاد العرب واعتبار مصر أكثر أهمية من الحبشة لمركزها الهام وسبقها في ميدان الحضارة والعمران ومن أهم الأسباب كذلك قرب عهد المسلمين بالعلاقات الطيبة التي كان للنجاشي منها فضل كبير.

وفيما بين (630 ـ 640 م) تمّ خراب ميناء عدول من جرّاء الغارات الخارجية وتوقفت أسواق أكلوم ولم يعد هناك أي نشاط للتجار الأجانب وتعطل بناء الكنائس وانقطعت الصلة بين الحبشة والعالم الخارجي[2] ولكن بعد فترة من الزمن أخذ بعض قراصنة الأحباش يهددون تجارة العرب في البحر الأحمر مما اضطر الخليفة عمر بن الخطاب إلى إيفاد حملة بحرية لتأديبها وذلك في عام 641 ولكنها لم تكلل بالنجاح واستمر نشاط هؤلاء القراصنة إلى درجة اضطرت المسلمين في عام 83 هـ إلى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لتلك الحملات بأن جردت حملة بحرية لاتخاذ مركز حربي على الشاطىء الغربي فاحتلت مجموعة جزر دهلك المجاورة لميناء عدول (مصوع فيما بعد) وكان احتلال المسلمين

(1) راجع: فتحي غيث، **الإسلام في الحبشة عبر العصور**، القاهرة 1962.
(2) دنيس بولم، **الحضارات الإفريقية**، ت. دار الحياة، بيروت، 1965، ص 72.

لهذا المركز الممتاز بداية لاستيلائهم على باقي المراكز التجارية البحرية على الشاطىء الإفريقي وبداية الانتشار التدريجي للإسلام في شرق إفريقيا ولقد ساعد علىٰ انتشار الإسلام وتغلغله في شرق إفريقيا والحبشة عدة عوامل كما أنه مرّ بعدة مراحل وعصور يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

1 ـ بداية انتشار الإسلام في الحبشة وهجرات العرب إلى شرق إفريقيا واشتغال المسلمين بأعمالهم التجارية كغيرهم من رعايا الأمبراطور دون أن يكون لهم كيان سياسي.

2 ـ عصر سيادة مملكة شوا الإسلامية وهو ما نجهل أغلبه ولا نقف إلاّ على أحداث الثمانين عاماً الأخيرة.

3 ـ عصر سيادة مملكة إيفات، ويبدأ باستيلاء صبر الدين على شوا حتى خروج الإمام أحمد وهو العصر الذي تخلله خروج حق الدين ونسله من شوا.

4 ـ عصر سيادة هرر تحت قيادة أحمد ابن إبراهيم وهو ما سنبحثه في الفصل القادم عن الصومال.

1 ـ عصر هجرة المسلمين إلى شرق إفريقيا والحبشة:

تعرضنا من قبل للحوادث التاريخية التي مرت بالحبشة متخذين من تاريخ السلطة الحبشية المسيحية أساساً لتسلسل الأحداث، ولكننا هنا سنتناول الموضوع من زاوية أخرى وهي فترة مدّ وجزر بين المسيحية والإسلام وهنا فإن الظرف مناسب لجمع شتات ما تفرق بين مراحل انتشار الإسلام منذ ظهور الدعوة ثم انتشاره في مختلف المناطق الحبشية ولا سيما حتى نهاية القرن الثالث عشر.

وكما رأينا بدأ الاتصال الأول بين الإسلام والحبشة في عهد رسول الله ﷺ ثم اضطر المسلمون لحماية تجارتهم وشواطئهم للاستيلاء على جزر دهلك وجعلوا منها قاعدتهم الأولى ومركز انطلاقهم، ومنها امتدّ نفوذهم حتى استولوا

على سواحل البحر الأحمر وجزر المحيط الهندي الإفريقية، ثم أخذ نشاطهم يمتد ويتسع إلى الدواخل حتى استولوا على أغلب الأراضي الحبشية، وبدأت مملكة الحبشة القديمة في عزلتها التي ازدادات على أثر زحف قبائل البجه من شاطىء النيل وانتشارها في شمال الحبشة حتى ساحل البحر[3].

لم يدخل الإسلام إلى شرق إفريقيا بحد السيف بل كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمنطق السليم أكبر الأثر في إقبال الناس على اعتناقه كما لعبت التجارة دوراً أساسياً في انتشاره إذ أن أكثر المسلمين احتكاكاً بالعناصر المختلفة من مسيحيين ووثنيين هم التجار الذين تحولوا وجابوا المناطق المختلفة سعياً وراء التجارة ومصادر الرزق، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الإسلام أينما تغلغلوا في إفريقيا، وعن هذا الطريق البسيط انتشر انتشاراً منقطع النظير[4]، وثمة عامل مهم ساعد على هذا الانتشار وهو سلسلة الأحداث المتوالية والمتعاقبة التي حدثت في الدولة الإسلامية سواء أكانت أحداثاً سياسية أو اقتصادية والتي كانت من دواعي هجرة الناس.

لقد طرحنا في الفصل السابق وفي موضوع الهجرة ودورها في هذا المجال هذه الظروف التي دعت لحدوثها والأماكن التي اتجهت إليها، ولكن ليس معنى هذا أن الهجرة وحدها كانت العامل الرئيسي في نشر الإسلام في الحبشة ولا ينفي ذلك أنه لم يكن هناك دعاة للإسلام، بل يذكر لنا التاريخ عدداً وافراً منهم وكثيرون كان لهم شأن عظيم ولكن كان كل منهم يعمل منفرداً متطوعاً معتمداً على جهده الشخصي لا يعتمد على مؤسسة تمده بالمال والقوة كما هو معهود في الأساليب التبشرية التي تتبعها الكنائس الغربية، وكما كان من الأسباب الهامة التي ساعدت على تغلغل الإسلام في الحبشة هي الأحوال الداخلية المضطربة بها لقد كانت هناك هجرات عديدة ومختلفة على مرّ العصور

---

(3) عثمان صالح سبي، ص 42.

(4) انظر الفصل السابق حول دور التجار في نشر الإسلام.

التاريخية وكان لهذه الهجرات سماتها الإيجابية والسلبية واختلفت من حيث نتائجها وتأثيراتها فكان للبعض منها آثار سلبية تخريبية لأنها كانت تقوم على الغزو وسلب جزء من الأرض المقصودة أو الاستقرار فوقها، ولكن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت تتسم بالهدوء التام وتتميز بالطابع الروحي والمعنوي لأنها هجرة إلى الله ورسوله قصد منها نشر الدعوة الإسلامية الجديدة التي دعا إليها محمد ﷺ في شبه الجزيرة ليعرف المتعقلون من جيران مكة خصائص وفضائل هذا الدين العظيم(5).

لا شك أن هجرات العرب إلى سواحل الحبشة والصومال كانت مستمرة منذ تلك العصور القديمة، والظاهر أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا في هذه السواحل ملجأ يفرون إليه ومنفذاً يهرعون إليه في ظروف الحياة القاسية وكانوا يجدون في هذا الساحل فرصاً كثيرة لكسب الرزق باحتراف التجارة وسائر المهن البحرية المختلفة فلم تنقطع الهجرات إلى هذا الساحل حتى الوقت الحاضر.

وكانت طبيعة البحر الأحمر والقرن الإفريقي تساعد على الملاحة السهلة المتيسرة طوال العام بين شاطئيه الشرقي والغربي فقامت العلاقات بين ساحلي البحر وبين الجزيرة العربية والبلاد الإفريقية الواقعة على ساحله الغربي وهذا أمر طبيعي جداً منذ أقدم الأزمنة(6).

والواقع أن الحياة القاسية في الجزيرة العربية دفعت الكثير من سكانها للهجرة إلى إفريقيا، ونستطيع من ذلك أن ندرك بأن الحبشة كانت منذ أقدم الأزمنة المهجر الطبيعي لسكان الجزيرة العربية.

---

(5) أحمد الشامي **«تطورات في هجرة المسلمين إلى الحبشة»** ص 97.

(6) لمزيد من المعلومات عن أهمية البحر الأحمر راجع:

يوسف فضل حسن، **«البحر الأحمر في التاريخ»** محاضرات الموسم الثقافي الأول، إعداد محمد عبد السلام الجفاتري، طرابلس، مركز الجهاد 1989، ص 41 وما يليها.

ولما كان العرب يشتغلون بالتجارة وبنقلها بين الأسواق المختلفة كانت الحبشة أحد هذه الأسواق التي يقصدونها لحمل التجارة منها وإليها، وكانت اليمن أهم المراكز التجارية وقتذاك ومنها تنقل عبر الجزيرة إلى الشام وأسواق العراق وفارس والهند.

ويرجع أول اتصال للمسلمين بالحبشة إلى الفترة التي سبقت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فقد تمت الاتصالات بينه وبين نجاشي الحبشة منذ السنة الخامسة للبعثة وتتوجت تلك العلاقات بهجرة أصحابه ﷺ إليها بسبب اضطهاد قريش لهم، وقد تمكن هؤلاء المهاجرين من عرض رسالتهم وهدفهم بصدق في بلاط النجاشي أمام مؤامرات قريش التي هدفت إلى إبعادهم عن الحبشة وبذلك يكون صوت الإسلام قد ارتفع في الحبشة ومن داخل قصر النجاسي قبل أن يتعدى حدود مكة(7). ولم يمنع الإسلام من اعتنقوه من تجار العرب من مزاولة حرفهم الأولى فالهجرة إلى الحبشة والعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الإسلام استمرت من بعده وحمل المهاجرون والتجار الجدد إسلامهم معهم ومن ثم ابتدأ الإسلام يظهر بالحبشة ويتغلغل حيث سار التجار.

كذلك هناك عامل آخر على جانب كبير من الأهمية حيث ساعد على انتشاره في هذه المنطقة وهو أن الإسلام حرم أن يسترق مسلم مسلماً لذلك لم يكن هناك من مخرج أمام أفواج الرقيق وسكان الصومال والحبشة وكذلك السودان الذين تعرضوا دائماً لغزوات النخاسين إلا الدخول في الإسلام الذي يمنع عنهم ذلك الأسر ويقيهم مهانة الرقّ والعبدوية فأخذ الإسلام ينتشر بينهم بتزواجهم مع بعضهم ومع العرب والمسلمين النازلين بينهم(8).

كل هذه العوامل كانت من عوامل انتشار الإسلام في الحبشة وشرق إفريقيا

---

(7) أحمد الياس حسين، «إنتشار الإسلام في شرق إفريقيا» ص 230.

(8) Jaque (L) **Histoires des Pirates**, Paris, S.P. 1917, P. 20.

ومن ثم أدّت إلى ظهور الولايات والإمارات الإسلامية بها.

أما الأحداث التي تعاقبت على الدولة الإسلامية وساعدت على الهجرة فهي حروب الردة والسياسة التعصبية التي أدّت إلى ظهور الفرق الدينية والسياسية ثم اضطهاد الدولة لرعاياها[9].

لقد لعبت طبيعة البلاد دوراً هاماً في وجهة تلك الهجرات فاتجهت الهجرة العربية بالحبشة نحو ثلاث مواطن هي:

1 ـ المنطقة الشمالية حول ميناء عدول (مصوع حالياً) أو ما وراءها من حواف الهضبة التي يطلق عليها الآن إسم أريتريا.

2 ـ المنطقة الممتدة من شمال باب المندب بقليل إلى جنوبي خليج عدن ومنطقة الحافة الشرقية للهضبة التي تلي هذه المنطقة ويطلق عليها منطقة هرر.

3 ـ المنطقة التي تشمل مقديشيو الحالية والجزء الواقع جنوبها بقليل ومن هذه المناطق الثلاث بدأ التسرب إلى الهضبة فالتجار لا يقنعون بمنطقة الساحل الذي لا يعدو أن يكون مدخلاً أو مخرجاً لتجارتهم ولكن المهم لديهم هو الأسواق.

فالمنطقة الأولى متصلة اتصالاً مباشراً بالهضبة، غير أن وجود مملكة أكسوم فيما وراء هذه المنطقة من ناحية الجنوب الغربي يقف حائلاً دون هذا التوغل إذا رغبوا فيه، ولكنه لا يمنع أن يتوغل فريق إلى الداخل ملتفاً حول أطراف الهضبة الشمالية حيث منطقة مملكة سنار الإسلامية وحيث لجأ إليها بعض المسلمين الذين انحدروا من مصر فأفلحوا في القضاء على دولة النوبة

---

(9) راجع الفصل السابق الخاص بالعوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام مادة الهجرة.

وإقامة تلك المملكة الإسلامية بسنار والتي أصبحت نواة لدولة الفونج السودانية[10].

والمنطقة الثانية قريبة الاتصال بالهضبة الحبشية من ناحية الشرق وصحراء الدناكل التي تفصل الساحل عن الهضبة وهي هنا ضيقة في ذلك الجزء كما وأن وادي نهر أواش يتيح لهم ممراً طبيعياً يقودهم إلى المنطقة الوسطى من الهضبة حيث هضبة إقليم شواء.

والمنطقة الثالثة بعيدة نوعاً ما عن الهضبة الحبشية إلا أن وادي نهري شابللي وجوبا يقودان إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من الهضبة الحبشية حيث يقع إقليم بالي الخصيب.

2 ـ الإسلام في شمالي الحبشة وقبائل البجه:

كان للنوبة أوثق العلاقات مع مصر خلال جميع أدوار التاريخ وكانت تتأثر بما يجري في مصر من أحداث، كذلك كان للفتح الإسلامي لمصر أثر كبير على مملكة النوبة المسيحية التي حاولت أن تقاوم التيار العربي الجارف وقد نجحت في صدّ أول حملة وجهها إليها العرب في عام 642 م ولكن هؤلاء أعادوا الكرة في عام 651 م وتمكنوا من التغلب على جيوش مملكة النوبة وتوغلوا فيها حتى وصلوا إلى عاصمتها، وعقد القائد العربي البقط (بفتح الباء وتسكين القاف) مع ملك النوبة وتعهد الطرفان بتبادل التجارة مما يضفي على المعاهدة السمه الاقتصادية، لذلك اعتبرها بعض المؤرخين معاهدة اقتصادية، واعتبرها البعض الآخر هدنة وينسبون كلمة بقط إلى الأصل اللاتيني (باكتوم) أي العهد والمثياق[11].

---

(10) Eliot (H) **The East Afrique,** London, 1905, P. 72.

(11) نفس المصدر، ص 85.

وتدل الشواهد على أن العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصال تعاهد ومرور وانتقال وتجارة إذ أن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين العرب كبني أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرق السودان واستقروا في أرض الجزيرة أي مملكة مروى، ويبدو أن العرب قد اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالبجة في القرن الثامن الميلادي عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادي النيل وخاصة من إقليم أسوان إذ رحلوا إليها تجاراً وهاجروا إلى بلاد الذهب، وكانت أول جماعة من العرب قد بنت المساجد بالإقليم وهذا ما عهد لهم سبيل الاختلاط أول الأمر بالبجه في شرق السودان وساعدت على تعريب هذه المنطقة.

وتقول الروايات التاريخية أنه لما اشتدّ هجوم البجة على ريف صعيد مصر في أوائل القرن الثالث للهجرة رفع والي أسوان الأمر إلى أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد فأرسل إليهم عبد الله بن الجهم عام 831 م فكانت له معهم حروباً سجالاً ثم تهادنوا ووقعت بين الطرفان معاهدة نلخصها فيما يلي:

1 ـ أن تكون البجة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد من دهلك وباضع وتكون ملكاً للخليفة.

2 ـ أن يؤدي ملك البجة كل عام الخراج أو البقط على ما كان عليه أسلافه وهو مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار.

3 ـ أن يحترم البجة الإسلام وألا يذكروه بسوء ولا يعينوا أحد على أهله.

4 ـ ألا يمنعوا أحد من المسلمين من الدخول إلى بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

5 ـ ألا يمنعوا أحد من المسلمين تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجاً فهو آمن حتى يخرج من بلادهم.

6 ـ إذا نزل البجه صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال[12].

ونستنتج من هذه البنود مدى اتصال العرب بشرق إفريقيا هذا الاتصال الذي استمر في عهد المعتصم (833 ـ 842 م) والخليفة المتوكل (846 ـ 860 م) حيث نقض البجه مرة أخرى العهد إذ أغاروا على أعالي الصعيد مما أدّى إلى قيام الحروب بينهم وبين المسلمين.

لذلك لم تهدأ الأحوال على حدود الدولتين واستمرت المناوشات بينهما بضعة قرون كان الدين المسيحي خلالها منتشراً في مملكة النوبة حتى جاء عهد الدولة الأيوبية بمصر ومن بعده المماليك حيث وجهت الحملات خلالها إلى بلاد النوبة، وفي عهد الظاهر بيبرس ومن بعده السلطان قلاوون بلغت الحملات العربية مبلغاً عظيماً من القوة[13].

أخذت مملكة النوبة المسيحية في التفكك حوالي عام 1289 م وما إن جاء النصف الأول من القرن الرابع عشر حتى سقطت وبدأ الإسلام يسيطر على هذه الدولة السودانية، وكان لبقاء النوبة على دينها المسيحي حتى القرن الرابع عشر أكبر الأثر في إيقاف تيار الزحف الإسلامي على الحبشة من الجهة الغربية أي من مصر عن طريق السودان وخصوصاً في ذلك الوقت الذي كانت فيه مصر متمكنة من قوتها. بالإضافة إلى ذلك فإن جوار الحبشة لتلك المملكة المسيحية جعل لها متنفساً تتصل عن طريقه بالعالم وتصل عن طريقه التجارة.

وقد تسببت الحروب والقلاقل والمناوشات التي وقعت في تلك العهود بين المسلمين في مصر وبين بلاد النوبة والبجه، تسببت في ازدياد هجرة قبائل

---

(12) انظر نص هذه الإتفاقية في: عثمان صالح سبي، **تاريخ أرتيريا**، ص 80.

(13) خالد الصوفي، **محاضرات في تاريخ العرب الحديث**، الجامعة الليبية ـ بنغازي، 1986، ص 25.

البجة شرقاً في اتجاه البحر الأحمر(14).

وقد اختلطت قبائل البجة الحبشية وبنو عامر وغيرهم مع غيرها من القبائل في شرق السودان، فاختلطت قبائل البجه مع قبائل التيجري التي تكون غالبية السكان في وسط ارتيريا وفي شمال الحبشة الحالية ولكنها حافظت على لغتها الأصلية بالرغم من شدّة هذا الاختلاط.

وقد بدأ الإسلام ينتشر بين البجه في القرنين الثامن والتاسع وقد كانت تقيم بعضها في وادي نهر بركة حيث يكثر بها المسلمون وعليهم ملك مسلم ومع إطلالة القرن العاشر بدأ الإسلام يأخذ مكانته بين هذه القبائل بحيث اعتنق غالبية سكان الساحل الإسلام، وهذا يؤيد دخوله وازدياد انتشاره بالرغم من وجود بعض القبائل المسيحية.

وقد تركز الإسلام في شمال الحبشة في خمس مناطق بين قبائلها الثماني، والمنطقة الأولى هي سكان ميناء عدول إذ كان يقطنها فريق من العرب والطائفة الثانية هي قبائل الساهو وتسكن في جنوب سمهر بالجنوب الشرقي للشمال وقد اعتنق جانب منهم الإسلام في القرن الرابع عشر، والطائفة الثالثة هم مسلمو بركة وهم من قبائل البجه التي تعيش بين النيل والبحر الأحمر وتحتل جزء من شمال الهضبة الحبشية ومعهم عناصر حبشية أخرى دخلت الإسلام منذ زمن بعيد، إلا أن قبائل الغيدن والباريه بقيت على وثنيتها(15).

3 ـ عصر سيادة مملكة شوا الإسلامية:

تألفت من المهاجرين إلى الحبشة ومن القبائل التي اعتنقت الإسلام خلال تلك القرون ممالك وسلطنات ناشئة، بدأت صغيرة ثم أخذت في النمو والتوسع

---

(14) عثمان صالح سبى، ص 82 وما يليها.

(15) Simmons (L) **A history of Islam in East Africa,** London, 1965, P. 62.

وازدادت قوة كلما توطدت أقدامها، لذلك فعندما تكتلت الجماعات الإسلامية في أماكنها المتباعدة في تلك البقاع الشاسعة لم يكن بينها اتحاد أو اتصال، بل أخذت كل منها تنمو مستقلة عن الأخرى، وبعد عدة قرون أصبحت ممالك وسلطنات تتاخم بعضها البعض، يجمعهم الدين الإسلامي وتفرقهم الخلافات المذهبية وتنافس الأسر الحاكمة، فلم يكن بينهم أي نوع من الاتحاد.

وقد تأسست أول دولة إسلامية في قلب الهضبة الحبشية في أقليم شوا المشهور، وذلك في عهد ملوك الحبشة الأجاويين، وكان سلاطين هذه المملكة من بني مخزوم، أي أسرة سيف الإسلام خالد بن الوليد ويعود إنشاء هذه الدولة إلى عام 896 م عندما تمكن نفر من بني مخزوم الذين تغلغلوا داخل البلاد، وكما ذكرنا فقد دام حكم هذه الأسرة حوالي أربعة قرون وكل ما نعرفه عنها فترة قصيرة وذلك فيما بين عامي 1231 ـ 1289 وتبين الفترة الأخيرة من حكمها ـ حين بدأت عوامل الانحلال في الدولة ـ تبين أخبار الاضطرابات الداخلية وأسماء الفرق المتصارعة وزعماءها(16).

قد استمرت مملكة شوا خلال أربع قرون في شبه عزلة عن العالم الخارجي ومع أهميتها فإنها لم يرد ذكرها في أي مرجع من المراجع القديمة حتى ظهر خبرها في عام 1941 م، عندما نشر المستشرق الإيطالي شيرولي مخطوطة عربية مجهولة المؤلف عن هذه الفترة(17).

وقد استمرت أسرة المخزومي على عرش هذه المملكة حتى عام 1225 حين اغتصبه شخص يدعى «بالزره» إذ قبض على عبدالله المخزومي وسجنه واغتصب العرش ثمانية عشر عاماً خرج عليه في نهايتها السلطان «جنبه واستولى واغتصب العرش في 1252 إذ استطاع هذا الأخير أن يقبض على ناحية الحكم

---

(16) نفس المصدر، ص 71.

(17) Kemith (I) **A history of East Africa**, London 1964, P. 92.

ويورث عرشه للسلطان جيرام غازي، ولا نعرف علاقة هذا السلطان بمن سبقه ولكن عدم قيام ثورات تؤكد وجود علاقة بين المورث والوارث، وخلف غازي، أخوه دلجامس ولكن يظهر أنه لم يكن في كفاءة أخيه إذ خرج عليه عبد الله بن جنبه واستطاع أن يكون صاحب سلطان لعدة شهور. وما كاد السلطان دلجامس يفرغ من ثورة عبدالله حتى كانت قواه قد أنهكت واستطاع دلماره أن يستولي على العرش عام 1260 فهرب دلجامس وثارت البلاد على السلطان الجديد مغتصب العرش ثم عاد وتمكن من إرجاع السلطان السابق في يوليو 1261 وحكم مدة لا تزيد عن ست سنوات إذ ثار مغتصب جديد هو عبدالله بن جناح ثم عاد من جديد للعرش بمساعدة الملك الحبشي الذي أعاده عام 1279 ليحكم حتى عام 1289 حيث سلم البلاد في النهاية إلى أسرة «ولسمع» الحاكمة في إيفات التي سبق لها غزو شوا اربع مرات كانت الأولى في 675 هـ، والثانية في شهر رمضان 678 هـ في عهد دلجامس الثالث، وكانت الثالثة في ربيع الآخر 684 هـ ـ 1285 م إذ انتهزت إيفات فرصة الحرب بين دلماره ودلجامس فاقتطعت من حدودها الشرقية إقليم هدية وهطفوطا وجداية، وكانت الغزوة الرابعة والأخيرة حين استطاع صبر الدين ابن سلطان اليفات أن يتغلب عليها ويضمها إلى أملاكه ويحتل مكان الصدارة بين الولايات الإسلامية كلها.

وباستيلاء إيفات على مملكة شوا يتحدد تحديداً واضحاً المدى الذي وصلت إليه سلطة الإسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر إذ كانت شوا تشغل قسماً هاماً من قلب الهضبة الحبشية وذلك في الجزء الذي تحتله قبائل الأجاويين، وبهذا يمتد نفوذ الدولة الإسلامية إلى شواطىء النيل الأزرق.

4 ـ الممالك الإسلامية في شرق الحبشة وعصر سيادة إيفات:

تأسست مجموعة من السلطنات والممالك وذلك عندما ازداد انتشار الإسلام وثبتت أقدامه، ومن البديهي أن هذه السلطنات والممالك وهي تمر بأدوار تكونها من الطفولة إلى الشباب، كانت مضطرة إلى خطب ودّ ملوك

الحبشة المسيحية كلما ظهر فيها ملك قوي، ولقد كان ذلك راجعاً إلى انتشار الإسلام وهو بعد في مرحلة تكوينه في مساحات شاسعة بلغت أكثر من ثلاثة أرباع مساحة الحبشة بينما لجأ ملوك الحبشة في تلك العهود إلى التكتل داخل الهضبة والتحصن فيها والعمل الدائم من أجل توحيد الصفوف والقوى إزاء هذا الزحف الإسلامي الواسع، وخلال ذلك اعتلى عرش الحبشة من الملوك الأقوياء مما اضطر تلك القبائل الإسلامية إلى تقديم الولاء والطاعة لهم.

وقد سميت هذه الإمارات بالطراز الإسلامي لأنها على جانب البحر كالطراز له وهي البلاد التي يقال بها بلاد زيلع[18] والزيلع إنما هي قرية قراها غلب عليها اسمها، وتشمل هذه البلاد سبع قواعد كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل ويسمى ملوكها بملوك أوزيلع. وقد كانت هذه الإمارات هدفاً لملوك الحبشة وقتاً طويلاً إذ قامت الحروب الدامية بين الطرفين لأسباب سنذكرها فيما بعد، وأهم هذه الممالك السبع هي:

أ ـ مملكة إيفات: ويطلق عليها إسم أوفات أو افات وهي شرقي شوا ومن مضافاتها مدنية زيلع وهي فرضه (ميناء) من فروض هذه البلاد وأهلها مسلمون ويتكلمون الحبشية والعربية.

ب ـ مملكة داورو: وتقع جنوبي أوفات وأهلها مسلمون حنفيون.

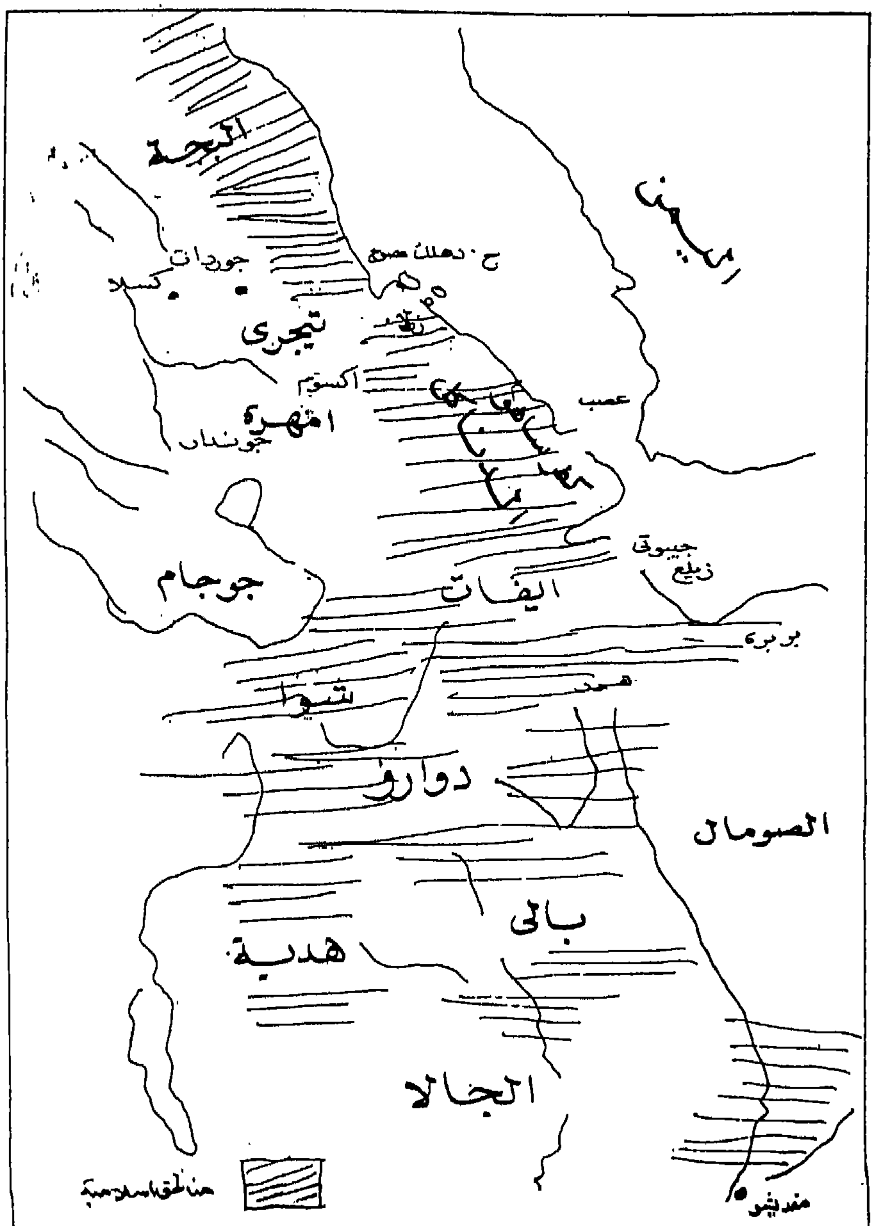
ج ـ مملكة أرابيني: وتقع في الشمال الشرقي وأهلها أيضاً مسلمون حنفيون.

د ـ مملكة شرخا: وتقع غربي أوفات وربما تكون هي نفس منطقة شاركا الواقعة في إقليم جوجام جنوبي الحبشة.

هـ ـ مملكة هدية: وتقع جنوب أوفات وملكها أقوى من ملوك الممالك الأخرى وأكثر خيلاً ورجالاً، وهي مركز من مراكز تجارة الرقيق.

---

(18) نفس المصدر، ص 97.



الامارات الاسلامية والحبشة

و ـ **مملكة بالي**: وهي تلي شرخا ويشتغل أهلها بالزراعة لخصب أراضيها.

ز ـ **مملكة داره**: وهي تلي بالي وتقع في الجنوب الغربي من بحيرة تانا[19].

وأكثر ملوك هذه الممالك يأخذون الملك بالوراثة ومع ذلك فلا يستقل أحدهم بملك إلا من إقامة ملك الحبشة، وكان صاحب إيفات أكبرهم مكانة وأسبقهم إلى تكوين دولة إسلامية لذلك فالجميع متفقون على تعظيمه وينقادون إليه وكان كل ملك يؤدي لملك الحبشة قطائع مقررة تدفع له في كل سنة من القماش الحرير والكتان مما يجلب إليهم من مصر واليمن.

هكذا كانت علاقة ملك الحبشة مع أمرائه المسلمين والمسيحين علاقة ولاء فهم كانوا خاضعين له من الوجهة النظرية وهو الذي يعينهم ويقر تعيينهم وكان من حق هؤلاء الأمراء أن يعينوا أمراء من طرفهم خاضعين لهم وما دام الأمراء خاضعين للملك الشرعي فلا بد أنهم يرتبطون برباط الولاء لذا فهو يساعدهم في حروبهم التي يشنونها أو التي يشنها الخارجون عليهم من أمرائهم على أن يساعدوه إذا طلب منهم ذلك وأن يدفعوا له ضريبة الولاء[20].

مملكة اليفـــات:

اليفات هذه هي إحدى سبع ممالك إسلامية يحدثنا عنها الرحالة ابن فضل الله العمري، وقد أسس هذه الدولة قوماً من قريش يقال أنهم من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب وقد قدموا من الحجاز ونزلوا بأرض جبرت وهي أراضي زيلع واستوطنوها وأقاموا بمدينة أوفات إلى أن كان منهم عمر الملقب «ولشمع» الذي ولاه ملك الحبشة مدينة أوفات وأعمالها فحكم بها مدة طويلة ومات وترك

(19) Oliver (M) **History of East Africa,** OxFord 1963, P. 119.

(20) أحمد بن حسن الحيمي، سيرة الحبشة، ص 91.

أربعة أولاد أو خمسة ملكوها من بعده واحداً بعد آخر. وتولى أصغرهم صبر الدين في 700 هـ (1301 م) وخلفه عليها إبنه علي، ويظهر أنه أتى ما أغضب عليه الامبراطور الحبشي فقبض عليه وسجنه ثمان سنوات حيث أقام بدله ابنه أحمد ولكنه أعاده ثانية إلى منصبه، وقد أشرك علي بن صبر الدين ابنه اصفح في الحكم وترك له حرية التصرف فبدأت فترة الصراعات بين أفراد الأسرة المالكة وعملت على إضعاف الدولة[21] ورغم أن تاريخ هذه الدولة يمتد إلى القرن الرابع عشر فسنتابع ذكر أخبارها حفاظاً على الوحدة التاريخية على أن نذكر أهم أحداثها خلال الحديث عن الأسرة الحبشية الجديدة أي السليمانية.

كان أصلح بن علي يميل إلى الاشتغال بالعلوم الدينية فلقبه الناس بالملا وكان أصغر بنيه وأحبهم إليه فأغضب ذلك حق الدين الابن الأكبر وكان قد تركه أخوه في ايفات حينما سار إلى الامبراطور حين أمره بذلك فانصرف إلى العلم حتى صارت له مكانة عظيمة.

ويظهر أن حق الدين أبدى ما أغضب عمه أصفح فشكاه إلى أبيه فأرسله جده لجباية مال بعض النواحي وألزام تلك الجهة أن ينهره ويستخدمه فامتثل الأمر حتى جمع مالاً كثيراً وخرج على عمه والتف حوله كثيرون، فكتب هذا إلى الامبراطور طالباً النجدة، ولكن رغم المساعدة التي تلقاها إلا أن حق الدين استطاع أن يتغلب عليه ويقتله وسار إلى إيفات وفيها جده علي فأمره بطرده من البلاد فسار حق الدين إلى شوا وأقام في مدينة تدعى وحج وأنزل بها من اتبعه من أهل إيفات وأخذ في مناوشة الامبراطور حتى مات 1374 فخلفه سعد الدين أبو البركات محمد فحكم البلاد ثلاثين عاماً دأب فيها على توسيع نفوذه بإخضاع المقاطعات الجنوبية للحبشة ونزعها من ملكها حتى توفي عام 1403.

وكان الامبراطور داوود 1382 ـ 1411 قد سجن أباه أحمد بن علي

---

(21) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في الممالك والأمصار، جـ 1، نشر أحمد زكي باشا، القاهرة 1924، ص 90.

وجده علي ابن صبر الدين حاكم إيفات بسبب تمرد حق الدين وولى عليها فرعاً آخر من الأسرة وهم أولاد أزر بن بكر علي بن صبر الدين فحكموها وقد عاد إليها الهدوء بموت سعد الدين وهروب أولاده العشرة من البلاد إلى اليمن حيث أكرمهم ملكها الأشرف أحمد بن إسماعيل وأعانهم وهيأهم للرجوع إلى بلادهم فاستطاعوا النزول بها برئاسة أكبرهم صبر الدين في عام 815 هـ (1412 م) تجمع الناس حولهم لاسترداد ما فقدوه فاستمروا في نضالهم حتى مات صبر الدين في عام 1422 فخلفه أخوه منصور وساعده أخوه محمد ومات الاثنان في سجن ملك الحبشة في 1435 فخلفهما أخوهم الرابع جمال الدين فضم إليه بالي وهديه اللتين كانتا خاضعتان للحبشة وتدفعان لملكها جزية سنوية، وكان جمال هذا شديداً في معاملته ويصاحب الفقهاء فتأثر بهم، وكانت إيفات في ذلك الوقت تمر بفترة طويلة من الاضطراب والفوضى ساعدت شهاب الدين أحمد ابن بدلاي على أن يثأر لأخيه فقتل السلطان محمد بن أبي بكر بن سعد الدين عام 1437 وخلفه صهره محمد بن أبي بكر بن منصور وحكم لمدة سنة وقتله بعدها إبراهيم بن أحمد صاحب «ابت» وملك ثلاثة أشهر وقتله على أثرها عامل ملك الحبشة واستمرت الفوضى حتى أرسلت حكومة الحبشة جيشاً بقيادة الجرد الذي استطاع أن يقضي على الفوضى وعمرت البلاذ في عهده وأحبه الأشراف والفقهاء والمشائخ[22]، ولكن هذه الفترة من الهدوء والراحة انتهت بقيام أبي بكر ابن السلطان محمد بن ازر الذي جمع حوله جموعاً من الصوماليين فانتصروا على الجرد وقتلوه وعادت الفوضى من جديد فالتف أهل البلاد حول أحد القادة العظام وهو أحمد بن إبراهيم الأشول وبوصوله بدأت مرحلة جديدة من الصراع بين المسلمين والنصارى الأحباش وهذا ما سنتناوله عند حديثنا عن الصومال في الفصل القادم.

---

(22) Oliver, P. 130.

ثانياً: الحبشة وشرق إفريقيا
فيما بين القرنين 13، 16

أولاً: الأسرة السليمانية والصراع مع الإمارات الإسلامية:

عند انتهاء عهد الملوك الأجاويين وارتقاء الملك يكونوا أملاك العرش في عام 1270 بدأ عهد الأسرة السليمانية، وقد استطاع هذا الملك أن يجذب إليه عمر ولسمع وهو من كبار تجار إيفات فعقد معه اتفاقاً يقضي بمساعدة ولسمع له في حروبه ضد الدولة الأجاوية لقاء توليته سلطنة إيفات وترك حرية العمل له في الولايات الإسلامية وأخذ الطرفان منذ عام 1270 يعملان على إخضاع جميع الإمارات الإسلامية التي ثارت على حكامها فأخذ الطرفان الامبراطور ولسمع يتآمران على دولة شوا الإسلامية بالتدخل بين أمرائها المسلمين المتنازعين على العرش حتى إذا سنحت الفرصة المواتية تقدمت جميع جيوش إيفات بقيادة صبر الدين ابن عمر ولسمع وبمساعدة الامبراطور للقضاء على هذه الدولة وتم لهما ذلك في عام 1288.

وكان الملك يكونوا املاك يكره العرب والمسلمين وهاجمهم أينما وجدوا وكبدهم خسائر كبيرة، وتحاول بعض المراجع الأجنبية أن تنفي أن الدوافع الدينية وراء هذه التصرفات والمشاعر وأن سببها سياسياً محضاً(23) ولكن المتتبع لأحداث هذه المرحلة يلاحظ أن الغيرة الدينية والتعصب الأعمى الذي غلب على تصرفاته وتصرفات من جاءوا بعده قد طبعت هذه المرحلة بطابع الصراع الديني ويمكن اعتبار الحروب التي شنوها ضد المسلمين هي بمثابة حروب صليبية.

وقد خلف يكونوا على العرش ابنه يجيبيا حيون 1285 ـ 1294 وبدأ

---

(23) Simmons, **A History of Islam in East Africa,** P. 113.

عهده بتجريد حملة ضد سلطنة عدل (زيلع) وانتهت بقبوله عقد هدنة مع جيرانه الأقوياء كذلك اتصل بسلطان مصر قلاوون يطلب منه إيفاد مطران مصري لأن المطران السوري الذي عينه والده لم يستطع القيام بأعباء الكنيسة الحبشية على الوجه المطلوب فاستجاب قلاوون لطلبه[24]. وكان لهذا الملك خمسة أولاد اتفق معهم أبوهم قبل وفاته على أن يحكم البلاد كل واحد منهم سنة بالتناوب. وليس هناك دليل على ما كانت عليه البلاد من فوضى وضعف أبلغ من هذا الدليل ولكن خامسهم وهو «ودام ارعد» استطاع أن يحكم تسعة عشر عام 1294 ـ 1312 ولكن بعد إيقاعه بإخوته واحداً إثر الآخر، وقد خلفه ابنه عمد أحيون الأول 1312 ـ 1344 الملقب بجبرا صقال، وهو أحد الأباطرة ذوي الشأن العظيم في تاريخ الحبشة ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي لها، إذ أخذت الدولة في عهده تثبت أقدامها وتوسع رقعتها وأصبح الحكم في الأسرة السليمانية مستقراً، وقد تمكن من بسط نفوذه على مقاطعة جوجام التي يحيط بها النيل الأزرق وتخطى نفوذه هذا النهر إلى إقليم بيجمدار ووطد بذلك أقدام مملكة الحبشة وأصبح متفرعاً وقادراً على توجيه اهتمامه نحو مواجهة زحف الحكام المسلمين وامتدت حروبه إلى السلطنات التي تحيط بمملكته من الشرق والجنوب وضيق على حركة التجارة وبالذات تجار عدل فقاموا بقيادة صبر الدين بالثورة وقتلوا موظفاً حبشياً مكلفاً بتحصيل المكوس ومراقبة التجار كما قتلوا كثيراً من الأحباش الآخرين، ويظهر أنهم كاتبوا حاكم مملكة هديه فخرج معهم ولم تكد هذه الأخبار تصل إلى الامبراطور حتى أسرع في عام 1328 وسار إلى هدية فقبض على حاكمها وأرسله إلى العاصمة بينما تابع سيره إلى صبر الدين ففر أمامه فدخلت الجيوش عاصمته أوسا وخربتها وحملت ما بها من غنائم[25]

---

(24) للمزيد من المعلومات راجع:

ـ يونس سعد، **الحبشة في منقلب من تاريخها**، القاهرة 1966.

(25) راجع: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **الإلمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الأسلام**، ص 94.

وما كاد الملك ينتهي من هذه الحملة حتى خرج التجار وأغاروا على شرقي الهضبة كما هاجموا على حدود إيفات حيث وجدوا ناقلة من التجار الأحباش فذبحوا منهم عدداً وحملوا الباقين أسرى وأعادوا الكرة أكثر من مرة. فخرج إليهم الملك مرة ثانية غير أن وجود الملك في هذه الصحراء المحرقة أعطى جمال الدين حاكم عدل فرصة لا تعوض، فكاتب حاكم إيفات وهو علي بن صبر الدين وصمما على أن يهاجما الملك وكتب جمال الدين لعلي يقول: «إن ملك الحبشة محصور في جبل لا يستطيع الإفلات منه، وحينئذ يمكنك عمل أحد أمرين إما أن تقدم له الهدايا الفاخرة وفي هذه الحالة يتحتم عليك أن تكون له خادماً، أو أن تتصرف بحكمة فتجمع رجالك القادرين على القتال وسألحق بك بفرساني ومشاتي وننقض عليه ونقتله وجيشه بضربة واحدة»[26]، فاستجاب حاكم إيفات وهجما على الملك إلا أنهما منيا بالهزيمة.

وإذا كانت الأمور قد اضطربت في عدل ومارا وهي أقاليم ساحلية كانت هدف التجار العرب، فقد كانت أمور إمارات الطراز السبع الأخرى تسير في غاية الهدوء والاستقرار إلا إذا استثنينا محاولة خروج علي بن صبر الدين السابقة الذكر، ولا بد أن شعوب هذه الولايات قد شعرت بالاستقرار تحت ظلّ الأسرة السليمانية وشعرت بتنامي مصالحها.

وفي تلك الأثناء أي فيما بين عامي 1332 ـ 1338 أرسل التجار العرب بالمنطقة وفداً إلى سلطان مصر تحت زعامة عبدالله الزيلعي لكي يتدخل السلطان الناصر قلاوون لإيقاف هذه الحملات الموجهة إليهم وأفادته بأن حروب الامبراطور ما هي إلاّ تضييق عليهم، ولكن هذا الخبر مشكوك فيه وهناك من يرى أن ثورة سلاطين عدل لم تكن محاولة للاستقلال عن الدولة كما أنها لم تكن ثورة ضد خطوات اتخذها هذا الملك للحد من نشاط تجارة الرقيق بقدر ما كانت لمهاجمة أواسط الهضبة بناءاً على تحريض التجار اليمنيين الذين يتعاملون

(26) نفس المصدر.

معهم ليتملكوا مصادر العاج والجلود والصموغ والتوابل والذهب التي تكمن هناك بمقادير كثيرة[27].

أما فترة حكم الملك نوايا كريستوس 1344 ـ 1373 ففيها تم القبض على التجار المصريين وأرسل هذا الملك جنوده لمنع القوافل المصرية من دخول الحبشة حين سمع أن سلطان مصر يشدد في طلب الضرائب من الأقباط وسجن بطريركهم مرقص الرابع فأصيبت التجارة في مصر والحبشة بضربة شديدة حتى ارتفعت أصوات المصريين بالشكوى فلم يسع السلطان إلا إطلاق سراح البطريرك وأرسل من يحمل إلى الامبراطور نبأ هذا الاطلاق لتعود التجارة.

ولقد استفاد الملك إسحاق 1414 ـ 1427 من عهد الوضى الذي سبق فترة تولي السلطان برقوق بمصر، ففي فترة التنامي السياسي بين المماليك هاجر عدد منهم من مصر وهرب حكام الصعيد إلى الجنوب كما هي عادتهم، فوصل إلى الحبشة اثنان منهم استخدمهما الملك إسحاق في تنظيم الجيش الحبشي وتدريب جنوده على استعمال النفط، وكان أحدهما يدعى طالب آغا حاكم قوص بصعيد مصر، فأنشأت الورش التي تصنع السيوف والدروع والآلات ووضع نظام الضرائب وأشرف على تجديد الإدارة بشكل لم تعرفه البلاد من قبل[28].

ولكن الحروب التي استمرت طوال عهده تقريباً لم تكن إلا لتزيد إرهاق الأهالي وتخريب أملاكهم بواسطة أي الفريقين المتحاربين، لذا كانت الحبشة طوال هذه الفترة في حالة يرثى لها من الفقر والاضطراب، وزاد من سوء هذه الحالة عدم استقرار الملوك الذين خلفوا إسحاق الذي قتل في الحرب عام 1427 حيث تبعه ابنه أندراوس فلم يحكم إلا نصف سنة وليخلفه عمه تكلا مريم

(27) زاهر رياض، تاريخ أثيوبيا، ص 113.

(28) Barth (L) **Les relations entrl'Egypte et L'Afrique de L'Est,** Paris (SP) 1970, p. 120.

ليحكم ثلاث سنوات ثم خلفه ابنه سرياسوس فحكم ثمانية أشهر ويليه أخوه عمداياسوس حيث حكم ثمانية أشهر أخرى قاست الحبشة خلالها كثيراً من عدم الاستقرار(29).

ولا عجب أن يشعر زرء يعقوب الابن الرابع لداوود وشقيق إسحاق وتكلا مريم والذي حكم من 1434 ـ 1468 أن بلاده في حاجة شديدة إلى كثير من التنظيم فأقدم على إحداث مجموعة من الاصلاحات رفعته إلى مصاف عظام الملوك، فمن الناحية الدينية جعل نفسه على رأس الكنيسة وجعل أملاكها تحت إشرافه، وعيّن موظفاً خاصاً مهمته تعقب غير المسيحيين في الأقاليم الخاضعة للحكم المسيحي والتبليغ عنهم لمحاكمتهم، كما عيّن إلى جانب الأمراء والسلاطين موظفين خاضعين له مباشرة لحكم المقاطعات وتلقي أوامر الحكومة وتنفيذها وليرفعوا إليه كل ما يرونه مخالفاً لهذه الأوامر وأطلق على هؤلاء الموظفين لقب (جراد) وكانوا من الطبقة العسكرية ومن سلطاتهم حقوق مصادرة أملاك من لا يخضع لأوامرهم وكل هذا ليحدّ من سلطة الأمراء وليركز السلطة في يده.

وكان من الطبيعي ألا تقابل هذه الخطوات بالرضى من كافة الطبقات ولا سيما من هؤلاء الأمراء الذين التفوا حول ابنه ينيد مريم ووالدته ماجوسا ورفعوا راية العصيان وكان على رأس العصاة «ماهيكو» نائب الملك في هديه فأسرع، فبادر الملك إلى القبض على زوجته وابنه وزجّ بهما في السجن ثم أسرع الملك إلى هديه أهلها وقدموا ولاءهم له وفر زعيم الثورة إلى عدل فتبعه جنود الملك وقتلوه.

وإزاء قوة الثائرين التي بدأت منذ ثورة حق الدين ابن أحمد ضد جده

---

(29) للمزيد من المعلومات عن هذه الفترة انظر:

Eliot, The East Africa.

علي بن صبر الدين التي استمرت خمسين عاماً يقودها أبناء سعد الدين متوالين دون أن يتمكن سلاطين إيفات من سحقها رغم مساعدة الدولة لهم، رأى زرء يعقوب ضرورة الاستعانة بقوة خارجية إلا أنه عدل عن رأيه حيث تمكنت قواته من القضاء على آخر أبناء سعد الدين وذلك في عام 1430 م.

وبوفاة زرء يعقوب عام 1468 أنهى عهد الأسرة السليمانية لتبدأ مرحلة جديدة حيث تولى ابنا بنيدا مريم الحكم واستمر حتى عام 1478 وأول عمل قام به هو إطلاق سراح جميع المعتقلين الذين اشتركوا معه في الثورة على أبيه وكان من الطبيعي أن يخضع لهم وينفذ أوامرهم التي تهدف إلى استعادة نفوذهم القديم فأعاد تقسيم الدولة القديم وعيّن حكاماً (راس) جدد على جميع المقاطعات فكان ذلك إيذاناً ينمو سلطة الأمراء من جديد محاولين استعادة امتيازاتهم القديمة التي تمتعوا بها قبل عهد أبيه، وتولى بعده مجموعة ملوك كان أهمهم لبنادنجل الملقب بذاود الثالث 1508 ـ 1540 الذي كانت قوته مقسمة بين القضاء على الأمراء المسيحيين المناوئين له وعلى مسلمي الولايات الشرقية بعد أن غيروا سياستهم مع ملوك الحبشة وأصبحوا يقفون منهم موقف العداوة الصريحة بزعامة الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول والملقب بالجراني الذي خاض حروباً مريرة ضد الأحباش كللت بالنجاح، فلم يمض عام 1540 حتى كان العرب قد جعلوا من أنفسهم سادة على الحبشة كلها وهذا ما سوف ندرسه بشيء من التفصيل في الفصل القادم عن الصومال.

لقد لعبت الملكة الينى (هلينى) وفي المصادر العربية رومانة، زوجة بيند مريم، وكانت عربية الأصل ووالدها هو حاكم دوار دورا هاما في أحداث البلاد وكان لها أثر كبير في إدارة الشؤون السياسية والدينية في الحبشة فترة طويلة وكانت عربية مسيحية ولكنها كانت تحن إلى أصلها العربي وتتمنى أن تتحسن العلاقات بين ملوك الحبشة وملوك عدل ولكنها اضطرت بحكم الظروف القائمة آنذاك أن تناصب الأمراء والمسلمين العداء وقد ساعدت هي والمطران مرقص لبنا دنجل على تولي العرش وكان صغير السن فقامت بإدارة البلاد وأخذت ترشد

الملك وتوجهه ولكن الجهود السليمة التي قامت بها قد أخفقت[30].

وقد فكرت في الاتجاه إلى مصر كحليف طبيعي، ولكن حالة مصر في هذا الوقت لم تكن تساعدها على مد يد المساعدة المطلوبة فلقد كان السلطان الغوري يعاني من آثار هزيمة أسطوله في موقعة (ديو) أمام البرتغاليين في عام 1509 فقبض البرتغاليون على التجارة الهندية خصوصاً بعد أن استولوا على عدن في عام 1513 واحتلوا جزر قمران ودهلك ثم مضوع فيما بعد[31].

وفي عام 1516 جرّد لبنادنجل حملة ضد محمد ملك عدل وهزمه وغزا عدن وأحرق المدن وخرّب القلاع، وقد حاصر المسلمين في مكان ضيق من الوادي بين عدل وفيطيجار وقتل منهم أعداد كبيرة، وفي تلك الأثناء كان البرتغاليون قد جردوا حملة على زيلع وأحرقوها وانهزم قنصوه الغوري آخر سلاطين مصر في موقعة مرج دابق أمام الجيش العثماني، وكانت الملكة تهدف إلى التحالف معه، وأرسل السلطان قائده سنان باشا في حملة إلى بلاد العرب وأخضع حكامها وعيّن حكاماً من الأتراك وكان ذلك باعثاً على قلق الأحباش وأمراء عدل فبادروا إلى توثيق الصلات مع الأتراك وقد وجد الأتراك في ذلك منفعة لهم ليستفيدوا من خبرة تجار عدل في التجارة وأساليبها في هذه البلاد، وكان الأتراك قد استولوا قبل ذلك على جزيرة زيلع حيث أسسوا بها أسطولاً يهاجمون به السفن التجارية المناوئة وهذا ما حفز أمراء عدل على التفاهم معهم[32]. أما الملكة اليني فقد رأت ضرورة وجود حلفاء لها فأرسلت إلى قنصوه الغوري قبل محاربته سليم الأول ولكنه سرعان ما قتل واجتاح الأتراك

---

(30) فتحي غيث، 113.

(31) للمزيد من المعلومات عن محاولات البرتغال التوغل في الساحل الشرقي لإفريقيا، انظر:

Duffy James, **Portuguesè Africa,** London, 1969.

(32) Bernard (L) **La, politique Turque en Afrique, Paris,** 1962, P. 119.

بلاده فتطلعت الملكة إلى البرتغاليين بعد أن تحولت الحروب في الحبشة من مناوشات يقوم بها ثائرون صغار أو تجار رقيق محليون إلى حروب دينية تجمع المسلمين في قوة متحدة جبارة لمنازعة القوة المسيحية في البلاد التي استعانت بالبرتغاليين في صراعها ضد القوة الإسلامية، كان ظهور الأتراك والبرتغاليون بالقرن الإفريقي ظاهرة خطيرة عملت على إذكاء نار العداوة والتعصب الديني بالمنطقة فقد أخذ كل طرف منهما يعمل على السيطرة على شرق إفريقيا والحبشة محاولين سدّ الفراغ الذي خلفه انسحاب مصر من المنطقة عقب هزيمة أسطولها وسقوطها في يد الأتراك عام 15/6، فبانتصار الأتراك على السلطان قنصوه الغوري وسيطرتهم على مناطق الوطن العربي أصبحت منطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقي مسرحاً لنشاطهم، وقد حاولوا فرض وجودهم ووراثة مماليك مصر في التجارة الشرقية. وكان البرتغاليون يناصبون الأتراك العداء ويقاسون من سطوتهم ووقوفهم تجاه مطامعهم في البحر المتوسط، ولما استطاع فاسكو دي جاما اكتشاف الطريق إلى الهند، وجد أن المسلمين يسيطرون على طرق هذه التجارة وهم المحتكر الوحيد لها، وأنه بدون القضاء عليهم لا يمكنهم تحقيق مطامعهم فتجارة الهند كانت في يد المسلمين في بلاد العرب منذ قرون ويعتمدون على تأييد سلطان مصر الذي حصل على مكاسب ضخمة مما يجبيه من ضرائب على البضائع الهندسية التي تمر ببلاده ليشتريها البنادقة غرماء البرتغال لتوزيعها في أوربا، ولم يكن من المنتظر أن يسمح السلطان بسهولة بزوال هذا الاحتكار وكانت لديه قوة بحرية كاملة التسلح.

وصمم ملك البرتغال عمانويل على الفوز بسيادة البحار فجهز قواته البحرية وأغدق عليه الباب لقب «سيد الملاحة والفتح والتجارة في أثيوبيا وبلاد العرب وفارس والهند» وبرز من قباطنته اثنان هما فرانسسكو دي الميدا والفونسو دي البوكيرك وقد لعبا دوراً بارزاً في بسط نفوذ البرتغال بالمشرق.

أسس البرتغاليون مراكزهم الهامة في كلكتا وجوا في شرقي الهند وغربها

ومنها تحركت أساطيلهم للسيطرة على البحار فاستولوا بقيادة الميدا على سقطرى وهرمز اللتان تحرسان مداخل البحر الأحمر والخليج العربي، ثم جاء بعده البوكيرك الذي ضرب عدن بالمدافع. ونشبت المعركة الحاسمة بين الميدا والأسطول المصري في براير 1509 أمام ميناء ديو انتصر فيها البرتغاليون انتصاراً حاسماً وأبادوا الأسطول المصري، فخلا الجو للبرتغاليين وتسليم البركيرك القيادة وأخذ يعمل على الاستيلاء على جميع النقط الاستراتيجية حيث يمهد للاستيلاء على عكا ومصر لاستعادة بيت المقدس والأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، ورغم ضخامة هذه الأعمال فإنها تدلّ على مغزي كبير وهو أن قادة البرتغال لم ينشوا بعد الأفكار الصليبية بل اعتبروا أنفسهم مكلفين بأخذ الثأر للحملات الصليبية الفاشلة لحملوا لواء الأهداف التي عجز عن تحقيقها ملوك أوروبا الصليبية السابقين[33]، ورغم عدم تمكن البرتغاليين من تحقيق هدفهم هذا إلا أنهم تمكنوا من تحقيق عمليتين هما: تطويق البلاد الإسلامية بالاستيلاء على منافذ الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي ثم تحطيم الأسطول المصري بحيث لم يعد له أي قيمة حربية وتذكر المصادر أن قادة البرتغال في حملاتهم البحرية كانت تدفعهم الآمال للالتقاء بالملك القس يوحنا[34].

وبدأ البرتغاليون في محاولة اجتذاب الحبشة إليهم فتوالت وفودهم إلى ملوكها وكان أول رسول هو (كوفلهام) الذي وصل إلى البلاد عام 1508 فاستقبله الامبراطور أحسن استقبال ولكنه منعه من الخروج من البلاد استجابة لدسائس من كان حوله من أجانب فمكث بها وتزوج من حبشية وأصبح له مركز ممتاز، وأصبح حلقة وصل بين دولته البرتغال والحبشة وتوجت تلك الجهود بطلب كل من الملكة الييني والامبراطور معونة البرتغال لمحاربة القوى الإسلامية

---

(33) Duffy P. 112.

(34) انظر: صفي الدين محمد، إفريقيا بين الدول الأوربية، القاهرة 1955، ص 67.

بزعامة أحمد بن إبراهيم الأشول الذي أعلن الحرب المقدسة على ملوك الحبشة[35].

وتمكن البرتغاليون من تعزيز مركزهم على الشواطىء البحرية بساحل إفريقيا الشرقية والقرن الإفريقي وأصبحت لهم السيطرة الفعلية على الخليج العربي والبحر الأحمر، وعندما استولى العثمانيون على العالم العربي لم يتمكنوا من تحسين موقفهم تجاه البرتغال وظهر ذلك واضحاً بعد فشلهم في حصار ديو في عام 1528.

ومنذ تلك اللحظة بدأ كل من البرتغاليين والأتراك في تركيز ثقلهم على الحبشة ومسلمي دول الطراز لاجتذابهم إليهم وبدأ الصراع يأخذ طريقه بين الحكام المسلمين في صراعهم ضد ملوك الحبشة وبين الملوك الأحباش وأمراء الطراز، وعمل الطرفين أي البرتغاليين والأتراك على تسليح من يناصره في عدائهم بأحدث الأسلحة، وكان من الطبيعي أن يصبح الصراع بين ملوك الحبشة وأمراء الطراز الإسلامي متسماً بالطابع الديني والذي أخذ كل من البرتغال والدولة العثمانية تذكى نيرانه، فما أن بدأت ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم حتى بدأت الاضطهادات الدينية الكبرى تأخذ مكانها في بلاد الحبشة.

لقد ظلت الحبشة عقب هذه الأحداث في اضطراب فترة من الوقت لم يقتصر الأمر فيها على الاشتباكات بين الملك والسلاطين، بل نشطت في البلاد حركة قطاع الطرق مما صرف الملوك والسلاطين إلى بذل جانب كبير من جهودهم للقضاء عليهم.

ويعتبر عام 1520 عاماً حاسماً في تاريخ المنطقة حيث نقل فيه السلطان أبو بكر بن محمد عاصمته إلى مدينة هرر وكون جيشاً من الصوماليين استولى به على زيلع وقتل أميرها في عام 1525 واستمرت الاضطرابات وبدأ يظهر الإمام

---

(35) Bernard, P. 129.

أحمد بن إبراهيم الذين خاض حروباً ضارية ضد الامبراطور والممالك المسيحية، حتى سيطرت الجيوش الإسلامية بزعامته على بلاد الحبشة كلها وأصبح امبراطورها تعبيراً لا حقيقة وأخذت المسيحية في الانهيار تحت ضغط وانتصارات المسلمين المتوالية، ولم تكد تهلّ سنة 1540 حتى كانت جيوش الإمام قد اجتاحت الحبشة كلها وأصبح الامبراطور فاراً طريداً من بلد إلى بلد وهو يقاسي ومعه من جنوده وأنصاره الجوع والعطش حتى توفى وهو في أسوأ حالات البؤس والعوز[36]. أخذ الإمام أحمد يتصرف في الحبشة كلها تصرف الملك المستقل صاحب الأمر والنهي، وأخذ يرسل الولاة من قبله إلى بقية أجزاء البلاد لفتحها وإخضاع أهلها وجمع الأموال منهم أو الاتفاق معهم على طريقة آدائها فأرسل إلى بيجمدار الأمير مجاهد فتمّ له فتحها واتفق مع أهلها على أن يظلوا في أراضيهم يزرعونها لقاء خراج سنوي، كما ولى صبر الدين على إقليم سمن حيث أخذ في تشييد المباني والمساجد بها، وولى علي على درجة حيث سار سيرة صبر الدين في التعمير وبناء المساجد، كما ولى الأمير حسين على دوارو، وولى الجرد صديق بن علي على شرخا وولى علي بالي عمر أخ الوزير علي، أما هو فقد استقرّ في دمبيا التي اشتهرت بكثرة خيراتها فاتخذها عاصمة له ولم تكن سنه آنذاك تزيد على الأربعة والثلاثين عاماً[37].

ولكن تطورت الأحداث المتمثلة في دخول البرتغال حلبة الصراع وتفوق الأسلحة النارية المتطورة التي استخدمها هؤلاء في مناصرتهم للامبراطور وتحقيق بعض الانتصارات على قوات الإمام وابنه ـ كما سنرى في الفصل القادم ـ غيرت هذا الوضع وبدأت قوات الإمام في التراجع، وبموته فقد الثائرون قلبهم النابض فدارت بهم الهزيمة وقتل منهم عدد كبير وتفرقت جيوش المسلمين في أكتوبر 1543، وبذلك تغير مجرى التاريخ في الحبشة، وظهر أثر

(36) راجع حروب الإمام أحمد ضد الحبشة في الفصل القادم عن الصومال.
(37) تقي الدين أحمد المقريزي، ص 119.

هذا الانتصار سريعاً في البلاد حيث أخذ المسيحيين الذين انضموا إلى صفوف الإمام في إظهار مسيحيتهم، كما أخذ الزهبان ورجال الدين في الظهور واستعادة حياتهم الأولى.

وفي هذه الحقبة التي وصلنا إليها من التاريخ شرق إفريقيا أخذت تطغى قبائل الجالا على مسرح الأحداث وأصبحت أحد العناصر الهامة التي يتكون منها سكن الحبشة وتميزت بكثرة العدد وانتشارها في مساحات واسعة في أغلب المناطق.

كما سبق وأن ذكرنا، فإن الشعوب الحامية بالقرن الإفريقي تفرعت إلى ثلاث فروع كبرى هي الصومال وعفر ساهو والجالا وسرعان ما نشأت بينهم نزعة إلى التنافس والاستئثار بمناطق الرزق وأدّى هذا التنافس إلى اضطرار قبائل الجالا التي أخذت تتكاثر بشكل كبير إلى الهجرة إلى داخل الحبشة.

بينما تأثرت قبائل الصومال وعفر ساهو بالثقافة السامية واختلطت بالعرب واعتنقت الإسلام منذ ظهوره، وبقيت قبائل الجالا تسيطر عليها الطبيعة البدوية مما جعلها بعيدة عن التأثر بالأديان أو الحضارات المتقدمة وبقيت عدة قرون في وثنية وهمجية منعزلة عن جيرانها[38].

وعندما أسلمت قبائل الصومال وعفر ساهو أصبحت في القرن السادس عشر قوة متماسكة تمكنت من دفع أبناء عمومتهم الجالا إلى المضي في هجرتهم إلى الشمال وفي نفس الاتجاه الذي اتخذته الحروب الإسلامية من الصومال والشواطىء إلى داخل الحبشة، وكان دخولهم للحبشة نتيجة لضغط قبائل الصومال التي تعيش في المنخفضات الساحلية من الجنوب عن طريق وديان نهري جوبا ووالبي شابيللي، واستقروا في الأجزاء المنخفضة الشرقية والجنوبية والغربية يعيشون حياتهم القبلية السلمية، حتى إذا هزمت الجيوش الإسلامية

(38) Jean (CL) P. 75.

وتفرقت فأحدث ذلك فراغاً حاولت هذه القبائل أن تملأه فأخذت تسكن الأقاليم القليلة الارتفاع المحصورة بين هرر ووادي نهر أواش، كما أغرتهم خصوبة بالي وكثرة الأعشاب بها فاتجهوا إليها، وكذلك عبروا نهر أواش واتجهوا إلى الأقاليم المنخفضة المحصورة بين البحر الأحمر والحافة الشرقية للهضبة وهي إقليم الدناكل(39).

ولقد امتلأت بهم مقاطعات العروس وهرر وامتدوا إلى نهر ديدسا وسيطروا في طريقهم على مقاطعة سيداما، بينما بلغت موجة هجرتهم مداها في مقاطعتي شوا واللو في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر في موجات متتالية حيث عاشوا حياتهم منفصلين عن المجتمع الحبشي، وسرعان ما استقرت قبالهم في هذه المقاطعات المختلفة وتركوا حياة البداوة وأصبحوا يعملون في الزراعة وتربية المواشي، ومنذ عهد هذا الاستقرار أخذ الإسلام ينتشر بينهم.

وخلال الأحداث ازسلاميّة الحبشية السابقة كانت قبائلهم المشتتة قد بدأت تتجمع ووجدت فرصتها الذهبية في ملىء الفراغ الذي حدث بعد حروب الإمام، ولم يكن غزوها للبلاد على هيئة هجرات غزيرة الأعداد في مبدأ أمرها تشن غارة على جارتها ثم تعود بسرعة، وبعد قليل من الوقت كبرت هذه الغارات وأصبحت حروباً احتلت فيها كثيراً من الأقاليم الحبشية كما ذكرنا، وبالرغم من هزيمتها في بعض المعارك إلا أن هذا لم يؤثر كثيراً في عملية الزحف التي قامت بها فاستولت على دوارو وبالي عامي 1545 ـ 1547، وبدأ توغلهم السابق ذكره.

وفي نفس الوقت أخذت سلطنة هرر وقواتها في الاضمحلال وكانت قد أنهكتها حروب الإمام فلم تعد تقوى على الصمود أمام زحف الجالا الذين

---

(39) Despois (L) P. 123.

قطعوا الطريق بينها وبين زيلع وبذلك ساءت حالتها التجارية، ولكن الأمير عثمان حاكم هرر تمكن من إنقاذ الموقف بأن عقد معاهدة مع الجالا صرح لهم فيها بارتياد أسواق هرر، فكانت هذه الاتفاقية فاتحة لترويض الجالا ودفعهم إلى طريق السلام والتفاهم، وبعد سلسلة من القلاقل الداخلية القصيرة الأمد استتب الأمر وبدأت الأحوال في عهد الأمير محمد الخامس الذي سرعان ما راودته فكرة الحرب فجهز جيشه وتقابل مع قوات ملك الحبشة عام 1577 في معركة كان نصيبه فيها الهزيمة والفشل، وكانت هذه هي خاتمة القوة العسكرية لهرر التي لم تقم لها قائمة فيما بعد[40].

وبينما كان جيش هرر يخوض هذه المعركة، انتهزت الجالات الفرصة وأغارت على حدودها وحطمت ما يفوق عن مائة قرية وحاصرت المدينة نفسها، ومنذ ذلك العهد وهرر شعباً وحكاماً يعيشون تحت تهديد دائم من قبائل الجالا.

وخلال تلك الفترة التي قاست فيها هرر ما قاست من هزيمة وتشتت كانت الحبشة مشغولة بأحداثها وحروبها مع قبائل الجالا والأجاو والفلاشا اليهود وسيداما، ثم بعد ذلك وقعت الحروب بينهم وبين الأتراك في مصوع وانتهت بعقد صلح انسحب بعده الأتراك بعد أن اكتفوا بتعيين نائب في مصوع وحرقيقو مع بقاء هذه المنطقة تابعة للحكم العثماني.

وسرعان ما دبّ الخلاف داخل المملكة الحبشية وعادت المنازعات القديمة بين الأمراء الذين أخذ كل منهم ينزع إلى الاستقلال في الوقت الذي كانت فيه الدولة تحت تهديد دائم من قبائل الجالا، وبذلك سادت الحبشة كلها بمناطقها الإسلامية والمسيحية مرحلة جديدة من الاضطراب والعزلة وانقطعت أخبارها عن العالم مدة قرنين من الزمن كانت البلاد فيها نهباً للاضطراب وتنافس

---

(40) تقي الدين أحمد، ص 123.

الأمراء وتفتت البلاد إلى عدد كبير من الإمارات التي ظلت تتنازع الواحدة منها الأخرى إلى منتصف القرن التاسع عشر حين خرجت الحبشة من عزلتها مرة ثانية في عهد الملك ثيودور.

الفصـــل الخامـــس

الصومـــال

الصومـــال

أولاً: مرحلة ما قبل الإسلام

لم يتم حتى الآن الكشف عن أصل الصوماليين وتاريخهم القديم بشكل علمي واضح، فقد اختلطت آراء علماء الانتروغرافية والمؤرخين وتضاربت متأججة بين اتجاهين متضاربين، وقد نشأ التضارب حول حقيقة صوماليين اليوم وهل هم من سلالة تلك الشعوب التي كانت تسكن البلاد في العصور القديمة، أم إن صوماليين اليوم لا يمتون للقدماء بصلة.

فبالنسبة لأصحاب الاتجاه الأول، فإنهم يؤكدون بأن أسلاف الصوماليين الذيني قطنون في الشمال الشرقي للقرن الإفريقي وبصفة خاصة على سواحل الصومال كانوا بالمنطقة منذ الفين أو ثلاثة آلاف عام على الأقل قبل الميلاد[1]، بينما يؤكد أصحاب الاتجاه الثاني بأن الصوماليين قد ظهروا في إفريقيا في العصور الوسطى ومنهم من يقول بأن ذلك كان في القرن السابع[2] بينما يرى آخرون بأنه كان في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر وقد كانوا إما من مهاجري العرب أو تخليط من شعوب شرق إفريقيا من هؤلاء المهاجرين[3].

وقد استند الاتجاه الأول على وثائق مأخوذة من الرسوم الموجودة على

(1) Smith, E, The history of Somal, Volii, London, H. World, 1959, P. 119.

(2) Martin (L) L'Histore du Somal, Paris, Part, 1962, P. 22.

(3) Mage, (O) Les tribus Somaliennes, Paris, 1960, P. 79.

أحد المعابد الفرعونية ومن الكثير من المخلفات الأثرية التي كشف عنها أخيراً.

بلاد بونت وهل هي الصومال:

في عهد ازدهار الامبراطورية المصرية وتحت حكم الأسرة الثامنة عشر بالقرن السادس عشر أرسلت الملكة المصرية حتشبسوت حملة تجارية إلى أراضي النجور والمر أي بلاد بونت رمزاً، وقد عادت سفن الحملة الثمانية محملة بنقوش جدارية بمعهد الدير البحر بالأقصر ومن بين هذه الرسوم رسمان أحدهما يمثل ملكة بونت وتصورها سيدة بدينة جداً ومشوهة الجسد وهي تحيي المصريين، والرسم الثاني لآن بونت وهو في ديارهم.

وقد بدأ المؤرخون والأثريون النقاش حول موقع بلاد بونت وانتهى الأمر إلى ثلاث وجهات نظر مختلفة:

1 ـ أن بونت تقع جنوب الجزيرة العربية.

2 ـ أنها تقع في الأقسام الشمالية للساحل الصومالي وخليج لمدن.

3 ـ أنها تقع على الأقسام الجنوبية للساحل الصومالي على المحيط الهندي في إقليم مدينة براوه ونهر والبي.

وقد مثّل التيار الأول الأثري الفرنسي لاروجيه والألماني بركش ومثّل التيار الثاني العلماء هيلد براند وماربييت وشوا ينفورت، بينما مثّل التيار الثالث العالم الفرنسي ريغويل[4].

ولكن هناك العديد من العلماء من يستندون إلى الرأيين الأخيرين أو على أحدهما ويظنون أن بلاد بونت كانت تلك المناطق التي تسكنها اليوم القبائل الصومالية مستندين على رسوم الدير البحري، وفي أن سكان بونت القدماء يشبهون كثيراً في مظهرهم وملابسهم الصوماليين اليوم، لذا فلا بد وأن يكون

---

(4) راجـع: Etudes Arriologique, U.NC.O. VolII, P. 220.

الصوماليون من سلالة بونت القديمة التي كانت قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد، ولما كانت بونت في ذاك الوقت قد دخلت عصر استخدام المعادن فإن أصل الإقليم الصومالي طبقاً للمخلفات الأثرية إنما يرجع إلى فترة 3500 إلى 3600 قبل الميلاد حيث ظهرت أول حضارة قديمة[5].

وأتباع هذا الرأي ـ بخلاف رسوم الدير البحري ـ يعتمدون على الكثير من تلك المخلفات الأثرية وقد كشف العالم حويلان بالقرب من غرشق على مخلفات وخرائب مدينة قديمة، بينما وجد هيلبرانت في نفس الموقع مخلفات زجاجية لأدوات منزلية وأكواب مطليّة ومزهريات من الحجر والمرمر وأساور من الزجاج والعديد من الأحجار الكريمة واللآلي، كما عثر ريفول في نفس المنطقة على بقايا مقابر دائرية الشكل والتي كوِمت عليها الأحجار بشكل ركام هرمي تناثرت حولها قواقع وعظام أسماك، وقد اختلطت ببقايا الأدوات المستخدمة بالمنازل وهي من الأحجار والبرونز والحديد[6].

أمّا أصحاب الرأي المخالف أي إن الصوماليين هم هجرة حديثة عبرت البحر من الجانب الآخر، فقد انتقدوا الآراء المستوحاة من تلك المخلفات مستندين على مبررين هما:

1 ـ إن المخلفات الأثرية التي عثر عليها بإقليم السواحل تؤكد بأن الجالا قد عاشوا حول زيلع وفي أقسام من الساحل الصومالي الواقعة على المحيط الهندي.

2 ـ إن الصوماليين أقرب منهم اختلاطاً مع العرب عنه مع الجالا.

والرأي الأخير يتفق بين ما يتفق عليه مع الأساطير الصومالية القائلة بأن أسلافهم قد قدموا من الجزيرة العربية[7].

---

(5) نفس المصدر، ص 229.

(6) نفس المصدر، ص 270.

(7) Mage, P. 91.

الأصول العربية للصومال:

إن الشعوب الصومالية أو على الأقل قسم منهم قد عبروا بدون شك من جنوب أو جنوب غرب الجزيرة العربية إلى إفريقيا وإنهم قد دفعوا شعوب الجالا نحو الغرب أو نحو الجنوب الغربي والذين كانوا في القرن الخامس عشر يعيشون على شواطىء المحيط الهندي، ومن هذين العنصرين من الجالا والصومال، ظهر الأخيرون في وقت متأخر في إفرقيا، هذا وإن القبور والمباني الحجرية المميزة تذكرنا بالجالا وقد عثر عليها في تلك الأماكن الواقعة في الشمال الشرقي والتي لا يسكنها الجالا اليوم.

وقد اتخذ أصحاب الاتجاه الثاني من الدلائل التي تدعم رأيهم مستندين على الأدب والفولكلور الشعبي الصومالي نفسه، فهناك من الأساطير التي رواها الصوماليين أنفسهم عن أسلافهم المهاجرون من الجزيرة العربية وقد نشرت أول أسطورة ذاع صيتها بين صوماليين الشمال في عام 1866 وهي تقول:

«في زمن النبي محمد ﷺ فإن إسلاف الصوماليين اليوم وهي قبيلة عربية عاشت في مكة، غير أن الخلاف دبّ بينهم وبين إحدى قبائل المسلمين الكبرى بمكة - بنو قريش - لذا أمرهم النبي بالهجرة وذلك تحت قيادة قريب لأبي بكر صديق النبي، فأبحروا عبر البحر الأحمر ورسوا على ساحل الصومال قرب رأس «جوارد أفو» وفي هذا المكان قامت إحدى مجموعاتهم بإنشاء مستوطنة وأقاموا العلاقات التجارية مع الحبش وساحل حضرموت ثم تزوجوا زوجات عربيات وأصبحوا أسلاف الصوماليين الحاليين «إلا أسلاف القبائل الشمالية وعند قدومهم كانت جميع البلاد خاضعة لبعض قبائل الجالا بينما القسم الآخر منهم توغلوا نحو الغرب، وقد تزوج هؤلاء نسوة من الجالا ومن سلالتهم صوماليي الجنوب»[8]، والشكل الآخر عن الأصل العربي للصوماليين يتركز في أسطورة

(8) راجع بن فصل العمري، مسالك الأبصار.

انتشرت بين قبائل شمال الصومال وحسب هذه الرواية فإن الأمر كان بشكل مخالف للأسطورة الأولى وهي:

«أن عرب ـ وهو قريشي من قبيلة هاشم ـ يعيش في الجزيرة العربية وقد هاجر إلى إفرقيا في القرن السادس الهجري «في نهاية الثاني عشر» وهناك أسس دولة قوية كانت عاصمتها زيلع، ومن أسرة عرب وأحفاده ينحدر الصوماليين الشماليين «قبائل عيسى» وقد انقسمت عشيرتهم إلى فرعين لأن عرب قد خلف حفيدين هما طاروت «طارود» وإسحاق وأصبح طاروت جد قبائل الورشنجلي والدولبوحنتي. . . الخ، ومن إسحاق خرجت ذريته وهي قبائل العين والحاديلاس وجميع القبائل التي تحمل اسم حبر مثل حبرتول ـ حبر غار حاجي، وحبر أول، وقد توفى الشيخ إسحاق في عهد ميناء قبيلة حبر غاز حاجي، وكان هؤلاء يجتمعون بجوار مدفنه المقدس لديهم، وقد ازداد البناء حول المزار حتى أصبح بقرب إحدى النهيرات غرب المدينة. . .»[9].

وهناك رواية ثالثة لتلك الأسطورة تذكر بأن طاروت كان جد جميع الصوماليين، وكان محارباً قاسي القلب وقد عاش في إقليم جبال اندى وكانت له معجزة أنه يتناول طعامه بيد الله، ولقد وهب لذلك نفسه لله وللإسلام، وقد قام إلى إفرقيا في 80 أو 90 بعد الهجرة وتزوج منها وأخذ ينشر الإسلام ومن سلالته قبائل ميجرتين ورشنجلي وغيرها[10]. وثبّت جميع هذه الروايات المتنوعة شيئاً واحداً وهو إن غالبية الصوماليين كانوا فخورين ومغرمين بانتمائهم إلى الأسرة العربية القرشية وانتسابهم إلى أولياء الله، وإن العديد منهم كان يصر على ارتباطه وصلة قرابته بآل البيت، ولإثبات ذلك يذكر الكثير منهم منازل وبيوت معينة في مكة يقولون بأن أجدادهم هم الذين بنوها، وليس من الغريب

(9) Simmons, P. 123.

(10) Oliver, P. 152.

أن تنتشر جميع هذه الروايات بين القبائل الصومالية الشمالية والذين كانوا قد اختلطوا مع العرب اختلاطاً كاملاً.

وإلى جانب هذه الروايات فإنه توجد رواية أخرى تذكر بأن مستقرين عرب في الشمال الشرقي لإفريقيا أي في أماكن سكن صوماليي اليوم، والذين اضطروا لذلك بسبب تحطم سفنهم على السواحل هناك وأنهم تزوجوا نساء محليات وهم الذين كانوا أجداد بعض القبائل الصومالية[11]. وأخيراً فإن الفكرة القائلة بأن الصوماليين هم نتاج اختلاط الجالا بالعرب وهي ترتكز على دعائم حقيقية أو خيالية والتي بالأساس تعتمد على التشبيهات الأنثروبولوجية أي صلة القرابة الوثيقة بين الصوماليين والجالا، وكذلك في الامتزاج الذي لا شك فيه بين الصوماليين والعرب.

ونحن هنا نستطيع القول بأن الصوماليين مثلهم الدناكل ينتمون بأصولهم إلى فرع وحيد للجالا الذي يشكل قبائل الجالا الشمال شرقيون وذلك بعد اختلاطهم الشديد بالعرب، وهذا ما حولهم إلى سلالة الصومال والدناكل في القرن السابع الميلادي.

وهناك من يرى بأن الصوماليين هم أحد فروع شعوب الجالا والذي خضع لتأثير أجنبي وامتزج مع عناصر أجنبيه وأنهم عاشوا في أول الأمر في أقصى غرب أقاليمهم الحالية، ولكن في وقت متأخر دفعتهم بعض قبائل الجالا الأخرى إلى الهجرة إلى الشرق أي نحو إقليم الساحل، وأدى تواجدهم هناك إلى اختلاطهم بالعرب وذلك لأن وضعهم هناك اضطرهم إلى ذلك، وبهذا الأمر أدى ذلك إلى ولادة الشعب الصومالي الذي هو نتاج عن استعراب الجالا أو كما يقول صاحب الرأي حرفياً «الفرع العربي للدوحة الجالادية»[12].

---

(11) Smith, E, Thistory of Somal, VI, P. 119.

(12) نفس المصدر، ص 122.

والمثير للانتباه هو أن المؤرخ هان الذي كان مقتنعاً بأن الصوماليين كانوا بدون شك قد هاجروا إلى إفريقيا من الجزيرة العربية قد ناقض هذا الرأي في مكان آخر بقوله: «إنه من الصواب لو اعتبرنا الجالا والمسساي والصوماليين من الشعوب التي اختلطت دمائها والتي تقف مكاناً متوسطاً بين الشعوب الزنجية وبين الشعوب الحامية السامية والأخيرون قد يكونوا قد قدموا من الشرق الجنوب العربي أو من الشمال من مصر مهاجرين نحو الغرب أو إلى الجنوب، وفيما بعد وخلال القرن السادس عشر انحسبوا من الأقاليم الداخلية للقارة عائدين إلى الشمال الشرقي، وهناك القبائل التي اتجهت نحو أقصى الشرق اختلطوا على العرب المستقرين على سواحل البحر، ومن هنا يرجع أصل الشعب الصومالي الخليط»(13).

ونتيجة الاستعراض السابق فإن الصوماليين لم يقدموا من الجزيرة العربية بل إنهم نشأوا في الموقع نفسه وذلك عن طريق الاختلاط والامتزاج مع الشعوب الممزوجة مع العرب حيث حدث ذلك في القرن السادس عشر.

وإنه لمن المحتمل تلك الفرضية التي تقول بأن بلاد بونت كانت جزءاً من بلاد الصومال الحالي أو من إحدى أقسامه الأخرى، وهذا الاحتمال تؤيده حقيقة الرسوم التي سجلت أخبار الحملة ومن بين منتجاتها التي هي من بين منتجات هذه الأقاليم الاستوانة المدارية وهي الحيوانات المميزة للإقليم.

وحتى في حالة ما إذا كانت بلاد بونت هي إقليم النجور المشهور، فإن ذلك لا يثبت بأن سكان بونت كانوا هم أسلاف سكان الصومال اليوم، إذ أن الشبه بين ملابس سكان بونت المرسومة بالدير البحري مع ملابس سكان الصومال اليوم ليست دليلاً قاطعاً، إذ أن الملابس التي يستخدمها الصوماليين اليوم قد لحقت بها مؤثرات حبشية وعربية.

---

(13) نفس المصدر.

ولا يمكن كذلك قبول أمر الآراء التي تحاول القيام بمقارنة المظهر الخارجي للصوماليين مع مظهر صور رجال بونت، فالأنثروبولوجي الذي يلجأ إلى الملابس والأشياء الخارجية لكي يقرر نظرية علمية، وإن أصل أحد الشعوب محدّد بها فهو يجانب الصواب ويخالف العقل، وهو يحاول التمييز بين خيط أبيض وأسود في ظلام دامس على أن الخيطين من لون واحد.

وهؤلاء الذين اعتمدوا على المخلفات الأثرية فقط والتي عثروا عليها في المدن القديمة الصومالية الواقعة على ساحل البحر يمكنهم فقط تقديم معطيات لتلك الحضارة التي ازدهرت بالمنطقة، وكيف إن أهل بونت قد ازدهرت بينهم تلك الحضارة ولكن لا يمكنهم البث في أمر أي العناصر البشرية ينتمي إليها أهل بونت؟ وعما إذا كانوا صوماليين أو من الجالا؟ وكذلك عما إذا كان هؤلاء قد غادروا الإقليم قبل وصول الصوماليين فيما بعد؟ أو أنهم قد انقرضوا؟ إذ إن المخلفات التي عثر عليها لا تستطيع تقديم الردّ الكافي على ذلك التساؤل بل إنها تقدم الحجج القوية للجانب المعارض أكثر من أنها مستمسك يمكن الاعتماد عليه لإثبات الرأي السابق.

كما وأننا إذا ما ناقشنا الرأي الثاني وهو انتقال الصوماليين من الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام وطردهم للجالا من المنطقة فإنه يجب علينا أن نقرّ بأنه ليس لدينا الدليل الكافي على ذلك والذي يؤيد أن فكرة الجالا كانوا فقط وحدهم سكان الأقاليم الساحلية، فقبور الجالا التي عثر عليها هناك لا تثبت ذلك، فقد يكون الجالا والصوماليين قد عاشوا بالتعاقب في نفس الإقليم أي أنهم غيروا مواطنهم عدة مرات، أما إن الصوماليين قد امتزجوا بالعرب فإن هذه حقيقة ثابتة ولكن لم يتم التأكد أين تمّ هذا الامتزاج ومكانه، فقد يكون قد تمّ بالجزيرة العربية أو في إفريقيا حيث كانت هجرات العرب إليها مستمرة من الجهتين وقبل ظهور الإسلام بوقت طويل.

أما بالنسبة للرأي الذي يذكر بأن بعض قبائل الجالا باختلاط مع العرب قد

تحولت إلى صوماليين فهو رأي تنقصه كل الأسس الواقعية، إذ أنه في حالة تواجد الشعب الصومالي أو الدناكل بعد وجود شعب واحد فقط والذي يمكن لأتباع هذا الرأي تسميته بالجالا، فهم حينئذ قد يكونوا يقصدون الوقت الذي لم تكن فيه تلك الشعوب ذات القرابة الواحدة، الجالا والصوماليين والدناكل قد تشكلت منه بعد شعوباً مستقلة الخصائص بل أنها كانت ترجع إلى أصل عرقي واحد والتي ما زالت تشكل شعباً واحداً، فمتى وأين تمّ هذا؟ وأين كانت هذه الشعوب حينما انفصلت عن الأصل الأم؟ ولكن مما لا شك فيه فإن هذا لا بد وأين يكون قد حدث قبل الميلاد أي قبل ظهور الإسلام وليس بأي حال من الأحوال في القرن السادس عشر!!.

وخلاصة القول فإن الصوماليين اليوم هم سلالة الشعب الذي أنجب الجالا والدناكل وهذا الفرع اختلط فيما بعد بالعرب اختلاطاً قوياً فاستعرب بشكل واضح.

وهناك نقطة يجدر بنا الإشارة إليها وهي أن تلك الآراء السابقة عن أصل الصوماليين قد خضعت بعض الأهداف السياسية سواء من قبل الصوماليين أنفسهم أو لدول هؤلاء المؤرخين أصحاب هذه الآراء، والذين كانوا يحاولون إظهار ذلك الرأي أو هذا ليخدم سياسة معينة.

ثانياً: دور الصومال في نشر الإسلام في شرق إفريقيا

لقد لعبت الهجرة المبكرة واللاحقة دوراً كبيراً في نشر الإسلام بإقليم الصومال وبالمنطقة المجاورة لها، ولا شك أن هجرات العرب إلى سواحل الصومال والحبشة كانت مستمرة منذ العصور القديمة، والظاهر أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا في هذه السواحل ملجأ يفرون إليه ومنفذاً ينزعون إليه في ظروف الحياة القاسية، وكانوا يجدون في هذا الساحل فرصاً كثيرة لكسب الرزق

باحتراف إلى السواحل وحتى القوت الحاضر وتعتبر فترة الحكم العباسي بمثابة المورد الذي لا ينصب للمهاجرة إلى هذه البلاد حيث لا تمتد إليهم أيدي الخلفاء العباسيين الذين التفوا إلى الشيعة والخوراخ الذين قاموا بثورات ضدهم، وكانت الصومال بموقعها وخصبها مثلها مثل الحبشة بما فيها ولا شك من إغراء كبير على أن تقصدها أعداد كبيرة من هؤلاء الفارين، وعلى أن الساحل الصومالي كان مفضلاً للعرب من ساحل الحبشة لقرب الشقة بينه وبين بلادهم فهاجرت إليه جماعات عربية وكثر عدد المهاجرين واشتدت شوكتهم فكونا إمارات في المدن الساحلية، وكانت القبائل الصومالية ـ سكان البلاد ـ يقيمون في الأجزاء الداخلية من الساحل في حين كان العرب المهاجرة يستوطنون المناطق المشرفة عليه ثم حدث الاختلاط وقوى بينهم وكان تأثير العرب قوياً على السكان(14).

وكان الزيديون قد تركزوا على سواحل الصومال حتى وصلت إلى البلاد هجرة عربية أخرى وفدت من الشاطىء العربي للخليج العربي من منطقة غرب جزيرة البحرين وقد جاء هؤلاء في سفن ثلاث بزعامة سبعة إخوة هاربين من اضطهاد أمير الإحساء، وكانت أول مدينة بنوها هي مقديشو وذلك في منتصف القرن العاشر، وقد ارتفعت مكانة هذه المدينة فيما بعد حتى أصبحت سيدة على كل عرب الساحل، وقد ظلت كذلك زهاء سبعين عاماً حتى أدى قدوم مهاجرين آخرين من الخليج العربي إلى إنشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها ناحية الجنوب، وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى علياً وهو من أم حبشية ولذا ازدراه إخوته فاضطر للهجرة يبحث عن موطف فأبحر إلى شواطىء إفريقيا ومعه جماعة صغيرة مذهبة فاتجه جنوباً وأسس مدينة كلوة وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل وأن يكون متحرراً بعيداً عن تدخل منافسيه المقيمين بعيداً عنه في مقديشو بالشمال(15).

(14) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص 113.

(15) Holt, N, A Modern History of Somal, London U.S, 1972, P. 102.

وقد تأقلم هؤلاء المهاجرون العرب في البيئة الصومالية ويقال أنه في هذا الوقت بالذات نزحت جموع من الهند إلى جنوب الجزيرة العربية وسواحل الحبشة والصومال وأن جنوداً من الهندس زحفوا على جزيرة العرب في القرن الحادي عشر وأخضعوا من كان في طريقهم وعبروا إلى ساحل إفريقيا واستوطنوا هناك، ويقال بأن أمير مسقط امتنع عن آداء الجزية لهؤلاء الهنود وجمع جيشاً واجتاز الصومال واحتلّ مناطق من تلك البلاد بعد أن هدم الكثير من المعالم والمعابد الوثنية الهندية وحوّل بعضها إلى مساجد.

كما هاجر أربعين عربياً من حضرموت استقروا في ثغر بربره بالصومال حيث أخذوا يعملون على نشر الدين الإسلامي من خلال اتصالاتهم النشطة مع السكان، وقد تمكن أحد هؤلاء الدعاة المسلمين وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباي من التوغل نحو الهضبة الحبشية حوالي 1430 م وتمكن من إقناع عدد كبير من الناس باعتناق الإسلام وتعميق مبادئه في نفوسهم وقد توفى هذا الداعية في منطقة هرر ولا يزال ضريحه موضع تبجيل وتوقير(16). وكما رأينا في الفصل الثالث في حديثنا عن الهجرة ودورها في نشرها الإسلام كيف أخذت هجرات العرب تزداد بمضي الزمن بحكم تلك العلاقات السياسية والاقتصادية، والمعروف أن القبائل حتى القرن العاشر كانت محدودة ثم كثر عدد المهاجرين فكونوا تلك الإمارات على الساحل.

وقد شهد القرن السادس عشر كما رأينا سابقاً صراعاً قوياً بين القوى الإسلامية التي قويت في المنطقة خاصة بعد أن ازدهرت منطقة زيلع (الصومال الإيطالي) وأصبحت عاصمة لدولة إسلامية فتنية عرفت باسم دولة عدل الإسلامية وبين المسيحية التي تمثلت فيه أقوى المسيحية وأخذ صراعها مع المسلمين طابع الحروب الصليبية في القرون الوسطى حيث تحالف البرتغاليين

(16) نفس المصدر، ص 117.

مع الأحباش ضد هذه الإمارات الإسلامية وزعماءها في المنطقة. ففي عام 1526 جرّد الامبراطور الحبشي لبنادنحل حملة على محمد ملك عدل وهزمه وغزا عدل وأحرق المدن وخرّب القلاع. وقد حوصر المسلمين في مكان ضيق من الوادي بين عدل وفيطجار وقتل منهم ما يقارب إثني عشر ألفاً واعتصم الباقون بالجبال، وفي تلك الأثناء كان البرتغاليون قد جردوا حملة على زيلع واستولوا عليها وأحرقوها، وفي نفس السنة أي 1516 انهزم قنصوه الغوري آخر سلاطين مصر في موقعة مرج دابق أما جيس سليم الأول العثماني وكانت الملكة اليني (هيلني) تهدف إلى التحالف معه وأرسل السلطان سليم قائده سفان باشا في حملة على بلاد العرب وأخضع حكامها وزعماءها وعيّن حاكماً من الأتراك في كل المدن، وكان احتلال الأتراك لهذه البقعة باعثاً على قلق الأحباش حيث بادر أمراء عدل إلى توثيق الصلات مع الأتراك الذين وجدوا في ذلك فرصة جيدة حيث سينتفعون من وراء هذا التحالف بخبرة تجار عدل في التجارة وأساليبها في هذه البلاد. وكان الأتراك قد استولوا قبل ذلك على جزيرة زيلع حيث أسسوا بها أسطولاً يهاجمون به السفن التجارية المناوءة وهذا ما حفّز أمراء عدل على التحالف معهم(17). لذلك رأت الملكة أن تبحث عن حلفاء فأرسلت إلى قنصوه الغوري قبل محاربته سليم الأول ولكن بعد مقتله واجتياح الأتراك لبلاده تطلعت إلى البرتغاليين واتصلت بهم كما رأينا سابقاً عن طريق مبعوثهم كوفلهام الذي أرسله الملك عمانويل، وهكذا حولت هذه الملكة الحروب في الحبشة من مناوشات يقوم بها ثائرون محليون أو تجار إلى حروب دينية تحالفت فيها القوى المسيحية ضد المسلمين الذين تجمعوا في قوة متحدة جبارة للوقوف في وجه أعدائهم.

غير أن الملكة توفيت في عام 1525 وأصبح لبنادنجل وحيداً أمام قوى المسلمين التي بدأت تظهر وتتعاظم وخرج السلطان أبو بكر بن محمد ابن آزر

(17) Mark (L) The Arab worl and Somal, London, 1979, P. 119.

على الامبراطور تناصره جموع من الصوماليين فاستولى على هرر فوجه الملك إليه الجردابون ولكن هذا مات في الحرب وانتصر عليه أبو بكر وعرض ولاءه فأقامه على إيفات وهرر[18].

وهنا يلعب الاما أحمد ابن إبراهيم دوراً كبيراً في سير الأحداث وبلورتها ويكون هو القشة التي قصمت ظهر البعير لحسم الصراع لصالح القوى الإسلامية في المنطقة حيث تمكن هذا الشيخ بفضل مساعدة أعوانه من المسلمين الصوماليين من نشر لواء الإسلام ليس في الصومال فحسب بل وفي الهضبة الحبشية نفسها.

ولا يحدثنا التاريخ شيئاً عن نشأة الإمام أحمد بن إبراهيم إلا ما يرويه هو عن نفسه من أنه كان إبناً لأحد قساوسة ايجو المسيحيين وترك موطنه إلى عدن حيث دخل في الإسلام، ولا بد أنه دخل في خدمة أحد الأمراء المحاربين فتعلم فنون الحرب وبرز بين صفوف جيش الامبراطور وأهم مراجعنا لهذه الفترة والتي سجلت لنا أحداثها هو كتاب «فتوح الحبشة» لشهاب الدين الشهير «بعرب فقيه» حيث ذكر أنه كان مع جيوش الجرد آبون محارباً للثائرين في شرقي البلاد وأظهر من الشجاعة ما جعل القائد آبون يحبه ويقدره، وقد زوجه الأمير محفوظ صاحب هرر ابنته «باتي» وعندما خرج السلطان أبو بكر بن محمد ابن آزر على الامبراطور تناصره جموع من الصوماليين وجه إليه الامبراطور القائد آبون ولكنه مات في الحروب إذ انتصر عليه أبو بكر ثم عرضَ ولائه على الامبراطور. وهنا لم يقبل الإمام أحمد الخضوع لأبي بكر ولكنه لم يخرج على الامبراطور نفسه[19]. وقد خرج الإمام هارباً عقب موت القائد آبون إلى بلاد آبت ومعه مائة أو أكثر من الفرسان أمروا عليه القائد عمر دين ابن أخي السلطان إعلاناً لولائهم للدولة وأمضى الإمام أحمد سنواته الأولى في صراع مع السلطان أبي بكر في

(18) نفس المصدر، ص 129.

(19) Gang (S) **L'Islam du, Somal,** Paris, Poyot, 1969, P. 109.

هرر وانتهى هذا الصراع بقتل السلطان عندما عرف بأنه يدبر مؤامرة للقبض عليه عقب صلحهما الثاني فأرسل له من تمكّن من قتله. وأعلن الثورة على الامبراطور الذي كان يناصر السلطان ومنع موظفيه وجباة خراجه من أن يقدموا إلى هرر، كما منع الناس من أن يدفعوا لهم شيئاً وبذلك خرج الإمام وانقلب الخادم المخلص إلى ثائر عنيد واتخذ له راية وأخذ في تنظيم أموره كما يفصل الحاكم المستقل، فقسّم البلاد إلى خمسة أقسام أمر على كل منها أمير ممن دخلوا في الإسلام وكان ذلك في عام 1527، وعندئذ أصبح قيام الحرب بينه وبين الامبراطور أمراً لا مفر منه، وعندما تحركت الحبشة تصدّى الإمام لها وهزمها شرّ هزيمة سيما وقد التف حوله كثير من المسلمين وقد أوغرت الحماسة الدينية صدورهم كما زاد من حماسهم رغبتهم في نشر الدين لا سيما وقد وعدهم الإمام أن يستولي كل محارب على ما يغنمه بعد أن يخرج خمسه لله[20].

ولكي يكون الإمام واثقاً من الانتصار رأى أن يجمع المسلمين حوله فبدأ بالاتصال بالبلاد الإسلامية التي سوف تمونه بالمال والرجال، فبدأ بأقرب بلاد حوله وهي دواروا وبالتالي فاستولى عليها بعد أن هزم جيوش الامبراطور التي كانت تدافع عنها وقتل قائدها، وانضم إليه ثانية الأمير حسن أبي بكر الجاتري والأمير علي وبذلك سيطر الإمام على جنوبي شرق الحبشة وفي عام 1529 تمّ ما بدأه بالاستيلاء على بقية الجزء الإسلامي من الحبشة فقصد إيفات وأطبق عليها من اليمن بجيش يقوده وزيره عادلي، ومن اليسار بجيش يقوده وزيره الآخر نور الدين بن إبراهيم، فاستطاع الأول وحده أن يستولي على المدينة بعد أن هزم الجيش الامبراطوري في موقعه «شبنري كوري» في مارس 1529 فضمها الإمام إلى أملاكه وغنم من المسيحيين خيامهم وأموالهم وأسر منهم كثيرون من بينهم بنت خالة الامبراطور الحبشي فافتديت بخمسين أوقية من الذهب[21].

---

(20) نفس المصدر، ص 172.

(21) نفس المصدر.

وعاد الإمام بعد هذه الانتصارات إلى هرر وأخذ في تكوين جيشه من جديد معتمداً على العناصر التي تدين له بالولاء دون غيره، بذلك تخلى عن بعض الصوماليين الذين شكلوا قوته الأولى وكذلك بعض قبائل الجالا الذين شكلوا جانباً من هذه القوات وإذا فضل كثير منهم العودة إلى مواطنهم حاملين معهم ما غنموه، وقد استغرق إعداد الجيش منه عامين وأصبح على استعداد للقيام بغزوات كبرى، وقد بدأ الإمام بالفعل في هذه الغزوات والفتوحات وقد اتسمت الحرب في هذه الفترة بسمّة الحرب الدينية وصارت حرباً بين المسلمين والنصارى حيث يبغي كل منهما التغلب على الآخر، بينما كانت قبل ذلك حرباً حول السيادة السياسية أو بين الأمراء يبغي كل منهم السيادة والظفر بنصيب من الاستقلال، أو بين الامبراطور والثائرين عليه[22]. وفي هذه الفترة عوّل الإمام علي غزو بلاد الامبراطور لبنادنجل ذات الأغلبية المسيحية، وكان هذا الامبراطور قد رفض عرض رئيس الوفد البرتغالي الذين يتضمن مشروع مساعدة بينه وبين ملك البرتغال ولكن القساوسة رفضوه فاقترح هو مشروع معاهدة جديدة حملها هذا الوفد الذي عاد أدراجه إلى البرتغال في عام 1526.

وفي تلك اللحظة أدرك الأتراك خطر التحالف البرتغالي الحبشي أن التحالف المسيحي ووجدوا أن البرتغاليين يلقون في الحبشة نجاحاً سريعاً فلجأوا إلى الاتفاق مع أهل عدل وأميرهم وأمدوهم بالأسلحة النارية، كما وجدوا الفرصة سانحة بقيام أحمد ابن إبراهيم ملك هر والذي يساعده الباشا التركي حاكم زبيد باليمن والذي أرسل الأسلحة والمدافع إليه، كما آزره شريف مكة الذي بعث إليه جنوداً من العرب، فقام الإمام بمحاربة لبنادنجل الذي يناصره عدوه السلطان أبي بكر كما ذكرنا وخاضا حروباً طاحنة ضده في قلب الحبشة استمرت حتى عام 1543 ففي أوائل 1531 عبر نهر أواش وغزا شوا

(22) عبدالله عبد الرزاق إبراهيم، **المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا**، الكويت، عالم المعرفة، 1989، ص 219.

ذاتها واستولى على مدينة (بر البيانوس) وأصبح الامبراطور مطارداً من بلد إلى بلد وكانت هزيمته فكرة حتى أنه اضطر إلى الفرار إلى ناحية الشمال وهناك التجأ إلى مقاطعة جوجام معتصماً بجبالها العالية بعد أن عبر النيل الأزرق فتبعته جيوش الإمام إلى هناك حيث استولت على المقاطعة ثم رجعت إلى هرر منتصرة[23].

وقد أدّت هذه الانتصارات المتتالية التي أحرزها الإمام إلى انضمام كثير من أعداء الامبراطور والناقمين على حكمه إلى صفوف الإمام وأدى إعجابهم به إلى اعتناقهم الإسلام. وقد استغلّ هؤلاء الأحباش الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصي في تحريض غيرهم من أفراد جيش الامبراطور على الاقتداء بهم واعتناق ديانة المنتصرين.

وفي عام 1533 عاد الإمام إلى متابعة الامبراطور الذي هرب إلى دمبيا شمال بحيرة تانا فطارده واستطاع أن يكتسح جوجام مرة أخرى ويتصل بمسلمي سنار وعقد معهم حلفاً حصل بمقتضاه على الأدلاء الذين ساروا معه إلى دامبيا فهرب ابنا دنجل إلى دارا في جنوب النيل الشرقي من بحيرة تانا فلحقته جيوش الإمام هناك وعند مخرج النيل الأزرق من البحيرة دارت معركة كبيرة انتصر فيها الإمام وتشتت جيوش الأحباش بعد أن قتل من أشرافهم عدد كبير[24].

وفي عام 1535 استطاع الامبراطور أن يجمع شتات جيشه الممزق ويهاجم به جيش الإمام المرابط بشرقي بحيرة تانا، ولكنه هزم مرة ثانية هزيمة منكرة وتقدمت جيوش الإمام إلى أكسوم فاحتلتها ثم عبر نهر تيكازي واجتازت شمال الهضبة كلها ثم انحدرت إلى إقليم بيجمدار الذي يقع شمالي جوجام واستطاع أن يسيطر على شمال الهضبة من الشرق والغرب بعد أن سيطر على جنوبها من قبل.

---

(23) للمزيد من التفاصيل انظر: عرب فقيه، مصدر سابق.

(24) نفس المصدر.

وفي عام 1536 اجتاحت الجيوش الثائرة جوجام للمرة الثانية وكانت قد دخلتها من الشمال وعبرت النيل الأزرق إلى شواطىء إذا كان عام 1537 عادت إلى هرر في أقصى الجنوب الشرقي[25].

وبذلك سيطرت الجيوش الإسلامية بزعامة قائدها أحمد بن إبراهيم على بلاد الحبشة كلها وأصبح امبراطورها تعبيراً لا حقيقة لها، وأخذت النصرانية في الانهيار والاندحار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتوالية.

وفي عام 1538 أرسل الإمام إلى الامبراطور بعثة طالباً الزواج من ابنته مهدداً إياه بأنه في حالة رفضه المصاهرة فلن يترك أحداً يستطيع الامبراطور أن يلجأ إليه، فرفض الامبراطور واغتاظ الإمام وصمم على تنفيذ تهديده فأرسل جيشاً بقيادة قائد عمار التحم مع الجيش الامبراطوري عند الضفة اليمنى لنهر تيكازي عند مكان يدعى «وج» فسحق الجيش الحبشي وقتل فيكتور الابن الأكبر للامبراطور، كما قتل كل من معه، وأسر ميناس الابن الثاني، كما أسرّ عدداً هائلاً من الجند المسيحي، وفي غزوة أخرى هجم القائد عمار على الجزء الرئيسي من الجيش الذي يقوده الامبراطور بنفسه واستطاع أن يوقع به الهزيمة في «سلاوا» بالقرب من مكان المعركة الأولى ففر الملك مع بعض أصدقاءه إلى الجبل صنفرا في إقليم سلامت وهناك طارده أبو رام حاكم الإقليم حتى وصل إلى نهر تيكازي وعبر النهر مع قلة من أصحابه ووصل إلى إقليم تيجري حيث قضى الشتاء، واستولى القائد عمار على معسكر الامبراطور وغنم جميع مؤنه وحمل معه كل ما وجده من الذهب والنفائس[26].

ولم تكد تهل سنة 1540 حتى كانت جيوش الإمام قد اجتاحت الحبشة كلها وأصبح الامبراطور فاراً طريداً من بلد إلى بلد وهو يقاسي ومعه مكة من

---

(25) عثمان صالح سبى، ص ٩٠ وما يليها.

(26) Eliot, The East Africa, P. 72.

أنصاره الجوع والعطش ويلح عليها الإجهاد والمرض حتى مات وهو في أسوأ حالات البؤس والعوز.

لقد تميزت حركة الجهاد الإسلامي التي قادها الإمام أحمد ضد القوى المسيحية في شرق إفريقيا بوجه عام وفي بلاد الصومال بشكل خاص بأنها أكثر عمقاً وأشدّ صَلابة من غيْرها من حركات الجهاد الإسلامي في بقية أجزاء القارة الإفريقية، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذه المنطقة عرفت الإسلام قبل غيرها[27].

والمتتبع لخطوات الحرب يستطيع أن يتبين بسهولة أنها كانت حرباً من جانب واحد، أي أن قوة هذا الداعية الإسلامي كانت ساحقة حتى استطاعت أن تجتاح الجزء الأكبر من الحبشة في مدة يسيرة لا تتجاوز العشر سنوات، بينما كانت جيوش الامبراطور تنهار أمامه الأمر الذي لم يحدث من قبل مطلقاً وأن هذا الفرار ليدلنا على روح اليأس التي استولت على الجماعة المسيحية ممثلة في الامبراطور وطرحها كل أمل في إمكانية المقاومة.

وظاهرة أخرى نستطيع أن نتبينها بسهولة أيضاً وهي ظهور الدافع الديني وتجسمه خلال حوادث هذه الحروب فقد رسمت الصلبان على رايات الجيش المسيحي وعلقت على صدور الجنود وظهر القساوسة والرهبان بين القوات الحبشية، في الوقت الذي طرزت راية الإمام في وسطها وعلى حافتها الآيات القرآنية وتعالت صيحات بلا إله إلا الله، محمداً رسول الله، والله أكبر، وحي على الجهاد.

لقد دفع انتصار المسلمين الساحق المسيحيين إلى اعتناق الإسلام فاعتنقه نسبة هائلة من السكان، وبذلك أصيبت المسيحية بالحبشة بانهيار لم تعرفه في سالف أيامها.

---

(27) عبدالله عبد الرزاق، المسلمون والاستعمار، ص 219.

وفي هذه الظروف القاسية التي تدعو إلى اليأس ولي العرش الحبشي الامبراطور الشاب جلاوديوس الذي صمم على سحق ثورة الإمام، فعبر إلى تيجري وأمضى الشتاء هناك في جمع الجند والعتاد وجمع قوة من المشاة سار بها إلى شوا حيث يوجد بها نصر الدين ابن الإمام أحمد الذي كان يقود قوة مكونة من ألف فارس وعشرة الآف من المشاة فلم يقو الامبراطور على الوقوف أمامه طويلاً وارتدّ إلى شرقي شوا حيث انضم إليه عدد من الناقمين على الإمام وتحصنوا في قمة جبل في إيفات وهاجم نصر الدين ولكنه مني بهزيمة ساحقة وقتل عدد كبير من جيشه[28].

وفي هذا الوقت وصلت الحملة البرتغالية اليت طلبها الامبراطور لبنادنجل قبل وفاته إلى مصدع في 1541 وكان لوصولها صدى كبير على الأوساط المسيحية بالحبشة، وكانت تتكون من 451 من المحاربين المسلمين بالأسلحة والمدفعية الحديثة فكان من أثر ذلك أن انتصر جلاوديوس في بعض المعارك الصغيرة وكان ذلك في أوائل 1542. وقد عمل إسحاق بحر بخش أمير المقاطعات البحرية على الانضمام إلى الامبراطور، وانضم إليه بعض الأمراء القدامى وتمكنوا من تلقي مؤازرة بعض قبائل التيجري، ووجد الإمام نفسه مضطراً للحيلولة دون اتصال الجيش البرتغالي مع القبائل المعادية التي تضمر التأييد لملك الحبشة في مقاطعة شوا، وعندما نشبت المعركة مع هذه التشكيلات الجديدة تفوقت قوات الإمام رغم أنه يواجه قوات تستعمل من الأسلحة المتطورة ما لم تشهده الحبشة من قبل وهزمت قوات البرتغاليين والقوى الحبشية في المعركة الأولى وأسر قائدهم وفرّ الباقون، فشجع ذلك نصر

(28) راجع تفاصيل هذه المعارك في:

الأمير عبد الكريم «الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا إلى نهاية القرن التاسع عشر» دراسات إفريقية، العدد الأول 1985، المركز الإسلامي الإفريقي، السودان.

الدين على أن يشقّ هجومه من جديد على جنود الامبراطور بقوة هائلة ولكنه أصيب بالهزيمة وقتل عدد كبير من جنوده، وبعد ذلك أصيبت الجيوش الثائرة بضربة شديدة كان وقعها على الإمام أحمد باشا أشدّ من وقعها على أي أحد آخر، وهي موت نصر الدين موتاً فجائياً وقيل يوم ذاك أنه مات مسموماً(29).

وأخذت قوات الإمام في الانهيار وانقضّ عليه جلاوديوس ومعه قوات البرتغاليين في جار جنوب غرب سمن فهزموه واستشهد عدد كبير من المسلمين في هذه المعركة وكان من بينهم قائدهم سعيد بن محمد وكان ذلك في يونيو 1542.

وكان لهاتين الهزيمتين أسوء الأثر على الإمام الذي سارع إلى العودة إلى الجبال (جبال زوبول) المطلة على وادي الدناكل لكي يعمل على جمع قواته وتنظيم صفوفهم، ووجد نفسه مدفوعاً إلى طلب المعونة من الوالي العثماني في زبيد باليمن وكذلك من شريف مكة فأرسلوا إليه قوة مؤلفة من 900 فارس وعشر مدافع فقام الإمام بالهجوم على القوات البرتغالية والحبشية وانتصر على القائد البرتغالي دي جاما وقتله، وفي هذه المعركة فقد البرتغاليين نصف قوتهم وكمية كبيرة من الأسلحة والذخائر(30).

وتوهم الإمام أن مركزه قد توصد ثانية فأعاد الجنود الأتراك والعرب إلى بلادهم وعاد هو إلى مركز قيادته بجوار بحيرة تانا ولم يكن على بينة بما أصاب مركزه من ضعف وما تعرضت له قواته من إنهاك، وسرعان ما جمع البرتغاليون صفوفهم الباقية مع قوات الامبراطور، وهجمت القوات المتحالفة على الجبهة الرئيسية وأعملت في جنودها القتل واخترقت فصيلة منهم بقيادة بدور ليوني الصفوف إلى حيث الإمام نفسه وأطلقوا عليه النار فجرح جرحاً مميتاً ومات هذا

---

(29) نفس المصدر.

(30) عثمان سبي، ص 60.

المجاهد العظيم، ولكن حركة الجهاد لم تتوقف بوفاته، بل استمرت المقاومة فترة طويلة قاوم فيها المسلمون هذا المدّ الصليبي على ديارهم. وظلّ الصراع والتنافس قائماً بين المسلمين والمسيحيين في الصومال والحبشة واتسمّت حروب الأحباش وحلفائهم من النصارى والبرتغاليين بالطابع الصليبي بغرض التوسع على حساب الشعوب المجاورة حيث حظي امبراطور الحبشة منليك الثاني بدعم الدول المسيحية له فأخذ يتوسع على حساب جيرانه من الصوماليين، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر صار القرن الإفريقي مسرحاً وهدفاً للصراع الاستعماري خصوصاً بعد انسحاب مصر من الصومال وشرق إفريقيا واعتبار هذه المنطقة أرضاً لا صاحب لها، وهنا بدأ التنافس بين القوى الاستعمارية من أجل تقسيم أملاك الصوماليين بين ازيطاليين والإنجليز والفرنسيين طبقاً لقرارات مؤتمر برلين 1884[31]، وظهرت على مسرح الأحداث في هذه الفترة التي اتسمّت بالصراعات الصليبية شخصية الزعيم المسلم محمد عبدالله حسن الذي أكمل ما كان قد بدأه وحققه الشيخ أحمد بن إبراهيم من أمجاد، وقاد حركة نضال وجهاد المسلمين في هذه المنطقة ضد القوى النصرانية من الأحباش والإيطاليين لفترة طويلة من الزمن وسوف نتعرض لهذا الدور في دراسة مستقلة عن مرحلة الاستعمار وحركات التحرر الإفريقية[32].

(31) عبدالله عبد الرزاق، ص 221.

(32) لمزيد من المعلومات عن هذه الشخصية وحركة الجهاد التي قادها، انظر:
حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، جـ 1، القاهرة، 1960.

الفصل السادس

الممالك الإسلامية في الساحل الإفريقي

الممالك الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي(*)

أولاً: التشكيلات السياسية وانتشار الإسلام في الهوسا

تتكون ولايات الهوسا من حزام المسافات الممتد وسط القارة الإفريقية حتى المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر والواقع بين الصحراء شمالاً والمنطقة الاستوائية جنوباً والذي عرف عند المؤرخين والجغرافيين العرب باسم بلاد السودان، والواقع أن بلاد الهوسا تمثل الجزء الأعظم في ذلك الحزام في المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد والنيجر الأوسط غرباً، والواقع أيضاً أن للموقع الجغرافي أثر كبير في تاريخ دويلات الهوسا، فمن ناحية الشمال أصبحت الحدود الصحراوية محطة للالتقاء بين أجناس الشمال والجنوب[1] لذا ارتبط تاريخ هذه المنطقة بمنطقة شمال إفريقيا الذي شهد نوعاً من الاستقرار الاقتصادي والازدهار في الفترة الأخيرة من الحكم الروماني حيث نجحت في حماية حدود ممتلكاتها من الجنوب وذلك باعتبار الصحراء حدود طبيعية يصعب عبورها، ولكن أثناء الحكم البيزنطي ونتيجة لعدم تمكن هذا الحكم من فرصة سيطرته القوية على المنطقة استقلت الكثير من المراكز وانتشرت الفوضى السياسية نتيجة عدم وجود سلطة قوية تفرض النظام والاستقرار وقد أدى ذلك

(*) يقصد بالساحل الإفريقي منطقة بحيرة تشاد وحوض النيجر.

(1) Carbou (H) **La region du Tchad et du Ouadai,** T.II, Paris, Lerrouk, 1912, P. 912.

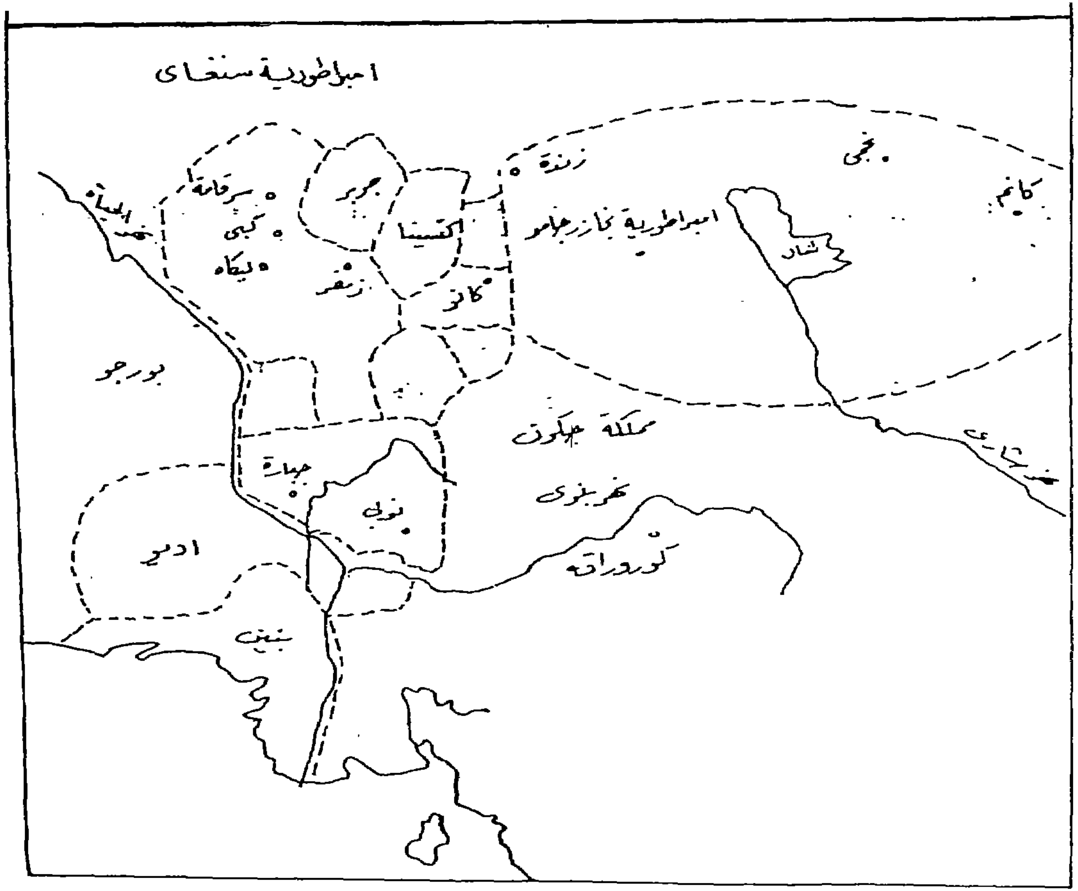
إلى هجرة الكثير من العناصر البشرية إلى المناطق الواقعة بين حوض النيجر وبحيرة تشاد.

وبعد الفتح العربي للشمال الإفريقي استقرّ العرب في البداية في مناطق التجمعات السكانية مثل برقة وطرابلس دون أي تدخل في شؤون القبائل الصحراوية وقد تعرض شمال إفريقيا للعديد من الثورات والانتفاضات التي قامت ضد تعسف الولاة وكانت سبباً في نزوح الكثير من العناصر البشرية نحو الجنوب وقد اختلفت هذه الهجرات في طبيعتها عن الفتح العربي فهي لم تحاول الاستقرار في المراكز والتجمعات السكانية ولم تحاول أيضاً الاستقرار واحتراف مهنة الزراعة بسبب طبيعة حياتهم المعتمدة على التنقل والترحال سعياً وراء الماء والمراعي، وهاجرت نتيجة لذلك أعداد كبيرة من سكان شمال إفريقيا وتحالفوا مع التشكيلات السياسية التي كانت قائمة في المناطق التي هاجروا إليها ويمكننا أن نفترض أن هذه المجموعات البشرية المهاجرة اخترقت الصحراء في أزمان مختلفة واستقرت بين المجموعات البشرية الإفريقية وكان استقرارها سلمياً نتج عنه تأثير واضح في مختلف النواحي، فالكثير من الروايات الشفهية التي تعتبر مصدراً أساسياً في تاريخ بلاد الهوسا وغيرها تذكر التأثير فمثلاً الرواية التي تتحدث عن وجود المرأة في الحكم ويقصد بذلك الملكة دورا هي ظاهرة كانت منتشرة بين قبائل شمال إفريقيا أكثر منها في المناطق الجنوبية الصحراوية[2].

ومصادرنا التاريخية عن دويلات الهوسا في عصرها المبكر تكاد تكون معدودة وقد يكون مرد ذلك إلى أن حركة الجهاد التي قامت مع بدايات القرن التاسع عشر اعتبرت الكتابات الموجودة كتابات غير إسلامية فتمّ القضاء عليها، أما بالنسبة لما بعد هذه المرحلة فإن المصادر متوفرة نتيجة لذلك الإنجاز العلمي الذي قام به زعماء الجهاد وأتباعهم وأغلب هذه المصادر كتبت باللغة العربية

---

(2) Robert (B) **Histoire de L'Islam au Tchad,** Paris, S.L. 1970, P. 120.



أمبراطورية كانم وبرنو وممالك الهوسا

التي اعتبرت لغة الثقافة في ذلك الوقت، وعلى الرغم من قلة المصادر عن الفترة المبكرة إلا أننا يمكننا أن نعتمد على ما كتبه الرحالة العرب الذين زاروا هذه المناطق أمثال ابن بطوطة الذي تحدث عن واحدة فقط من ولايات الهوسا المسماة جوبير(3) كذلك ما دونه لنا حسن الوزان عن بعض هذه الولايات في كتابه(4) كذلك الكتابات الوظيفية التي لم يصل إليها الدمار وأهم تلك الكتابات هي محفوظات ولاية فانو والتي نشرها بالمر في المجموعة المسماة «ذكريات سودانية» ونشرت عام 1928 وقد كتبت هذه المخطوطات باللغة العربية لتغطي تارخ ولاية فانو منذ القرن الخامس عشر الميلادي وهو القرن الذي زار فيه العالم الكبير محمد المغيي هذه الولاية وأدخل ما سمى في ذلك الوقت باستعمال اللغة العربية في الأدب الإفريقي(5) وهذه المخطوطة مهمة لأنها تعطي الفكرة عن بداية حضارة الهوسا وتطورها فمثلاً تذكر لنا كيف تطورت منطقة فانو من مجرد مركز استقرار إلى القرية ثم إلى المدينة ثم إلى دولة ذلك توضح لنا كيفية مجيء العناصر المهاجرة والكيفية التي وصل بها الإسلام إلى تلك المناطق وانتشاره وكذلك التوسع العسكري للدولة بعد تكوين التنظيم السياسي وكيفية امتداد سلطاني لتشمل ولايات أخرى(6).

لقد انتشرت الفوضى في أعقاب الغزو المغربي في بقاع النيجر حتى القرن التاسع عشر وانتقل في ذلك الوقت مركز الثقل السياسي إلى ناحية الشرق حيث تقع بلاد الهوسا في المنطقة المحصورة بين الصحراء الكبرى في الشمال ودولة برنو في الشرق ومنحنى النيجر في الغرب والربوع الساحلية لخليج غانا والتوجو

---

(3) ابن بطوطة ص 282.

(4) حسن الوزان، ص 172.

(5) لمزيد من المعلومات راجع:

- كاثي، «مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية» ص 15، وما يليها.

(6) Robert, P. 123.

والكمرون في الجنوب ويصل عدد سكانها إلى أكثر من خمسة عشر مليون نسمة، وكانت مسرحاً للمعارك بين الدول الإسلامية في الشرق والغرب من أجل السيطرة عليها، وجميع المصادر المتوفرة تتفق مع الأسطورة التي كانت تتحدث عن بداية التكوين السياسي لها والتي تتلخص في هروب أمير تركي من مدينة بغداد يسمى أبو زيد نتيجة الخلاف مع والده فلجأ إلى منطقة بحيرة تشاد حيث كانت توجد دولة فانو وفي تلك المنطقة قام الملك بتزويجه إبنته ماجيرا ولكن هذا الزواج عزله عن اتباعه فاضطر إلى الفرار إلى الغرب خوفاً من عقاب الملك لتركه لزوجته في مكان يدعى «بيرام غابس» وفي المنطقة التي تدعى غايا قابل أحد الحدادين الذي صنع له سيفاً حسب مواصفات خاصة، وبعد ترحال طويل وصل إلى مكان انقطعت فيه الماء عن السكان وذلك بسبب وجود حية كبيرة أطلقت عليها الرواية اسم (سركيا) وهي كلمة تعني بلغة الهوسا الزعيم، وتمكن أبو زيد من قتل تلك الحية بواسطة سيفه القوي وشجاعته التي أشادت بها الأسطورة وكانت النتيجة أن تزوجته الملكة صاحبة القرية المسماة دوراً مكافئة له وأنجبت له ابناً سمى باوا الذي خلف والده في حكم القرية وأنجب ست أولاد أسسوا ولايات الهوسا الستة وهي: كانم - رانوا - كاستنا - زازو - رزايا - جوبير ثم تأسست الولاية السابقة والتي عرفت باسم بيرام، وعرفت هذه الولايات السبعة باسم هوسا بكاوى كما كان أبو زيد قد تزوج من جارية وهبتها له زوجته فأنجب منها سبعة أولاد أسسوا سبع ولايات أخرى عرفت باسم بنزابكاوي وهذه الولايات هي: كبى - جوالي - يوربا - زاماغارا - جوكن - نوبى[7] ومن الواضح أن هذه الرواية تجسد الترابط بين المهاجرين من شمال إفريقيا وبين الشرق الإسلامي والسكان الأصليون، ثم التقدم الحضاري الذي تميز ظهور لغة الهوسا التي صنفت في انتمائها إلى مجموعة اللغة الحامية التشادية، وتلا ظهور اللغة بناء نظام دولة المدينة والذي ظهر في شمال نيجيريا بحيث كونت كل مدينة قوة سياسية واقتصادية منفصلة عن بقية المدن الأخرى على الرغم من إن العوامل

(7) نفس المصدر ص 126.

الجغرافية قد وحدت بينها، ثم بدأت تلك الولايات في مدّ نفوذها السياسي والاقتصادي على مناطق أخرى مجاورة بدأ سكانها في استخدام لغة الهوسا كلغة ثانية ومنها تكونت الولايات الثانوية الأخرى والتي عرفت باسم «بيزا بكاوي» والمعلومات المتوفرة عنها في بدايتها لا تعدو عن كونها مجرد أسماء الملوك الذين يرجعون في أصولهم إلى ما ورد في الرواية، وعن طريق المقارنة بين الروايات المختلفة يمكننا تحديد تواريخ معينة ومعلومات قريبة إلى المنطق وخاصة في الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر، فمثلاً حددت سنة 999 م لتأسيس دولة كانو وبداية حكم ملوكها، وحددت سنة 1000 م لبداية تاريخ كاستينا، هذا كما تقارب أعداد الملوك في الولايات فمثلاً في كانو ثلاثة وأربعون ملكاً وفي كاستينا ثمانية وثلاثون وفي رانو أربعين وفي زمغاوا اثنان وأربعون(8).

مع بداية القرن الرابع عشر كونت كل من ولاية كانو وكاستينا الإطار العام لدولة الهوسا فاشتهرت الأولى بالتجارة والثانية بالثقافة والعلم وكثرة العلماء الوافدين إليها، واعتمدت جوبيير في الشمال على الزراعة. وهكذا بقية الولايات، كل واحدة منها اشتهرت بنوع معين من الحياة، وبالرغم من ذلك فإن بعضها لم تصل إلى مرحلة الاستقرار فكثرت فيها القلاقل والاضطرابات، ويعتبر القرن الخامس الميلادي مهماً بالنسبة لتاريخ بلاد الهوسا ومرد ذلك إلى زيادة الاتصال بالعالم الخارجي وإلى بداية انتشار الإسلام على الطريقة الصحيحة. ورغم أن دخول الإسلام إليها لم يحدد تحديداً دقيقاً غير إنه من المسلّم به إنه حدث قبل بداية هذا القرن وقد جاء من جهة الغرب وليس من الشرق كما هو الوضع في منطقتي كانم وبرنو ويرجع الفضل في دخوله إلى عامل النزوح والهجرة حيث نزح إليها جماعة الونجراوه Wangrawa(9)، كما يعود الفضل في

---

(8) Marc, **L'Histoire des Villes Africainnes** Bruxelle, B.D. 1961, P. 119.

(9) كاثي، ص 16.

هذا المجال أيضاً لقبائل الفولاني وهي من القبائل الكثيرة العدد في إفريقيا عامة وغرب إفريقيا خاصة وأصبحوا تابعين لإمبراطورية غانا ثم مالي وبعد سقوطها خضعوا لإمبراطورية السنغاي وبعد سقوطها هي أيضاً عقب الزحف المراكشي عليها اندفعوا نحو الشرق واندسوا كرعاة بماشيتهم بين القرى الزراعية ونشط تجارهم في البيع والشراء، وما أن جاء القرن السادس عشر حتى ازدادوا قوة في إمارات الهوسا واستقرّ بعضهم هناك واهتموا بنشر الإسلام وبالزراعة وكانت الأراضي الفسيحة التي تتكون منها إمارات الهوسا مناطق عظيمة الخصوبة فتدفقت الثروات من المحصولات الزراعية التي ازدهرت بها المنطقة، وهكذا كانت هذه القبائل متناثرة في شتّى أقاليم الهوسا وفي إفريقيا عامة ومنهم من كان يشتغل بالتجارة فيتخطى بتجارته حدود ولايته إلى أخرى من هذه الولايات وبفضل أخلاقهم الطيبة أصبحوا محبوبين في البقاع التي ينزلون بها(10).

ومن المعروف أن أول ذكر للإسلام جاء في مخطوط كانو السابق الذكر والذي ظهر في عهد الملك ياجي 1349 ـ 1385 حيث أوضح أن بعض عناصر الماندي من مالي قد أقنعوا الملك ياجي بأهمية العقيدة الجديدة كما أورد المخطوط أيضاً أن تلك العناصر كان على رأسها عالم اسمه عبد الرحمن زغيت وكان ذلك في عام 1380، وبعد سنة 1381 أقيم في كانو أول مسجد في ولايات الهوسا، كما أوضحت المخطوطة أن اعتناق ياجي للإسلام قوبل بمعارضة شديدة من قبل رجال الدين الوثنيين ولم يخفف من ذلك إلاّ الانتصارات التي حققها ضد معارضيه.

والواقع أن انتشار الإسلام كان انتشاراً بسيطاً في بدايته واعتمد على عامل الإقناع الفردي بدليل أن خليفة ياجي لم يحمل اسماً إسلامياً بل حمل اسماً وثنياً، ويعتبر وصول الملك عمر 1410 ـ 1431 نقطة تحوّل رئيسية بالنسبة

(10) إبراهيم جوب، ص 23 ـ 14.

للإسلام حيث قام بكسر كل التماثيل التي ترمز إلى الوثنية. وفي عهد خليفته يعقوب 1431 ـ 1463 م انتشرت المساجد في كثير من القرى، ووصلت هجرات كثيرة من الفولاني والتي ساهمت هي الأخرى بدور كبير وواضح في انتشار الإسلام وقد أوضحت الدراسات التي ظهرت حول مخطوط كانو ذلك الصراع الذي كان على أشده ولأجيال عديدة بين الوثنية كديانة تقليدية للإفريقيين وبين الدين الجديد المتمثل في الإسلام[11].

وابتداء من القرن الخامس عشر بدأت المنطقة تحظى باهتمام عدد من علماء شمال إفريقيا، وفي الربع الأخير من نفس القرن ظهرت فيها حركات إصلاحية على يد بعض المصلحين ثم تطورت حركة الإصلاح هذه بوصول محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى المنطقة والذي عرف بمكانته العلمية وبأفكاره الثورية وقد نالت مؤلفاته شهرة واسعة ولاقت أفكاره الإصلاحية في السياسة والاقتصاد رواجاً وأرضاً خصبة[12]. وقد انتقلت كانو في عهده إلى مصاف الدول وزادت أهمية خاصة تمثلت في تأثيرها الخارجي وفي وصولها مرحلة من الزعامة بين الولايات الأخرى، وأطلقت الرواية على المغيلي لقب «الشريف الولي» ويقال إنه أحضر معه بعض العلماء وإنه جاء من المدينة المنورة واختار كانو لأن تربتها تشبه تربة المدينة[13] وهنا تبدو المبالغة في هذه الرواية فالمعروف أن المغيلي كان في مدينة توات في الشمال وكانت زيارته لغرب إفريقيا في فترة سابقة لذهابه للحج.

ولا شك أن دور هذا العالم المسلم في منطقة جنوب الصحراء كان دوراً هاماً حيث اعتبر من الدعاة الذين أثروا تأثيراً واضحاً في سير خط الإسلام ووجد

---

(11) Robert, Histoire de L'Islam, P. 129.

(12) كاثي، ص 17.

(13) Carbou, P. 223.

في الحاكم محمد رونقا 1463 ـ 1499 تلميذاً مطيعاً لتقاليد الإسلام مما أتاح للمغلي حرية الحركة والعمل وتعدد نشاطه في الدعوة والوعظ ونشر المعرفة فقد ازداد عدد العلماء زيادة كبيرة، كما كان له تأثير كبير على النواحي السياسية والإدارية والقانونية حيث استعان به محمد رونقاً لإعداد دراسة للقوانين والأحكام الدستورية لدولته فكتب له المغيلي رسالة شاملة عن واجبات الملك المسلم، واعتبرت هذه الرسالة أو وثيقة كتبت عن بلاد الهوسا باللغة العربية، كما كتب بحثاً شاملاً عن تصوره لهيكل الحكومة وضمن آراءه في كتاب بعنوان «تاج الدولة فيما يجب على الملوك». وقد لاقت هذه الآراء قبولاً حسناً لدى الحاكم الذي قام فعلاً بتنفيذها في حكومته[14]، كما أمر الملك ببناء مسجد لصلاة الجمعة. وإجمالاً نستطيع القول إنه في عهد محمد رونقا أصبح الإسلام ديناً رسمياً للدولة وسمى الحكام بأسماء عربية إسلامية، وبدأ الإسلام في الانتشار تدريجاً ليشمل عدد كبير من رعايا الدولة كما انتشرت الثقافة العربية والتي كانت عنصراً مكملاً لانتشار الإسلام.

أما عن كاسيتنا فإن الإسلام وصل إليها في نفس الوقت الذي وصل فيه إلى كانوا وأول الحكام الذين أسلموا فيها حسب الرواية محمد كورا الذي حكم حتى عام 1430 حيث انتصر على الوثنيين والمسلمين بل استمر لفترة طويلة وفي الوقت الذي جاء فيه الإسلام مبكراً بالنسبة لكانو وكاستينا فإنه انتشر متأخراً في كثير من الولايات الأخرى ففي ولاية زازو وردت قائمة لملوكها وكان أول من أسلم منهم الملك الرابع والعشرون واسمه عليوه والذي حكم أواخر القرن السادس عشر.

وارتبط الإسلام بظاهرة التجارة وتطورها ويبدو ذلك واضحاً من التقدم الملموس الذي حدث في المجتمع والذي أصبح يمثل مركز هام من مراكز التجارة جنوب الصحراء ولعل أول هذه التطورات حدثت في القرن الرابع عشر

---

(14) كاثي، ص 17 ـ 18.

عندما افتتح الطريق المباشر بين كانو ومدينة غات وهي طريق ذات أهمية كبرى تمثلت في تقصير المسافة واختصارها، وتلا هذا التطور الطريق المعروف بطريق الأربعين وهو الطريق الرابط لمصر عن طريق النوبة ثم دارفور فمناجم الذهب في منطقة الأشانتي وقد افتتح بعد توقف استمر لمدة ثلاث قرون بسبب الصراع بين المسلمين والدولة المسيحية في أعالي النوبة، كذلك لا ننسى أن الطرق التجارية المتصلة بنهر النيجر في شمال إفريقيا قد تدهورت بعد الغزو المغربي للسنغاي وقد ساعد ذلك على أن تتحول الطرق نحو الشرق منذ عام 1591 مما زاد في أهمية كانو وأصبحت تمثل أهم مراكز التجارة في السودان الغربي[15].

وقد أثر ذلك على ولايات الهوسا الأخرى التى أصبحت محط أطماع في أوقات مختلفة منذ منتصف القرن السادس وقد كانت ولايات الهوسا في هذه الفترة تمر بمرحلة من الرخاء الاقتصادي فأصبح الاستيلاء عليها مغرياً، ففي عام 1513 أرسلت السنغاي قواتها إليها وتمكن أسكيا محمد من السيطرة عليها وفشلت الولايات في الدفاع عن نفسها وسقطت الواحدة تلو الأخرى وقتل ملوك كل من جوبير وكاستينا وزازو وأسر ملك كانو بعد سقوط دولته ولكنه رجع إليها بعد أن تعهد بدفع الضرائب والتي كانت عبارة عن ثلث دخل البلاد السنوي، وأصبحت الولايات الأخرى تابعة لاسكيا محمد وعين على كل منها أمير من أتباعه وأرهق كاهل السكان بالضرائب[16].

وتمكن محمد كانتا الذي تعاون في بداية الأمر مع اسكيا محمد من أن ينقلب عليه ويهزمه خلال ثلاث سنوات من المقاومة تمكن من صدّ محاولات كل من السنغاي وبرنو وكوّن لنفسه دولة كبرى على حساب أملاك السنغاي

---

(15) لمزيد من المعلومات عن حركة التجارة والطرق التجارية في هذه المناطق انظر:

ـ إبراهيم حركات «دور الصحراء الإفريقية في التبادل التجاري» ص 37 وما يليها.

(16) حسن الوزان، ص 182.

امتدت من أطراف الصحراء حتى نهر النيجر، ومن الملاحظ أن تكوين هذه الدولة اعتمد على قوته الشخصية لذا فإنها انهارت بسرعة بمجرد وفاته في عام 1520، ثم تحررت بقية الولايات من سيطرة سنغاي فتحررت كاسيتنا في عام 1554، واستطاعت ولايات الجنوب خاصة بينه بناء علاقات تجارية مع البرتغال، كما تميزت هذه الفقرة بظهور ونمو مدينة تمبكتو حيث طغت على بلاد الهوسا من الناحية الثقافية.

ونتيجة للصراع الذي وقع بين ولايات الهوسا بدأت تعيش مرحلة من الضعف الواضح كما أن الكثير من القبائل الموالية لها أخذت تتحرر تدريجياً.

ثانياً: انتشار الإسلام في كانم برنو ووداي

قامت مملكة الكانم برنو شرقي بحيرة تشارد وامتدت في الشرق حتى بحر الغزال وشملت واداي في منطقة تشاد والمناطق الواقعة إلى الغرب من بحيرة تشاد والتي تعرف قديماً بإقليم برنو بجمهورية نيجيريا حالياً ولذلك عرفت في التاريخ بمملكة كانم ـ برنو(17). وقد استوعبت العديد من الشعوب المختلفة التي كانت تمثل أمة لها حضارة وتراث، وأهم القبائل التي تكونت منها هي الصدثم والزغاوة والبلولا والكانوري والتيدا والعرب. وكانم اسد بلد وليست نسبة إلى جنس كما ذكر اليعقوبي وابن خلكان وقد اختلف الباحثون في تحديد نشأتها في الوقت الذي كان يقطنها الزنج ويباشرون حكمها، وقد ذكرت موسوعة كامبرج أن ظهورها ارتبط باستيطان الرعاة في الصحراء وخاصة الزغاوة في ولايات الزنج الصغيرة التي كانت قائمة وكان ذلك في أوائل العصر الإسلامي(18). وهناك من يرى بأنها قامت في القرن الثامن الميلادي وحددها

(17) Carbou, P. 219.

(18) Marc, P. 130.

البعض بسنة 85 م بينما حددها آخرون بعام 800 م في منطقة محصورة بين النيل والنيجر بالتحديد شمال بحيرة تشاد[19]، بينما تفيد روايات كانم بأن بطلاً عربياً من اليمن هو سيف بين ذي يزن سيطر على جماعة من الرحل في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ثم بسط وذريته نفوذهم على عدد آخر من القبائل أصبحت تعرف باسم الكنوري أو شعب كانم، وقد ظلت هذه الأسرة السيفية أو اليزينيه التي قامت في أوائل القرن التاسع الميلادي تحكم كانم نحو الف عام أي إلى حوالي 1836 م[20].

ونحن نتفق مع هذا الرأي الذي يقول بأنها قامت في القرن التاسع الميلادي وذلك لأنه من المعروف أن هذه المملكة قد قامت عقب زوال مملكة الزغاوي التي نشأت خلال القرنين السابع والثامن.

وقد ورد ذكرها في أغلب كتب الرحالة والمؤرخين العرب والمسلمين، ويبدو مما أورد بعض هؤلاء أن الوثنية كانت تسودها حتى مطلع القرن السادس الهجري وتتمتع كانم بموقعها الجغرافي الذي كان ملتقى لعدة طرق تجارية ثم تأثرها بالحضارة الإسلامية المحيطة بها من كل جانب فقد وصل منذ وقت مبكر إلى مقربة منها عقبة بن نافع الفهري، كذلك هاجر إليها الأمويون الذين هربوا من تتبع العباسيون لهم وتعرضت لهجرات عديدة من شمال إفريقيا، وهكذا عن طريق هؤلاء، وأيضاً التجار نستطيع القول أن الدين الإسلامي قد أخذ طريقه إليها بالطرق السلمية، وتؤكد المصادر التاريخية دخوله على أيدي عناصر عربية مهاجرة وفي فترة مبكرة حيث استقرت فيها جاليات إسلامية كبيرة واكتسبت أهمية بحكم صلاتها بالتجارة الخارجية، وقد حملت قوافل التجار عن طريق فزان وكوار وبواسطة هجرة من جماعة زغاوة أصحاب السيادة في دارفورد

---

(19) نفس المصدر، ص 129.

(20) أمين الطيبي، «وصول الإسلام وانتشاره في كانم وبرنو» مجلة الدعوة، العدد الرابع 1987، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية، ص 180.

ووداي قبل قيام دولة الفور، هاجرت هذه الجماعة الزغاوية من مناطقها ثم دخلت الكانم وأنشأت فيها دولة صغيرة.

ويعتبر شعب الزغاوة من أقدم الشعوب التي وصلت إلى بحيرة شتاد ونجحوا بحكم تكاثرهم في المنطقة من إنشاء مملكة واسعة الأطراف امتدت فيما بين تشاد غرباً إلى النوبة شرقاً[21]. ولكن الأصول البعيدة لهذا الشعب مثار خلاف وجدال بين المؤرخين فرغم أن أخبارهم كثيرة إلا أنها غامضة فنحن نجد ذكرهم في كل ما يتصل بانتشار الإسلام في المنطقة دون أن نعرف شيئاً محققاً عنهم، وقد ناقش حسين مؤنس هذه القضية مناقشة علمية جادة توصل من خلالها إلى أن هؤلاء كانوا في أصلهم البعيد فرعاً من قبيلة زواغة كما يسميها ابن خلدون وزغاوة هؤلاء يكتبون أحياناً زواوة وأحياناً أخرى زوازة وربما زواره وكلها تحريفات للاسم الأصلي، وقد هاجرت زغاوة من مناطقها على ساحل البحر المتوسط إلى بلاد الجريد جنوبي تونس ثم إلى طرابلس ومنها أخذوا طريق فزان وكوار إلى إقليم تشاد ثم اتجهوا شرقاً فاستقروا في إقليم دار فور وأعطوا اسمهم لجزء كبير منه، وقد دخلوا هذه الناحية مسلمين حاملين معهم جانباً كبيراً من الثقافة العربية الإسلامية فأنشأوا المساجد في المناطق التي وصلوا إليها وأصبحوا مركزاً من مراكز الإسلام وانتشاره في السودانيين النيلي والتشادي وقد أتيح لها بعد أن استقرت في تلك الناحية تجمع بين الطريقين اللذين اتخذهما الإسلام في الوصول إلى السودان التشادي وهما الطريق الآتي من مصر والآخر خلال فزان وكوار، ومن ثم فقد كان لهما أثر قوي وهام في تقوية أكبر تيار فكري ثقافي دخل القارة في تاريخها الطويل وهو تيار الإسلام وحضارته[22].

(21) سعيد الحنديري، الحياة السياسية في تشاد منذ الاحتلال الفرنسي حتى نهاية حكم **تمبلباي**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة قاريونس ـ بنغازي، 1989، وص 18.

(22) حسن مؤنس، ص 99.

وهكذا نستطيع القول أن الإسلام بدأ وصوله إلى كانم منذ أن فتح العرب المسلمون فزان وكوار ومنها أخذ الإسلام في الانتشار رويداً رويداً في السودان الأوسط عن طريق الجاليات المهاجرة والتجار المسلمين.

إن تاريخ الأسرة السيفية المالكة في كانم من حوالي 800 ـ 1846 يوضح أن أول من أسلم من ملوك هذه الأسرة هو حمى بن سعلمه 1085 ـ 1097 الذي أخذ هو وسلاطين كانم من بعده على عاتقهم نشر الإسلام بين رعاياهم ويلاحظ أنه ابتداء من منتصف القرن الثاني عشر كانت الزوجات الرئيسيات لملوك كانم مسلمات كما يستدل من اسمائهن وأسماء آبائهن[23]. وكان انتشار الإسلام وتأثيره محدداً في هذه الفترة حتى عهد السلطان دونما ديبالامي 1210 ـ 1248 حيث أخذ الإسلام بشق طريقه بقوة بين عامة الناس. ويمكن القول إن إمبراطورية كانم قد بلغت أقصى اتساعها في عهده، وقد اشتهر دونما بأنه غازياً وفاتحاً وناشراً للإسلام حيث قام بغزوات ضد القبائل القاطنة حول بحيرة تشاد، كما تعززت في عهده العلاقات مع الدول الإسلامية بشمال إفريقيا حيث أسس حوالي عام 1244 مدرسة في القاهرة لإقامة طلبة كانم الدارسين فيها[24] أما عن التأثير الإسلامي فقد اتضح على كافة الأصعدة حيث أدى انتشاره بالإقناع إلى رسوخ الإيمان والعقيدة الصحيحة في قلوب الناس وبالتالي حلّت روح الإسلام ومبادئه وتعاليمه السمحاء محلّ المعتقدات الوثنية الفاسدة فتم تدريجياً القضاء على العادات والتقاليد الوثنية الموروثة والمؤثرة في المجتمع الكانمي تأثيراً سيئاً، وانتشرت اللغة العربية لغة الحضارة والثقافة والمدنية بين المواطنين وأصبحت هذه اللغة هي الرسمية للدولة طوال أحقابها التاريخية الطويلة وانتشرت المدارس وطرق انتشار اللغة والثقافة العربية بشكل واسع وأقبل الناس على التعليم دون تردد وأصبحت المراسلات والوثائق والمحفوظات التي تمثل

---

(23) الطيبي ص 185.

(24) نفس المصدر السابق، ص 187.

تاريخ هذه المنطقة وحضارتها تكتب بلغة عربية وقد بلغت درجة كبيرة من الجودة وحسن التعبير وسلامة اللغة والخط[25]. وقد ساعد على ذلك في حقيقة الأمر وجود العلماء والمؤرخين والمهتمين بالجوانب الثقافية بكثرة أمثال أحمد بن فرتوا مؤرخ البلاط الكانمي زمن السلطان إدريس ألوما 1562 ـ 1603 وأحمد بن ماني الذي كان له دور كبير في نشر الإسلام وترسيخه في المنطقة والشيخ سفرمه عمر بن عثمان والشيخ محمد الكانمي الذي حكم ما بين سنوات 1811 ـ 1835 والذي يعتبر من أبرز علماء المالكية في إفريقيا وهو من مواليد فزان وكان له دوراً واضح في نشر الإسلام بكانم التي استقرّ بها فترة وكان له الفضل في الدفاع عنها ضد زحف الفولانيين حيث نظم قوة من أنصاره لوقف التقدم الفولاني وأصبح منذ تلك الفترة في نظر الكانميين البطل المنقذ وهذا ما أوصله إلى سدّة الحكم فيها[26].

كما كان للإسلام دوره الواضح في تغيير الأعراف الاجتماعية والسياسية المعروفة والسائدة فقد كان سلاطين كانم وحكامها يتوارثون الحكم عن طريق الأمهات شأنهم شأن الكثير من المناطق الإفريقية الأخرى وكان يطلق على هؤلاء السلاطين (المايات) فعرفت المنطقة العديد من هؤلاء السلاطين الذين نسبوا إلى أمهاتهم أمثال عثمان بن زينب وداوود بن فاطمة ودونمة بن ديالا وإدريس ألوما بن عائشة، ولكن بانتشار الإسلام وتعاليمه بينهم أصبح المايات يتوارثون الحكم عن آبائهم كما أخذ في الاعتبار أصلح الأبناء وليس أكبرهم كما أخذت الشورى طريقها إلى الحياة السياسية حيث وجد في نظامها السياسي إلى جانب السلطان مجلس شورى عرف باسم مجلس الأكابر أو مجلس أرباب الدولة الذي يتكوّن من إثني عشر عضواً وكان يناقش أمور الدولة أثناء السلم والحرب[27].

---

(25) سعيد الحنديري، **الحياة السياسية في تشاد**، ص 24.

(26) نفس المصدر.

(27) نفس المصدر، ص 25 ـ 26.

كما كان للإسلام تأثيره الواضح على سلوكيات الأفراد من حيث آداب الحديث والملبس والمأكل والاحترام المتبادل وحثهم على مساعدة الفقراء والمحتاجين وآداء الزكاة، كما ألغى الأعراف الموروثة في التبادل والتعامل التجاري حيث ألغى نظام الربا وقضى على ظاهرة الغِشّ وغيرها من المظاهر السيئة المعروفة في مثل هذه المجتمعات.

لقد بلغت الإمبراطورية من الاتساع والقوة في المنطقة ما لم تبلغه أي إمبراطورية أخرى خاصة في عهد السلطان دونما ديبالي، ولكن كما هي الأحوال دائماً تتغير ولا تستمر، بدأت هذه الدولة تواجه الكثير من المتاعب بعد عهد دونما بسبب تنازع الأبناء واستقلالهم في الولايات مما أدّى إلى تدخل قبائل البلالة في الأراضي الواقعة جنوبي كانم والسبب في ذلك يعود حسب رأي مؤرخي المرحلة إلى قيام السلطان دونما بتدمير شيء مقدس يدعى مونى Moni الذي كان يشكل عنصراً أساسياً لعبادة ملكية منذ مرحلة ما قبل الإسلام وكان خاصاً ببني سيف الذين عظموه ووضعوه في مخبأ لا يجوز فتحه وكانوا يرون أن انتصارهم يتوقف عليه ولما فتحه أغضب ذلك فرعاً من الأسرة الحاكمة عرفت فيما بعد باسم البلالة الذين رأوا أن فتحه وتدميره كان يعني التخلي عن قدسية الملوك ويبدو أن السلطان دونما بتدميره له أراد إزالة أثر من آثار الوثنية في كانم إسوة بما فعله المسلمون بالأصنام في مكة المكرمة عند فتحهم لها وهذا دليل على ما أشار إليه الكثير من المؤرخين من أن دونما هو أول مسلم صحيح من ملوك كانم[28].

كما واجه سلاطين كانم في أوائل القرن الرابع عشر صراعاً شديداً من الشعوب غير الكنورية جنوبي بحيرة تشاد وغربها وهي الشعوب المعروفة باسم ساو وقد قتل في هذا الصراع أربعة من ملوك كانم[29] ونتيجة للمشاكل والصراع

---

(28) Robert (B) **Histoire de L'Islam**, P. 135.

(29) الطيبي، «وصول الإسلام»، ص 188.

الداخلي في الدولة، ونتيجة للحروب التي استمرت دون انقطاع طوال معظم النصف الثاني من القرن الرابع عشر أخذت أحوالها في التدهور والانحطاط خاصة بعد استيلاء البلالة على مدينة جيمي والتي كان من نتيجتها هروب السلطان عمر بن إدريس (1386 ـ 1391) ناحية الغرب من بحيرة تشاد حيث استقرّ بمدينة كاجا Kaja ببرنو التي نزحت إليها أيضاً جماعات كثيرة من كانم منذ بداية الصراع واندلاع الثورات أي منذ نهاية القرن الثاني عشر حيث أخذت تستقرّ في إقليم برنو.

وفي أواخر القرن الرابع عشر استمر الصراع بين أفراد الأسرة المالكة في برنو مما دفع بالبلالة وغيرهم للانقضاض عليها ولم تستقر الأوضاع إلا في عهد علي جاجي الصغير 1476 ـ 1503 حيث تمكن من إنهاء هذا الصراع واختط حوالي عام 1484 عاصمة مسوّرة جديدة في جازارجامو Gazargamu أقام بها سلاطين برنو في القرون الثلاثة التالية، ومنها أقاموا إمبراطورية كانم ـ برنو الثانية، ويعتبر السلطان علي جاجي المؤسس الحقيقي لها وواحداً من أعظم سلاطينها الثلاثة مع دونما ديالامي وإدريس علومه حيث ازدادت في عهده التأثيرات الإسلامية وأصبح للعلماء والفقهاء مكانتهم المرموقة في الدولة، كما قام باتخاذ لقب خليفة وحذا حذوه فيما بعد بقية السلاطين. وفي عهد خلفه إدريس كات جارمابي 1503 ـ 1526 أعيدت كانم وأصبح زعماء البلالة خاضعين له[30] لقد تشكلت هذه الإمبراطورية الثانية وأصبحت ذات شأن وكانت تحدّها شمالاً الصحراء الكبرى وغرباً ولايات الهوسا وشرقاً بحيرة تشاد وقد ذكر هذه الدولة الكثير من الرحالة والعرب الجغرافيون أمثال ابن سعيد المغربي والمقريزي وابن خلدون والحسن الوزان الذي زارها في بداية القرن السادس عشر[31]. وقد تكونت هذه الدولة الجديدة من نفس القبائل التي تكونت منها

(30) نفس المصدر، ص 189.

(31) حسن الوزان، ص 184.

دولة كانم سابقاً، وقد اهتمت هذه الدولة بالتجارة وكان القائمون عليها من العرب الذين كانوا يمكثون فترات في بلاد كانم ووصلت الدولة الجديدة إلى درجة متقدمة من التطور السياسي، وقد اندهش الرحالة العرب الذين زاروها من وجود نظام سياسي أرقى بكثير مما كان في الممالك السودانية الأخرى، ولا شك أن نظام الإقطاع كان منتشراً فيها وكان ملوكها يسمون أنفسهم (ماي) كما كان الحال عند الكانميين وتعني الزعيم وقد استمرت هذه التسمية حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما توفى آخر حكام أسرة سيف عام 1746 ثم أخذ الحكام يلقبون بلقب الشيخ وهو اللقب الذي لقب به محمد الأمين الكانمي مؤسس الأسرة الجديدة التي قضت على أسرة السيفيين.

يعتبر القرن السادس عشر هو أزهى العصور التي مرت بها الدولة ولا سيما الفترة التي حكم فيها إدريس علومه الذي يعتبر أهم حكام الدولة وقد خاض العديد من الحروب لتثبيت حدود دولته والقضاء على الذين كانوا يغيرون عليها، كذلك قام بأداء فريضة الحج وشجّع المسلمين على تأديتها، وعموماً كانت قوافل حجاج كانم برنو إلى مكة تذهب عن طريق السودان ومصر (درب الأربعين) وكانت تلك القوافل محلّ تقدير وإعجاب لكثرتها حتى احتاجت لإقامة مأوى لها في مصر(32). كما قام ببعض الإصلاحات كالتأكيد من جديد على تطبيق أحكام الشريعة ونقل السلطة القضائية من أيدي رؤساء القبائل إلى القضاة وقام بتشييد المساجد من اللبن، وإجمالاً نستطيع القول أن المملكة قد ساد فيها بحلول القرن الخامس عشر نظام التعليم الإسلامي وازداد عدد الطلبة منذ عهد السلطان علي جاجي فانتشرت المدارس واشتهرت من بينها مدرسة الشيخ أحمد فاطمي ومدرسة كالومباردو التي تقع على بعد خمسين ميلاً من العاصمة والتي تعتبر مركزاً لنشر الطريقة القادرية والتي كان لها دور كبير في نشر الإسلام في المنطقة وانتشرت فروعها وتنقل علماء ودعاة الطريقة بين مناطق

---

(32) سعيد الحنديري، الحياة السياسية في تشاد، ص 23.

الساحل الإفريقي وكان لهم تأثيرهم الديني والثقافي لفترة طويلة[33].

وفي القرن الثامن عشر ظهرت مدارس أخرى في ماشينا وفي العاصمة جازار جامو وكان يدعمها السلطان شخصياً، وقد اجتذبت إليها الكثير من المسلمين من بقية المناطق الأخرى، وكان لهذه المدارس صلة وعلاقة بالجامع الأزهر وقصدها علماء أتراك وأندلسيون اشتهروا بتعليم الدراسات القرآنية والفقه، واحتفظت برنو بمكانتها في مجال تدريس العلوم القرآنية إلى عهد قريب، وبفضلها مع بقية عوامل انتشار الإسلام الأخرى تقبّل عامة الناس الإسلام والتزموا بتعاليمه أكثر من غيرهم[34].

وفي القرن السادس عشر تمكنت الدولة من بناء علاقات ودية وتجارية مع الدولة العثمانية عن طريق حكم فزان، كما بنوا أيضاً علاقات تجارية مع دولة المغرب الأقصى خاصة في عهد المنصور ملك السعديين وأغلب هذه العلاقات تمّت في عهد إدريس علومة، إلا أنه بعد وفاته تولى عدد من الحكام الضعاف ودبّ التنافس والصراع، ومع بداية القرن السابع عشر بدأ الضعف يدبّ في جسم الدولة وإن كان الملك علي ابن الحاج عمر 1645 ـ 1685 الذي اعتبر من أهم السلاطين بعد إدريس والذي وصف بأنه محارباً قديراً وأدّى فريضة الحج ثلاث مرات وقد تمكن من إلحاق الهزيمة بالطوارق أكثر من مرة.

وفي نهاية النصف الثاني من القرن الثامن عشر وفي علي بن بالحاج حمدون تعرضت المملكة للغزو الفولاني ونشبت بين الطرفين معارك وحروب طاحنة تمكن من خلالها الفولانيون من الاستيلاء على أغلب مناطق المملكة إلا أن الشيخ محمد الكانمي تمكن في عام 1811 من وقف هذا الزحف معتمداً على قوة تمّ تشكيلها من القبائل العربية ولكانمبو، ثم أخذ الكانمي في تنظيم

(33) كمال الدقير، «دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان»، ص 37.
(34) أمين الطيبي، «وصول الإسلام» ص 190.

شؤون الدولة حيث قام بتحصينها وشيّد العديد من المباني ودور العلم، كما شهدت كانم في هذه المرحلة نشاطاً استكشافياً أوروبياً واسعاً وكان من الممكن أن تستمر قوة الدولة وتطورها لولا تعرضها في عام 1893 لأخطر هجوم خارجي عرفته منذ تأسيسها وهو غزو الأمير رابح بن فضل الله السوداني لها حيث تمكن بفضل جودة أسلحته وتنظيم جيشه من الاستيلاء على الإمارات الصغيرة التابعة للمملكة كما استوى على باقرمي وكانم عام 1893 بهذا الاستيلاء تمكن من السيطرة على مساحة كبيرة من الأرض تمتد من دار فور شرقاً إلى غرب بحيرة تشاد، وهكذا تمّ القضاء على مملكة كانم التي عاشت ما يقرب الألف عام[35].

أما واداي فهي منطقة إسلامية كانت تشمل الطرف الغربي من حوض بحر الغزال ونهيراته المتعددة وتمتد شمالاً وشرقاً مكونة حاجز بين كردفان ودارفور في الشرق وبلاد الكانم في الغرب وتمتد شمالاً حتى السفوح الجنوبية لجبال تبستي ويقع الآن جزء منها بجمهورية السودان والجزء الآخر في جمهورية تشاد.

أما سكانها فهم خليط من مجموعة قبائل ومناطق إلا أن قبائل التنجور هم أول من حكم هذا الإقليم ثم أصبح سكانها ينقسمون إلى مجموعات مختلفة منها مجموعة سودانية مثل الزغاوة والبجيجا وهؤلاء يتكلمون لغات سودانية قريبة من لغة النوبة، ثم جماعة الأفارقة وأهمها الكنوريون والتبد وهم المعروفون بالبتو وأخيراً جماعات العرب ويمثلهم أولاد سليمان وعرب الشوا[36].

وهناك اختلاف حول مدلول لفظة واداي ومصدر التسمية إلا أن هناك

---

(35) لمزيد من المعلومات عن سقوط كانم وحروب رابح في المنطقة راجع:
ـ سعيد الحنديري، «الحياة السياسية في تشاد» ص 27 وما يليها.

(36) حسين مؤنس، ص 101.

اتفاق على أن اسمها السابق هو دار صليح نسبة إلى صالح أو صليح مؤسس الحكم العباسي فيها حيث توارث أبناءه من بعده العرش[37].

ارتبطت واداي كغيرها من المناطق الإفريقية الأخرى بدول الشمال الإفريقي ومصر حيث كان هناك طريق تجاري يربط بينها وبين القاهرة وهو الذي يعبر ليبيا إلى الواحات المصرية وكان السبب في فتح هذا الطريق هو الأحداث التي أدّت إلى عزل المملكة عن السودان الإنجليزي المصري وقفل طريق الأربعين الذي كان منفذاً رئيسياً لسلع المملكة، وكان التجار بالرغم من ذلك يصلون القاهرة بالطريق الغربي في الحقبة التي تلت عام 1890[38].

لقد لعبت فزان دوراً هاماً ورئيسياً في نشر الإسلام في واداي فأغلب الهجرة التي جاءتها كانت من جنوب ليبيا حيث إنه من الثابت أو أولاد سليمان دخولها في منتصف القرن التاسع عشر عندما أخرجهم الأتراك العثمانيون من فزان، كذلك وصل إليها عن طريق فزان أيضاً جزء من قبائل الشوا[39].

أما عن النظام السياسي في واداي فإن السلطان هو الحاكم وهو أعلى سلطة في الدولة ويساعده مجلس يسمى مجلس أصحاب الشورى أو مجلس الحل والربط ويتكون أعضاءه من أهم رجال الدولة ويقوم هذا المجلس بإدارة شؤون المملكة أثناء السلم والحرب ويشرف على مراسيم تولي السلاطين ويشارك بعض أعضائه في الحرب مثل العقداء الذين من ضمن واجباتهم قيادة الجيوش وتزويد السلطان بالمحاربين[40].

---

(37) Marc. L. **Histoire du Tchad,** P. 92.

(38) يترنس دالاس، «تجارة القوافل بين ليبيا ومصر، دور عبدالله الكحال» مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1981، مركز الجهاد، طرابلس، ص 105.

(39) حسين مؤنس، ص 102.

(40) سعيد الحنديري، الحياة السياسية في تشاد، ص 33.

وخلاصة القول إن منطقة الساحل الإفريقي قد وصل إليها الإسلام وانتشر بها انتشاراً واسعاً وذلك بفضل هجرة عناصر وجماعات عربية إسلامية من مناطق مختلفة وذلك لأن هذه المنطقة كانت تمثل عامل جذب لهذه الهجرات فظهرت منها فئات كثيرة استقرت بها مما أدّى إلى تطور المنطقة حضارياً وذلك بظهور القرى والمدن وتطور نظم التجارة والصناعة والزراعة، وهذا الاستقرار أدى بطبيعة الحال إلى استقطاب الأفارقة الذين كانوا يعيشون فراغاً روحياً فالتفوا حول حملة الحضارة الإسلامية الجديدة فأخذ الإسلام طريقه بينهم في سهولة ويسر وتأقلمت هذه الشعوب المختلفة وعاشت في سلم ولم تحدث بينها أي مشاحنات أو حروب لأن الشعوب الإفريقية تقبلت الثقافة الجديدة وتفاعلت معها والدليل على ذلك كما أشرنا سابقاً إصرار ملوك وسلاطين وأمراء هذه المناطق على الانتساب إلى الأصل العربي، كما بلغ التأثير الإسلامي مده في أن كثير من أسماء الأماكن والأودية والمنخفضات وغيرها أخذا أسماء عربية إسلامية، كما انتشرت اللغة العربية بشكل واسع مما أدهش أولئك المهتمين الأجانب بالدراسات الإفريقية(41).

(41) Martin (S) **Histoire de L'Islam en Afrique.** Paris, T.A. 1972, P. 119.

الفصـــل السابـــع

مملكـــة غـانـــا

مملكـــة غانـــا

أولاً: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل الإسلام

تعتبر غانا أول الممالك الإسلامية التي ظهرت في إفريقيا إلا أن تاريخها المبكر يكتنفه الغموض، فهناك من يرى إن تكوين هذه المملكة يعود إلى فترة سبقت ظهور الإسلام، لكن قوتها ظهرت في العصر الإسلامي حيث برزت في القرن الثاني الميلادي[1] ورأي آخر يرى إنها وجدت منذ القرن الخامس الميلادي وتبوأت مكانة ذات شأن منذ حوالي القرن التاسع حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر[2] بينما هناك من يرجّح قيامها في القرن الرابع الميلادي[3]، ولكن المرجّح إن تاريخ تكونها قد حدث قبل الإسلام بفترة طويلة تجاوزت القرنين.

ويقصد بإمبراطورية غانا أو دولة غانا تلك المنطقة التي شملت كل من موريتانيا والجزء الشرقي من السنغال ثم بعض المناطق من دولة مالي حيث قامت في الأقاليم الواقعة بين نهر السنغال والنيجر منذ القرن الأول الميلادي

---

(1) أحمد سويلم العمري، **الإفريقيون العرب**، القاهرة، مكتب الأنجلو المصرية، 1967، ص 27.

(2) أحمد سعيد الفيتوري، الجاليات العربية، ص 246.

(3) نعيم قداح، **إفريقيا العربية في ظل الإسلام**، القاهرة، سلسلة الثقافة العربية، 1960، ص 28.

حتى عام 1240 حضارات راقية تمثلت في ظهور مملكة أوكارا أو غانا التي توسعت وأصبحت إمبراطورية بعد هذا التاريخ.

أما عن سكانها فقد كونت قبائل الونتك أو السوننكي Souniki غالبية سكانها وهذه القبائل إحدى فروع الماندو ومن أشهر قبائل السونيكي عشر مجموعات تختلف نسبتها من منطقة لأخرى وهذه الأقسام هي:

1 ـ الستين 2 ـ السيلى 3 ـ الساخو 4 ـ الدوكري 5 ـ الدياورا
6 ـ باكراي 7 ـ الدبالي 8 ـ الكابا 9 ـ الىناغتي 10 ـ الونقارا

ومعنى كلمة غانا لغة السونيكي «القيادة العسكرية» ومن هنا أطلقت هذه الكلمة على المدينة التي كانت بها هذه القيادة، أما البكري فيقول بأن كلمة غانا كانت سمّة لملوكهم وربما لأنها كانت تحمل معنى القائد العسكري ثم اتسّع استعمالها ومعناها فأصبحت تطلق على العاصمة(4). أما القلقشندي والمقريزي فإنهما يستعملان اسم غانا، أما ياقوت الحموي فإنه يقول عنها «غانه مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان»(5). أما ديفرسون فيرى بأن غانا عرفت في العالم الخارجي بلقب ملكها جانا الحاكم الأعلى، وهي عاصمة الإمبراطورية التي تألفت من قسمين يقع كل منهما على تلّ تمتد نحو الوادي على رقعة يبعد كل قسم عن الآخر ستة أميال يسكن المسلمون في قسم والوثنيون في قسم آخر(6). ويتفق المؤرخون على أن غانا نمت واتسعت على مرّ العصور وتحولت إلى إمبراطورية عظيمة الاتساع خاصة بين القرنين التاسع والحادي عشر إلا أنهم اختلفوا حول أصل الأسرة الحاكمة فيها، فالسعدي يقول: «إن غانا إمارة عظيمة على أرض باغن قيل إن سلطنتهم كانت قبل البعثة

---

(4) البكري، ص 174.
(5) أحمد شلبي، ص 102.
(6) ديفرسون، **لمحات من تاريخ إفريقيا**، ت، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، طرابلس، مطابع الثورة العربية، ص 37.

حينئذ 22 ملكاً وعدد ملوكهم 44 ملكاً وهم بيضان الأصل ولكن لا نعلم من ينتمي إليه في الأصل»[7]. والواضح من الروايات الشفهية المتداولة إن جماعة من المهاجرين الساميين جاءت من الشرق أو من شمال إفريقيا ومن منطقة برقة بالذات واستقرت في منطقة أوكارا وقد أشار إليها البكري في كتابه «المسالك والممالك» ثم اختلطت سلمياً، وفي وقت ما من القرن الرابع الميلادي استطاع هؤلاء المهاجرين بسط نفوذهم وتزعموا السكان وظهر أول ملك من بينهم وهو كارا، وقد تعرّض الكثير من الباحثين بهذه المنطقة بفكرة وجود حكومة بيضاء في غانا من بينهم ماني Mani الذي ذكر بأن الإدريسي أول من أشار إلى ذلك حين قال بأنه في سنة 790 م قام الملك ماغان بطرد المهاجرين نحو الصحراء[8] وهناك بعض المؤرخين الغربيين الذين حاولوا أن يدللوا بأن الحكومة البيضاء التي حكمت غانا حتى القرن التاسع الميلادي ما هي إلاّ بعض العناصر اليهودية التي هربت من برقة بعد ثورة اليهود عام 115 م في مدينة شحات وما نتج عنها من اضطهاد لهذه العناصر[9].

وهكذا نستطيع أن نستنتج بأن الحكومة التي قامت بتسيير أمور الحكم في غانا من القرن الرابع إلى القرن الثامن كانت من العناصر المهاجرة التي جاءت واستقرّت بين السكان الوطنيون، وفي نهاية القرن الثامن قامت بعض العناصر من السونيكي بالسيطرة على مقاليد الحكم واستمرت حتى سيطر المرابطون عليها، ومن المعروف أن سكان الصحراء حاولوا قبل ذلك إقامة حلف ضد دولة غانا من أجل السيطرة على مدينة أودغست ولكن غانا تمكنت من الاحتفاظ بها وتعود أهمية هذه المدينة والتي توجد الآن في موريتانيا أنها عاصمة مملكة إسلامية تحكمها قبيلة لمتونة وهي وطن ابن ياسين وتقع على بعد حوالي مائتي

(7) السعدي، ص 119.

(8) Marc (L) Histoire du Ghana, Paris, S.E, 1962, P. 110.

(9) نفس المصدر، ص 119.

ميل شرقي كومبي العاصمة وتعتبر من أهم محطات القوافل في هذه المنطقة وقد تعدّدت أسواقها(10).

أما عن الحياة الاقتصادية فقد اعتمدت غانا على تجارة القوافل حيث أن موقع عاصمتها كومبي على حدود الصحراء وفي أقصى شمال غرب إفريقيا جعلها حلقة اتصال بين الشمال والجنوب وبهذا أصبحت العاصمة أهم المدن التجارية في بلاد السودان الغربي لفترة امتدت لثلاث قرون وفي هذه الفترة استقرّ فيها الكثير من تجار الشمال الإفريقي للإشراف على أمور التجارة فابن خلدون يذكر أن عدد سكانها كان كبيراً وأنها كانت من أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاماً، وكان سكانها يرتدون الملابس الصوفية والقطنية والحريرية وازدهرت الصناعة وبالذات صناعة النسيج والأقشمة والنحاس والأحجار الكريمة والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة(11).

كما كان سكان هذه الإمبراطورية يمارسون الزرعة والرعي، كما أن الحكومة كانت تسيطر على معادن الذهب والملح اللذان يعتبران من المصادر الهامة لاقتصادها، وقد ساعدها موقعها بين منجمي الملح في الصحراء من ناحية الشمال والذهب من ناحية الجنوب على استقلالها في تجارتها مع دول شمال إفريقيا حيث جلبت عليها هذه التجارة أرباحاً هائلة، كما أن الحكومة كانت تقوم بفرض الضرائب على السلع الداخلة والخارجة(12).

إن هذا الثراء والجاه اللذين تمتعت بهما غانا يعودان بالدرجة الأولى إلى موقعها الجغرافي بين الموارد الطبيعية المتعددة حيث في الجنوب توجد مناجم الذهب وفي الشمال توجد ملاحات تغازا وهذا جعلها محطة تجارية هامة وبوابة

---

(10) أحمد شلبي، ص 105.

(11) ابن خلدون، ص 129.

(12) حامد تراوري، ص 15.

لإفريقيا الغربية ودول الشمال الإفريقي وقد اشتهر غناها ووصل إلى المشرق العربي حيث عرفت بأرض الذهب ومع نهاية القرن العاشر بدأت أخبارها تنتشر لدى كتب الرحالة والجغرافيين العرب(13).

فابن حوقل يذكر إن حاجة ملوك غانا لأهل أودغست ماسة من أجل الملح وأنه لا قوام لهم إلا به وقد بلغ حمل الملح في دواخل بلاد السودان وأقاصيه ما بين 2000 ـ 3000 دينار(14).

إن أهم مراكز مناجم الذهب كما ذكرنا هي تغازا وسجلماسة وكلاهما تقع على طريق القوافل وقد تحكمت قبائل صنهاجة وزناتة في هذه المناجم، أما الذهب فكان يأتي من المنطقة المسماة ونقارا وهي المنطقة التي أصبحت علماً على بعض مجموعات الماندي التي تسكن عند أعالي نهر السنغاي وبالرغم من أنها لم تكن ضمن حدود غانا إلا أن موقع كومبي العاصمة الممتاز جعل غانا تقوم بدور وسيط وتأخذ الضرائب عن كل كمية من الذهب فيما عرف باسم «التجارة الصامتة» ويعني هذا المصطلح مبدأ المقايضة بناءاً على رضى الطرفين، ويؤكد المسعودي على ذلك إذ يقول: «ملك غانات عظيم الشأن ويتصل ببلاد معادن الذهب. . . ولهم خط لا يتجاوزه من صدر إليهم فإذا وصلوا إلى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا فيأتي أولئك السودانيين ومعهم الذهب فيتركونه على الأمتعة وينصرفون ويأتي أصحاب الأمتعة فإذا أرضاهم أخذوه وإلا عادوا ورجعوا فيعود السودانيين ويزيدونهم حتى تتم المبايعة»(15).

ولا شك أن هذا الأسلوب في التعامل كان أساسه أن القبائل التي امتلكت مناجم الذهب كانت قبائل بدائية تخاف الغريب وتتخوّف من معرفته لأماكن المناجم.

(13) أحمد الفيتوري، ص 246.

(14) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 98.

(15) المسعودي، ص 119. «عملة ذهبية تساوي 1/8 أوقية.

ويحدثنا البكري عن مهارة الملك في التجارة فيقول: «إن غانا كانت تفرض ديناراً من الذهب تجبيه على كل حمل حمار من الملح يدخل إلى المدينة، ودينارين على كل حمل يخرج منها، كما أن الذهب والملح يخفضان قيمتهما دائماً، وكان حمل النحاس القادم لغانا من مناجم الصحراء الجنوبية يدفع للملك خمسة متشالات «بينما كانت السلع الأخرى تدفع ضعف هذا المقدار»[16].

وقد شاهد ابن حوقل في أودغست صكاً قيمته اثنان وأربعون ألف دينار كتبت على ذمة التاجر السجلماسي إسحاق إبراهيم بن عبدالله[17].

إن ثراء غانا وما خلفها من إمبراطوريات في السودان العربي قد نشأ نتيجة إلى تبادلها التجاري واستخراجها للذهب حيث قامت فيها طبقة نشيطة من التجار المثقفين لتنشيط الحياة الاقتصادية، وفي ذلك يقول ياقوت الحموي: «بما جمع إليها التجار «أي غات» ومنها يدخل المغازات إلى بلاد التبر ولولاها لتعذر الدخول إليها لأنها في موضع منقطع عن الغرب عن بلاد السودان»[18].

ويقول الهمداني عنها: «إن بلاد غانا ينبت فيه الذهب نباتاً في الرمل كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس»[19].

ويبدو أن مملكة غانا كانت تسيطر على ممالك أخرى نتيجة تحكمها في مصادر الذهب وفي ذلك يقول اليعقوبي: «وملكها عظيم الشأن. . . وتحت يده

---

(16) البكري، بلاد إفريقيا والمغرب» ص 176.

(17) ابن حوقل، ص 97.

(18) أبو عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ 3، ص 170.

(19) أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمداني، البلدان، مطابع بريل، ليدن 1886، ص 87.

عدة ملوك فمنهم مملكة عام ومملكة سامة»[20].

ويبدو أن تجارة غانا لم تقتصر على الذهب فقط، فقد اعتمدت أيضاً على الرقيق إذ كان التجار من المغرب الأقصى يقومون برحلة طويلة وخطرة عبر الصحراء لشراء الرقيق الزنوج لبيعهم في مناطق الشمال وقد اشتهرت كومبي بسوق الرقيق فيها[21].

وقد كان التبادل التجاري يتم بين سجلماسة عاصمة تاهرت في الجنوب العربي وبين بلاد السودان حيث كانت القوافل تذهب من سجلماسة محملة بالمصنوعات المغربية لتعود بكثير من الذهب والرقيق[22].

كما اهتم الغانيون بالصناعة حيث كانت مملكتهم أول الممالك التي عرفت الحديد الذي كان وسيلة فعالة في يد الشعوب القاطنة جنوب الصحراء لاستغلال الأرض والغاب، كما يذكر أن إمبراطورية غانا تكونت في أول أمرها من عشيرة من الحدادين[23] كما استخدموا الذهب في صناعة ثياب الملك وكبار رجال الدولة وفي أغطية الرؤوس ومقابض السيوف وسروج الخيل وكان للملك صولجان به ثلاثون رطلاً من الذهب[24]. كما كان لغانا دار لصناعة المراكب

---

(20) أحمد بن أبي يعقوب، **تاريخ اليعقوبي**، جـ 1، بيروت، دار صادر، 1960، ص 194.

(21) لمزيد من المعلومات عن هذه التجارة راجع: بوفيل، **تجارة الذهب**، ت الهادي أبو لقمة، ومحمد عزيز، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 1988، ص 152، وما يليها.

(22) محمد مزين «**المغرب والسودان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**» المؤرخ العربي، العدد، 31، الجزائر، المركز الوطني للدراسات التاريخية 1987، ص 215.

(23) أمين اسبر، **إفريقيا والعرب**، القاهرة، دار الحقائق، 1980، ص 21.

(24) البكري، ص 176.

الحربية على جوانب بحيرة كوري، كما كانوا يصنعون الأسلحة من الحديد والحراب والرماح والخناجر، كما اهتموا بالزراعة فزرعوا الذرة وغيرها من المحصولات ومارسوا أيضاً صيد السمك[25].

أما عن الجوانب العسكرية فرغم أن الإمبراطوريات السودانية بشكل عام تعتمد في بقاءها وقوتها على القوة العسكرية إلا أن غانا كانت تختلف عنها في هذا الجانب اختلافاً كبيراً لأن السبب في تكوينها لم يكن عسكرياً لذلك بقيت زمناً طويلاً دون الحاجة إلى تكوين قوة عسكرية كبيرة[26] ولكن مع الوقت أصبحت تتمتع بقوة حربية هائلة إذ بلغ عدد المحاربين فيها مائتي الف محارب يحمل تسعون ألف منهم الرماح[26] وكان معظم الجيش يتكون من قبيلة الملك كذلك المرتزقة والمسترقين، وكانوا يستخدمون في حربهم الأسلحة المصنوعة من الحديد كالسيوف والحراب والرماح والخناجر في الوقت الذي كان فيه جيرانهم يحاربون بقضبان الأبنوس[27]، كما اعتمدوا في معاركهم على الأقواس والنشاب والدبابيس التي كانوا يتخذونها من شجر الآبنوس، وأما قصبهم فكان من القصب الشوكي الذي صنعوا منه سهامهم[28].

وكان ملوك غانا وعامة شعبها يدينون بالوثنية التي تجسدت في المجوسية وعبادة الأصنام، ويقيم أهل ديانتهم حول القصر الملكي حيث القباب وقبور الملوك التي يحرسها حرس خاص ولا يمكن لأحد من الغرباء دخولها ولا معرفة ما فيها[29] وتقوم الوثنية في جميع أنحاء إفريقيا على تقديس القوى الطبيعية

(25) زاهر رياض، الممالك الإسلامية، ص 109.
(26) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 96.
(27) عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ص 111.
(28) شمس الدين أبو عبدالله الدمشقي، تحفة الدهر في عجائب البر والبحر، بطربورغ، مطبعة الأكريمة، ب. ت، ص 110.
(29) محمد عبد المنعم الحميري، الروض العطار في خبر الأقطار، حققه إحسان =

كالأشجار الضخمة والحيّات والحيوانات، وينظر إلى الملك الغاني على أنه ممثل الإلّه لأنه زعيم عظيم لأقى القبائل وتشترط فيه القوة التي هي عنصر مقدس وكثيراً ما كان زعيم القبيلة يتدحرج على الأرض المحروثة ليجلب لها الخصب، وإذا مات الملك صنعوا له قبّة عظيمة من خشب الساج ويأتوا به على سرير قليل الفرش والغطاء ثم يدخلوه في تلك القبة ويضعوا معه رجالاً من الذين كانوا يقدمون له الطعام والشراب ثم يغلقون باب القبة بعد أن يضعوا فوقها الحصر والأمتعة ثم يردمونها بالتراب حتىً تصبح كالجبل الضخم ثم يخندقون حولها حتى لا يتم الوصول إلى ذلك الكون إلا من موضع واحد، كما أن من عاداتهم أنهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور[30]، وعلى هذا فإن الحياة الأخرى تقوم على الإيمان بالبعث لذا تدفن حاجات الميت معه لأنه يحتاج إليها في حياته الثانية، لذا فإنهم اهتموا اهتماماً كبيراً بالقبور فكانت على شكل إهرامات لا يدخلها إلا السحرة والكهان.

أما المعابد فهي عبارة عن أبنية بسيطة مربعة ذات أبراج أسطوانية مزينة بالصور، وكانوا يقدسون الحية ويقدمون لها كل عام إحدى الفتيات قرباناً[31] وكانوا يعتقدون أن أرواح الأسلاف تسكن التماسيح التي في مجاري المياه ومن ثم نجد في بعض القرى برك في كل منها تمساح يطعمه الأهالي الدجاج ويعتقدون أن رخاء القرية متوقف على بقاء التمساح الذي يحرسه حارس خاص يقدم له الطعام ويردّ عنه أنظار المتطلعين وبالذات الغرباء عن القرية وكانوا يعتبرونه بمثابة الأب والسيد[32].

= عباس، بيروت، دار القلم، 1985، ص 465.

(30) حسن عيسى، الدعوة الإسلامية، ص 96.

(31) قداح، إفريقيا الغربية، ص 35.

(32) محمد عبد الفتاح إبراهيم الثقافات الإفريقية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1965، ص 152.

أما عن الأوضاع الاجتماعية فقد كانت القبيلة تشكل جزء كبير في الحياة الاجتماعية حيث تتفرع إلى عدة عشائر تقوم بينها صلة قرابة لكل منها مهنة معينة تختص بها، وتعرف مدينة الملك باسم الغابة لأنها تكثر بها الأحراش وله قصر عظيم وقباب يحيط بها حائط مثل السور ويجلس حول القباب عشرة من الفرسان بثياب مذهبة وله من الوزراء عشرة غلمان يحملون السيوف المحلاة بالذهب وعن يمينه يجلس أولاد ملوك بلده وقد ظفروا شعورهم ويرتدون ملابس رفيعة وإلى يساره يجلس والي المدينة ومن حوله الوزراء.

وقد كان الملك يتمتع باحترام الشعب حيث كان يقابل بالانحناء كما يضع التراب على الرأس دلالة على الخضوع، أما المسلمين فقد كانوا يقابلونه بتصفيق اليدين[33] كما كان من عاداتهم الاجتماعية إيقاد النار للملك الوثني الذي يخرج بعد عشاء كل ليلة ليسامر مع قومه ولا يخرج حتى تجتمع عليه ألف حزمة من الحطب ويتم إشعالها مرة واحدة لكي تشرق البلاد كلها ثم يأتي ويجلس على منصة الذهب الأحمر وتقدم في هذه الأثناء الآف الولائم فيأكل الجميع إلاّ هو، ومتى تمّ الأكل يقوم ويدخل وهم لا يقومون حتى تصبح الحزم رماداً[34] كما كان الملك يتمتع بسلطة قضائية حيث كان يفصل بنفسه في أمور القضاء وإذا دعت الحاجة حكم بنبوءات الآلهة دون مجادلة، وكان يطوف كل يوم بعاصمة ملكه لتلقي الشكاوى، وعلى الرغم من أنه كان يعبد الأوثان كشعبه إلا أنه كان متسامحاً مع الغرباء المسلمين المقيمين في غانا والذين كانوا من الكثرة بحيث كانوا يشغلون في نهاية القرن الحادي عشر حياً خاصاً بهم[35].

---

(33) أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب الأندلس، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 306.

(34) حسن عيسى، الدعوة الإسلامية، ص 95.

(35) شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا، ص 81.

ويصف لنا البكري لباس أهل غانا قائلاً: «ويلبس سائر الغانيين ملامح القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم... وهم أجمع يحلقون لحاءهم، نساؤهم يحلقن رؤوسهن وملكهم يتحلى بحلى النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمايم القطن الرفيعة»(36). كما كان لهم ثياب خاصة بالرقص وهي في الغالب أما أرديّة القماش أو جلود الحيوانات أو ريش الطيور، كذلك يستعملون الأصباغ التي تغطي الجسم والوجه، كذلك يستعملون الأقنعة.

أما المرأة فقد تميزت بالتحرر الزائد في العادات، ففي الوقت الذي تبدو فيه راضخة كل الرضوخ للرجل فإنها تبدو أيضاً متحررة من كل القيود الأخلاقية والاجتماعية ومظهرها الخارجي يوحي بأنها غير خاضعة لأي قانون، وقد كانت المرأة الزنجية سلعة تباع لزوجها ولهذا كانت تشكل لأبيها وأسرتها قيمة تجارية، والمهر الذي يدفعه الخطيب لا يذهب إلى الفتاة المخطوبة بل إلى أهلها الذين قاموا بتربيتها وتحملوا مسؤوليتها، كما عرف في غانا تعدد الزوجات، والنساء الجميلات كانت من نصيب الطبقة الغنية فقط، وإجمالاً كان لدى المرأة شعور بالنقص حيث تشعر دائماً بأنها عبارة عن سلعة تباع وتشترى وأنها خلقت للامتلاك والتمتع فقط وكثيراً ما تفقد الفتاة عذريتها قبل الزواج بالرغم من أن الزواج يتم بعد البلوغ مباشرة وفي بعض الأحيان يطلق الزوج زوجته إن لم يجدها عذراء، ويلوث مئزر العروس بالدم حتى تشهده العائلة الحريصة على كرامتها، وعموماً كان الطلاق والزنى والمضاجعة لأهل الدعارة من الأمور السائدة والمألوفة في المجتمع الغاني الوثني(37).

(36) البكري، ص 176.

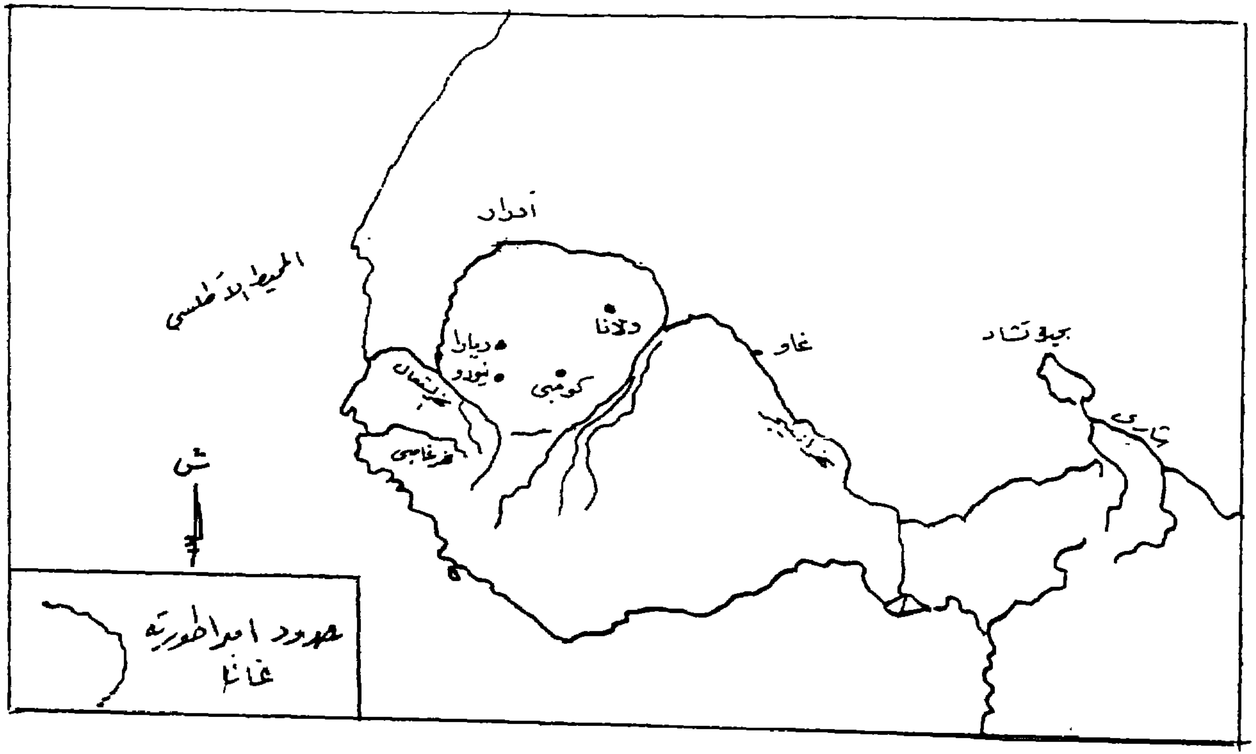
(37) جان بول رو، الإسلام في الغرب، ت، نجده ماهر، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1960، ص 193.

ثانياً: انتشار الإسلام وتأثيراته على غانا

ارتبط انتشار الإسلام في غانا وفي جنوب الصحراء الكبرى بانتشاره بين سكان شمال إفريقيا حيث كانت الصلة الثقافية والتجارية وثيقة بين الطرفين منذ القدم، رغم أن الكثيرين من المؤرخين يرجعون هذا الانتشار إلى جهود المرابطين ولا يعيرون أهمية كبيرة للجهود السابقة لهذه المرحلة. ونحن نعلم بأنه قد حدثت هجرة متواصلة لمسلمي شمال إفريقيا إلى مناطق جنوب الصحراء واستقروا في المراكز التجارية وقد أدى هذا الاستقرار إلى محاولات فرديّة لنشر الإسلام والتي لا شك أنها كانت بسيطة في بداية الأمر ولكنها كانت البداية لوجود الإسلام بين الأفارقة حيث تطورت إلى جهود جماعية عملت على نشره بقوة في غرب إفريقيا ولما كانت غانا جزءاً من هذه المنطقة فإن الإسلام ولا شك قد دخلها وانتشر بين سكانها ولكن بدرجات متفاوتة، إذ لا نستطيع القول إن البلاد كلها قد اعتنقت الإسلام ولكننا نرجح أن أعداداً كبيرة من سكانها قد قبلت هذا الدين وأن مظاهر الإسلام من شعار وثقافة ومساجد بما في ذلك اللغة قد وجدت طريقها إلى غانا منذ وقت مبكر ربما يرجع إلى القرن التاسع الميلادي وهو القرن الذي شهد نهضة غانا السياسية والاقتصادية وذلك قبل ظهور المرابطين بوقت مبكر، فالبكري في وصفه للمدينة الإسلامية يقول: «مدينة غانا مدينتان محليتان أحدهما المدينة الإسلامية التي يسكنها المسلمون وهي المدينة الكبيرة فيها إثنا عشر مسجداً إحداها يجتمعون فيه وله أئمة ومؤذن، وفيه فقهاء وحملة علم وحولها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتمدون». كما يقول في موضع آخر: «وفي مدينة الملك يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس الملك، وملكها محمود السيرة، محبّ للعدل، مؤثراً للمؤمنين، وإن تراجم الملك وصاحب بيت ماله وأكبر وزراءه من المسلمين»[38]، ومما أورده البكري نستطيع أن نلاحظ ونستنتج ما يلي:

---

(38) البكري، ص 170.



امبراطورية غانا

1 ـ إن نمو الجزء الخاص بالمسلمين بالعاصمة ليس من المعقول أن يكون قد ظهر مرة واحدة أو ظهر فجأة بحيث أصبح يضم اثنا عشر مسجد وأنه صار مواطناً لعدد من العلماء والفقهاء.

2 ـ وجود العلماء والفقهاء دليل على استقرار الإسلام وعلى كثرة أعداد المسلمين، كما أن وجود اثنا عشر مسجداً دليل على اعتراف الحكومة في البلاد بالإسلام كدين رسمي لمجموعة معينة من رعايا الدولة.

3 ـ حب ملك غانا للعدل جاء كنتيجة لتأثره بالإسلام، هذا إلى جانب إسناد بعض الوظائف الحكومية للمسلمين يعتبر دليل آخر على أهمية الإسلام ومعتنقيه في الدولة.

وهكذا نستطيع أن نستنتج ونؤكد ظهور الإسلام وانتشاره تدريجياً في غانا حتى قامت حركة المرابطين فدفعت عجلة هذا الانتشار دفعة قوية، والمرابطون ينتسبون إلى صنهاجة التي ترفع نسبها إلى حمير ولمتونة وكان أول ملوكهم الأمير يولونان اللمتوني الذي كان يسيطر على ملوك السودان حيث كانوا يدفعون له الجزية(39).

وقد ظهرت دولة المرابطين في الصحراء الغربية إلى الجنوب من بلاد المغرب الأقصى في القرن الخامس الهجري بفضل نشاط الفقيه والمصلح عبد الله بن ياسين الجزولي من أتباع المدرسة المالكية بالقيروان، الذي عمل على نشر الإسلام في بلاد السودان فعيّن الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني قائداً عاماً لجيش الدولة وظلّ يجاهد ويحارب في سبيل الله(40) واستخلف على المغرب

(39) لسان الدين بن الخطيب، **أعمال أعلام فيمن بويع قبل الاحتلام**، جـ 3، حققه أحمد مختار العبادي، الدار البيضاء، دار الكتاب 1964، ص 225.

(40) محمد عبد القادر أحمد، **المسلمون في غينيا**، ص 38.

ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي أعجبته الأمرة فلما اتصل به خبر رجوع الأمير أبي بكر من الجنوب صعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته لكن الأمير أبي بكر عزم على تسليم الأمر له بعد أن رأى طاعة البلاد له[41] ثم عاد بعد ذلك إلى الصحراء التي كانت الولاية الأم لأنها أصل المرابطين ومقر الأمير الأكبر، وقد وجه الأمير أبي بكر كل جهوده إلى التوسع في بلاد السودان ونشر الإسلام بين قبائله وكان هدفه هذه المرة إمبراطور غانا.

إن جهاد المرابطين في جنوب الصحراء أدّى إلى استيلائهم على كومبي عاصمة مملكة غانا الوثنية عام 1076 م وقد أسلم أهلها المعروفون بالسوننكي وانتشر تجار ديولا في المناطق المجاورة من حوض نهر النيجر وبفضل جهودهم المتكررة انتشر الإسلام بين الوثنيين من سكان تلك المناطق ولقد ساعدت ظروف مملكة غانا التي كانت سيئة للغاية أثناء الزحف المرابطي على سقوطها بسرعة خاصة وأن الأمن كان مضطرباً والولاء نحو السوننك كان ضعيفاً من قبل الممالك الخاضعَة لهم وكذلك وقوف المسلمين وهم أقلية إلى جانب إخوانهم المسلمين القادمينَ من الشمال كما ساعدت قبيلة الفولاني التي كانت في منافشة تجارية مع السوننكي بانضمامها إلى قبيلة لمتونة ضد السوننكي على سقوك غانا[42]. ولم يتوقف جهاد المرابطين بعد وفاة أبي بكر بل استمر حتى بعد مجيء الأمير يوسف بن تاشفين الذي لم يتردد رغم انشغاله في بناء دولته في

---

(41) لمزيد من المعلومات راجع:

- أبو العباس بن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ 7، حققه إحسان عباس، بيروت دار الثقافة 1971، ص 117.

- ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار المغرب الأندلس**، جـ 4، حققه إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة 1971، ص ،11.

(42) أمين الطيبي «دور المرابطين في نشر الإسلام في السودان العربي» **مجلة الثقافة العربية**، العدد الثاني، 1987، مؤسسة الثقافة، الجماهيرية، ص 24.

وانظر لنفس المؤلف، **دراسات وبحوث**، ص 210.

الشمال في الإسهام مساهمة فعالة في الجهاد في بلاد السودان حتى قيل إنه قضى على أغلب مملكة غانا[43].

ومن المؤسف أن المصادر لم تذكر أية تفاصيل عن جهاد الأمير أبي بكر طيلة الأربعة عشر عاماً التي انتهت بسقوط غانا واكتفت بذكر سنة وفاته ويبدو أن سبب ذلك راجعاً إلى أن أحداث المغرب وجهاد المرابطين في الأندلس أكثر أهمية في نظرهم.

ومع أن السيادة المرابطية المباشرة على إقليم غانا كانت قصيرة وذلك بسبب انشغال المرابطين بشؤون المغرب والأندلس إلا أن العلاقات بين بعض حكام السودان وبين المرابطين في مراكش كانت قائمة ومستمرة ويورد لنا الطيبي بعض مؤشرات هذه العلاقات نقلاً عن بعض المصادر منها أن مشاركة أربعة آلاف من الجنود السودانيين وبين المرابطين في مراكش كانت قائمة ومستمرة ويورد لنا الطيبي بعض مؤشرات هذه العلاقات نقلاً عن بعض المصادر منها أن مشاركة أربعة آلاف من الجنود السودانيين في وقعة الزلاقة بالأندلس عام 1086 توحي بأن تحالفاً كان قد قام بين المرابطين وبين إخوانهم الأفارقة المسلمين، كما أن الوحدة التي أقامها المرابطون في المغرب الإسلامي من الأندلس إلى بلاد السودان العربي تتضح من اكتشاف عدد من شواهد قبور إسلامية يرجع تاريخها إلى العقد الأول من القرن الثاني عشر[44].

كما ظهر إلى جانب المرابطين ودورهم في نشر الإسلام قوة أخرى كان

(43) انظر:

ـ أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص 109.

ـ سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ت حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط 2، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، 1967، ص 57.

(44) الطيبي «دور المرابطين في نشر الإسلام» ص 25.

لها دور هام وواضح في هذا المجال وهي التجارة والتجار المسلمون حيث تطورت حركة التجارة بين المغرب العربي وغرب ووسط إفريقيا بعد الفتح حيث تأسس ما يعرف بتجارة عبر الصحراء التي نقلت الإسلام ومبادئه ومفاهيمه الجديدة إلى مختلف أنحاء إفريقيا، فأخذ طريقه بالتدريج إلى هذه المناطق التي تحولت في النهاية إلى إمبراطوريات وممالك إسلامية زاهرة مثل غانا ومالي والسنغاي وكانم وبرونو حيث أخذت هذه الممالك والدول والسلطنات على عاتقها وبفضل جهود الزعامات الإسلامية السياسية والدينية المختلفة على عاتقها نشر الإسلام وترسيخه بين الشعوب الإفريقية المختلفة[45] ونشطت التجارة في الداخل والخارج وصار لها فرق تجوب الصحراء وفي غانا أصبحت عاصمتها كومبي صالح أكبر سوق للتجارة في بلاد السودان ووجد فيها التجار من مصر وشمال إفريقيا وقامت حركة تبادل تجاري كبير بينها وبين جميع المدن الهامة في المناطق الإسلامية وظلت قوافلها التجارية وأقوال حجاجها تمر بالقاهرة.

وكان لتطوير القوافل ونظمها في عهد الفتح الإسلامي أثره في تيسير نشر الدعوة الإسلامية جنوب الصحراء، وكان من أبرز هذا التطوير ما تمّ في تيسير الطرق وتغيير شخصية التاجر بعد دخوله الإسلام ومن ذلك ما قام به حفيد عقبة بن نافع وهو عبد الرحمن بن حبيب في أواخر الحكم الأموي وذلك بحفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة أودغست مما مهّد الطريق أمام القوافل التجارية للتوغل في غرب إفريقيا عبر الصحراء بعد أن كانت مقصورة على الساحل فقط وقد اتسمّت هذه التجارة في ظلّ الإسلام بلون حضاري منظم تنظيماً محكماً واتضح بتأثيره في تشكيل المدن الكبيرة والأحياء الراقية النظيفة كذلك في أسلوب التعامل التجاري حيث كان التاجر المسلم

---

(45) إدريس الحرير «العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء وأثرها في نشر الإسلام» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1987، طرابلس، 85.

يجمع بين دعوته وتجارته بالكلمة والسلوك وحسن العلاقة والصلة بمن يتعامل معهم فيثقون به ثقة كاملة(46).

وبفضل التجارة انتشر الإسلام بشمال غانا حيث كان يأتيها التجار العرب واختلطوا مع سكانها وقبائلها وقد ظلت تلك القبائل محتفظة بعاداتها وتقاليدها الإفريقية وانتشرت بينهم الطرق الصوفية والتي من أشهرها القادرية والتيجانية اللتان نشأتا في المغرب، فعن طريق حركة الاتصال والتجارة جاءت هجرات من علماء متصوفة وفدوا إلى المنطقة لتعليم القرآن والعلوم الأخرى وكان بعض هؤلاء المهاجرين من العلماء من الذين أجبرتهم الظروف السياسية إلى الفرار بحياتهم ودينهم وجدوا في هذه المنطقة وغيرها من المناطق الإفريقية مجالاً خصباً لنشر الدعوة الإسلامية فمال هؤلاء إلى الزهد والتصوف وتمكن هؤلاء من غرس البذور الأولى للثقافة الإسلامية الصوفية(47). ولم يقتصر نشاط التجار العرب على القسم الشمالي من غانا فحسب، بل كان لتجارتهم مع جنوبها أعظم الأثر في ترابط الغانيين في الشمال والجنوب ومع ممالك السودان العربي كما وصلت المؤثرات الإسلامية بواسطتهم إلى شعب الأكان ذاته خاصة الأشانتي، كما نجح التجار بفضل ما وصلوا إليه من مراكز سامية في الممالك السودانية في أن يدخلوا الملوك الدين الإسلامي كما أصبحت الطبقة الارستقراطية في المملكة تعتنق الإسلام، وكانت حركة انتشار الإسلام والتي قام بها التجار والمرابطين موجهة إلى الأمراء والرؤساء الذين كانت في أيديهم مقاليد الأمور(48) ونظراً للثقة التي تفرض على الحاكم التجول في شوارع المدن وبين رعاياه ليشرف بنفسه على سير الأمور في مملكته ويتلقى الشكاوى من المواطنين، كما كان

---

(46) ماهر صبحي رزق، **غانا أرضاً وشعباً ودولة**، طرابلس، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، ب. ت، ص 185.

(47) كمال الضو الدقير، **دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان**، ص 37.

(48) دندش، **دور المرابطين**، ص 168.

للإسلام تأثيره الواضح على الحياة الاجتماعية العامة والخاصة حيث خفت بوجوده حدّت التناحر والصراع بين القبائل والعشائر وأصبحت العلاقات بينهما متأثرة بحضارات الشمال ونظمه، كما أجبر الإسلام رعاياه من الأفارقة على ستر عوراتهم واستكمال ملابسهم فانتشر الزي الإسلامي الأبيض اللون كما انتشر لبس العمائم ونمت المدينة الإسلامية بمظاهرها وطابعها المتمثل في وجود المساجد والمدارس وانتشر بها الفقهاء والدعاة كما انتشرت عوامل الرقي والاستقرار واستتباب الأمن، كما بنى المسلمون مباني خاصة لسكناهم فكانت مدينتهم على نمط الطراز المعماري في المغرب، كما استقدم الملك والأشراف المهندسين المعماريين العرب من فاس ليقوموا ببناء القصور(49).

أما من الناحية الدينية فقد قضى الإسلام على الطقوس الوثنية وأخذت تحلّ محلها العادات والتقاليد والمبادىء الإسلامية السمحة، كما ضمن الإسلام لأتباعه حياة أفضل فقد كانت أكثر حاشية الملك وأكثر جنوده من المسلمين الأمر الذي جعل القوة الإسلامية تسير نحو السلطة كما منع الإسلام أتباعه من الركوع أمام الملك والسادة وهو ما كان يفعله غير المسلم.

ولم يكتف ملوك غانا بإسلامهم بل عملوا على توثيق صلتهم بالخلافة العباسية ببغداد وحاولوا ربط نسبهم بالحسن بن علي، وتحمس هؤلاء الملوك وشعبهم لنشر الإسلام حتى أن بعض العشائر السوننكية تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط، وقد استخدم الماندونجو كلمة سوننك مرادفة لكلمة داعي مما يدل على الدور الكبير الذي قام به سوننكي غانا في نشر الإسلام بعد إسلامهم(50).

---

(49) قداح، إفريقيا الغربية، ص 41.

(50) دندش، ص 50 وانظر كذلك:

Gray (M) History of Ghana, Ghana. L. 1960, P. 119.

أما عن التأثيرات الاقتصادية فقد كان الإسلام أحد أهم الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في غانا حيث انتظمت حركة تجارة القوافل في اتجاه الغابات في الجنوب حيث جلبوا منها الكولا والذهب وزيت النخيل والخشب مقابل السمك المجفف والقطنيات(51).

كما كان للإسلام تأثيره الواضح على سلوكيات التعامل التجاري حيث حثّ على الكسب الحلال فأقبل الناس على المهن الشريفة التي تحفظ كرامتهم كبشر، وكانت صلة التاجر المسلم وثيقة بأولئك الذين يعمل على تحويلهم إلى الإسلام فكثيراً ما يلفت عند دخول القرية أو الدينية الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وركوعه وسجوده، وكان لما يتحلى به من كرم الأخلاق وسمو التفكير أنه كان يفرض احترامه والثقة به بين الأهالي الوثنيين.

وتعتبر غانا مثال جيد لتأثر الأفارقة بالتجار المسلمين وقد اتضح ذلك من خلال ما دونه المؤرخين والرحالة الجغرافيين عن زيارتهم لها أمثال البكري وأبو الفدا وصاحب كتاب الاستبصار والتي دلت على مدى تأثر الإفريقيين بالمسلمين لدرجة أنهم يوفرون لهم الراحة والمكان المناسب للإقامة بينهم وذلك بسبب سمعتهم وأخلاقهم النبيلة التي كانت سبباً رئيسياً في تعميق أواصر علاقتهم وارتباطهم بالأفارقة(52) كما كانت سبباً رئيسياً في حدوث المصاهرة بينهم حيث أن طول المدة التي يقضيها التجار المسلمين أدى بالكثير منهم إلى الزواج من

---

(51) جبريل بنياني، «مالي والتوسع الغاني للماندنغ» **تاريخ إفريقيا العام**، جـ 4، باريس، اليونسكو، 1988، ص 133.

(52) انظر: البكري، ص 171.

- مجهول، **الاستبطار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول، الإسكندرية، 1958، ص 200.

- عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، **تقويم البلدان**، باريس، 1840، ص 157.

السكان المحليين مما خلق جيلاً مختلطاً ذا ثقافة جديدة وساعد ذلك على سرعة انتشار الإسلام[53].

كما ساهم الإسلام في بناء المدن التجارية والتي لعبت دوراً هاماً في تطوير الحياة الاقتصادية حيث عرفت هذه المدن الصناعات العربية الإسلامية حيث قامت مصانع يدوية للنسيج وغيرها، كما عرفت أيضاً المعاملات المالية حيث تطور نظام التبادل التجاري والمالي وتطورت العملة كما عرفوا الصكوك والمعاهدات وأدخلوا النظام الضريبي على الدخل وضرائب جمركية.

كما كان للإسلام تأثيره الواضح على الحياة الثقافية حيث انتشرت اللغة العربية والتي كانت لغة العبادة والثقافة فضلاً عن كونها لغة التجارة وأخذت طريقها إلى المدارس التي ارتبطت ارتباطاً شديداً بالدين حيث ألحقت في بادىء الأمر بالرباط حيث كان يقيم المرابطون للتعلم والتعبد فكان الشيخ عبد الله بن ياسين معلمهم الأول تعلمهم الشريعة ويقرىء الكتاب والسنّة حتى صار حوله فقهاء ورتب لهم أوقاتاً للمواعظ وعندما ينتهي من تعليم رواد الرباط هذه الأمور كان يأمرهم بالذهاب إلى قبائلهم لينشروا الإسلام على أسس سليمة، وقد ألحقت المدارس بالمساجد فكان إلى جانب كل مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد وكان هناك بيوت أو أسكنه لنوم الطلاب الذين يحضرون من أماكن بعيدة ويعتبر المسجد المقر الرئيسي لتلقي العلم إذ كانت تعقد فيه حلقات للدراسة والمناقشة في أمور الدين[54] وقد كان القرآن هو محور هذه المعارف في هذه الدراسة وكذلك الفقه وقواعد اللغة العربية وبعض العلوم القديمة وكان هذا التعليم الذاتي أفضل تعليم للإفريقي الذي لم تكن لديه وسيلة أفضل للحصول على ثقافة هو في حاجة ماسة إليها[55] ولم تكن هذه الدراسة محدودة بزمن

---

(53) إدريس الحرير، ص 77.

(54) دندش، دور المرابطين، ص 162.

(55) جان بول، الإسلام في الغرب، ص 65.

معين وإنما كانت مرهونة بانتهاء الطالب من استيعاب عدد معلوم من كتب الفقه الحديث والمنطق والنحو، وعندما ينتهي من هذه الدراسة المتنوعة فإنه يحصل على إجازة تؤهله للقيام بتعليم القراءة أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء، ونتيجة لازدهار الحياة العلمية أقبل الناس على اقتناء المكتبات الخاصة التي تعجّ بالكتب العربية[56].

كان من الممكن أن تستمر سطوة غانا ومكانتها الإسلامية لولا انهيارالمرابطين السريع فيها وعودة الخلافات الجديدة بين القبائل الصحراوية والتي كانت دوماً سبباً في ضعفهم فقد رفضت قبائل مسوفة العمل تحت زعامة لمتونة، وفي خلال عشرة أعوام استطاع السوندك من استعادة استقلالهم ولكنهم كانوا كالمرابطين تعوزهم الوحدة وتسيطر عليهم الروح القبلية فعاد الشقاق إلى صفوفهم ورغبت كل قبلية في الاستقلال بمد تحت يدها وتمردت قبيلة صوصو التي كانت تدفع الجزية لغانا وأعلنت استقلالها ثم حاولت السيطرة على بعض الأقاليم التابعة لغانا وقد نجحت في ذلك حيث أصبحت الأقاليم الجنوبية تحت سيطرتها وفي عام 1203 استطاع زعيمهم الذي يدعى سوما نكورو كانيته Soumankourou Kante، الاستيلاء على عاصمة غانا نفسها وأصبحت تابعه له، وقد نزح مسلموا غانا هرباً من ظلم الملك الجديد إلى بلدة بيروولاتا واتخذوا منها مقراً لهم أما ملك صوصو[57] فقد أخذ يعمل على محاربة شعب مانيك في مالي حتى تمكن من فتحها إلا أنه لقى مقاومة شديدة من الملك سونديانا كتيا

---

(56) دندش، ص 156 وكذلك السعدي، ص 45.

(57) تعتبر صوصو من المواقع الهامة في غرب إفريقيا حيث تقع على مسيرة 135 ميلاً شمال شرق باماكو عاصمة مالي وقد كانت عاصمة لملكة تكمها قبيلة سوننكي وكانت الأصل ولاية تابعة لغانا ثم استقلت في أواخر القرن الحادي عشر بعد سقوطها في أيدي المرابطين وكانت تحكمها في ذلك الوقت أسرة مسلمة من قبيلة سوننكي تدعى جرسو: انظر، حامد تراوري، ص 19.

انتهت المعركة لصالح Sonjata Katia قرب مدينة كو ليكورو حوالي عام 1235 انتهت المعركة لصالح سونديانا حيث قتل كانييه واستطاع أن يحرر المنطقة وفتح المدينة وما حولها ثم مدّ فتوحاته شمالاً حتى بلغ غانا حيث استولى عليها عام 1240 واستبدل اسمها من غانا إلى إمبراطورية مالي[58].

---

(58) نفس المصدر، وانظر كذلك:

Ward, History of Ghana, London. L.P. 1958, P. 90.

الفصـــل الثامـــن

مملكـــة مالـــي

مملكــة مالــي

أولاً: التشكيل السياسي والاجتماعي
لمملكة مالي قبل الإسلام

لقد شكلت مملكة مالي مع مملكتي غانا والسنغال السمات والخصائص المحددة والواضحة لمنطقة السودان الغربي «غرب إفريقيا» لفترة طويلة من الزمن. ومن خلال تعاقب هذه الممالك الثلاث تطورت الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا الإقليم تطوراً ملحوظاً.

ومن خلال دراستنا للمصادر التي اهتمت بهذه المنطقة في هذه الفترة المبكرة ـ وإن كانت قليلة ـ يتضح لنا أنه من الصعب تحديد الفترة الزمنية والأصول الأولى لتشكيل هذه المملكة، وإذا كان التوسع المالي قد بدأ كما هو معروف في مرحلته الأولى على حساب مملكة غانا فإنه مع الأسف الشديد فإن معلوماتنا عن تاريخ هذه المرحلة القليلة إن لم تكن نادرة وقد انحصرت فيما دونه لنا الرحالة والمؤرخين المعاصرين أمثال البكري والعمري اللذين يعود لهما الفضل والامتنان لما أمدونا به من معلومات وإن كانت قليلة إلا أن قيمتها تكمن في أنه لولاها لاكتنف هذه المرحلة غموض وظلام دامس.

كذلك أمدنا المؤرخ ابن خلدون في تاريخه الرائع بمعلومات وافية أتمها القلقشندي وابن بطوطة حيث غطوا لنا تاريخ مالر حتى نهاية القرن الرابع عشر.

وربما يكون أبو عبيدالله البكري أول مؤلفي العرب الذين ذكروا مالي في

القرن الحادي عشر وإن أشار إليها بأنها بلد اسمه (ملل) ويطلق على ملكه لقب المسلماني[1] وجاء الإدريس بعد مرور حوالي قرن من الزمان وأكد هذه المعلومات التي ربما نقلها عن البكري غير أنه أضاف إليها تفصيلات هامة ويذكر أن هناك مدينتين هما ملال ورو تفصيل بينهما مسيرة أربعة أيام[2] أما السعدي فيذكر أنها كانت في عهد دولة غانا وذلك قبل البعثة النبوية وأنه خلال تلك الفترة التي يقدرها بسنوات حكم اثنان وعشرون ملكاً في غانا كانت دولة مالي تنمو وتتسع تدريجياً في إقليم كانجابا على نهر النيجر[3] أما القلقشندي فقد بيّن لنا النطق الصحيح لكلمة مالي الذي يكون بفتح الميم ولام مشددة مفخمة وياء مثناة، وقال بأن هذه المملكة تقع في جنوب المغرب العربي فهي متصلة بالبحر المحيط الذي يحدها من الغرب كما تحدها من الشرق بلاد البرنو ومن الشمال بلاد البربر ومن الجنوب الهمج[4].

أما حسن الوزان فقد حدد لنا مساحة مالي فقال بأنها تمتد على طول أحد فروع النيجز مسافة نحو ثلاثمائة ميل، يحدها جنوباً جبال وعرة، وغرباً غابات مسحورة التي تمتد إلى المحيط وشرقاً إلى إقليم كانو[5].

وعندما زار منسى موسى القاهرة في طريقه إلى مكة سأله البعض عن

---

(1) أبو عبيد البكري، المعرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب من كتاب المسالك والممالك، بغداد، مكتبة المثنى، 1827، ص 178.

(2) نياني (ج. ت) «مالي والتوسع الثاني للماندنغ» تاريخ إفريقيا العام، م 4، بيروت، المطبعة الكاثولوكية، 1988، ص 128.

(3) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باريس، 1964، ص 182.

(4) أحمد ابن علي القلقشندي، صبح الأعشى في كتابه «الإنشاء» ص 5 الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص 288.

(5) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ط 2، ترجمة محمد الحجي ومحمد الأخضر، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 164.

مساحة مملكته فقال أنها تبلغ سنة في الطول، ويؤكد العمري الذي كان يعيش في مصر أثناء هذه الزيارة بأنه سمع هذا التقرير من رواة آخرين، ثم حدثنا القلقشندي نقلاً عن العمري أن طول المملكة يبلغ أربعة أشهر أو أكثر وكذلك مثلها في الطول، مع ملاحظة أن هذين المؤرخين اعتمدا على مصدر آخر هو ابن سعيد الدوكالي(6).

وهكذا يتضح لنا اختلاف الروايات حول مساحة مالي ولكننا نميل إلى الأخذ بآراء الرحالة والمؤرخين العرب الذين لم يختلفوا كثيراً في تقديراتهم فيما بينهم هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن ما ورد على لسان المنسى في تقدير مساحة مملكته مبالغ فيه ولعل السبب في ذلك أنه أراد أن يفخر باتساع رقعة ملكه ليدلل على مدى قوته وعظمته. وعلى أية حال فإننا نستطيع أن نستخلص أن رقعة مالي امتدت من المحيط الأطلسي غرباً إلى بلاد كانم والبرنو والهوسا شرقاً ومن غابات السافانا جنوباً إلى الصحراء الكبرى شمالاً ناهيك عن المناطق الجديدة التي ضمتها إليها والتي عجزت إمبراطورية غانا عن إتمام سيطرتها عليها. أما عن الظروف السياسية التي ساهمت في ظهور هذه المملكة وتطورها فإن الروايات تجمع على أنه بعد فتح المرابطين لغانا عام 1076 تدهورت الحياة فيها لدرجة أن قبيلة صوصو Sousou التي كانت تدفع الجزية لغانا أعلنت استقلالها ثم حاولت السيطرة على بعض الأقاليم التابعة لغانا وقد نجحت في ذلك. وفي عام 1203 استطاع زعيم القبيلة صوصو ويدعى سومانكورو كانتية (Soumankourou Kante) الاستيلاء على عاصمة غانا نفسها وأصبحت تابعة له(7).

ونتيجة لهذا الاستيلاء نزح مسلموا غانا هرباً من جور الملك الجديد إلى

---

(6) القلقشندي، ص 283.

(7) Canle (J.S) Afrique Noir Occidentenal et Central, Paris, 1973, P. 167.

بلدة بيرور لانا حوالي عام 1224 واتخذوا منها مركزاً لحياتهم الإسلامية، أما ملك صوص فإنه شرع في محاربة شعب الماند نيك ـ الذي كون عن طريق تجمع عشائره الصغيرة والمتعددة مملكة مالي فيما بعد ـ وفعلاً استطاع فتح مالي وضمها إلى مملكته، ويذكر أن هذا الملك قد قتل ملوك مالي وعددهم أحد عشر ملكاً وذلك فيما بين سنوات 1222 ـ 1230 وكان يقتلهم بمجرد اعتلائهم العرش، إلا أنه لقي في النهاية مقاومة عنيفة من الملك الثاني عشر وهو سونديا تاكيتا (Sundata Katia) الذي نجح في استمالة أتباع كثيرين لا في منطقة لاند نيك فحسب بل في الولايات المتاخمة لها أيضاً حيث كوّن جيشاً تمكن به من ملاقاة قوة صوصو قرب نهر النيجر حوالي عام 1235 واستطاع أن يهزمه ويقتله أيضاً، وهكذا استطاع سوندياتا أن يحرر المنطقة من عبودية كانتيه وتمكن من فتح المدينة وما حولها، ثم مدّ فتوحاته شمالاً حتى بلغ غانا حيث استولى عليها عام 1240 واستبدل اسمها من غانا إلى إمبراطورية مالي[8].

وتشتمل المملكة على خمس أقاليم جعلتها من أعظم ممالك السودان الغربي وهذه الأقاليم هي:

1 ـ مالي، وهو إقيم يتوسط الأقاليم المكونة للمملكة ككل وتقع بين إقليم صوصو وكوكو وقاعدته بني أو بيتي.

2 ـ صوصو، تقع إلى الغرب من إقليم مالي وأخذت اسمها من اسم قاطنيها.

3 ـ غانة، يقع غرب صوصو ويمتد إلى المحيط الأطلسي وقاعدته مدينة غانة وقد أسلم أهلها مع بداية الفتح الإسلامي.

---

(8) حامد تراوري، الاستعمار الفرنسي وآثاره على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في غرب إفريقيا، 1871 ـ 1960، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي، 1992، ص 20.

4 ـ كوكو، يقع شرقي إقليم مالي وقاعدته مدينة كوكو[9].

5 ـ التكرور، يقع شرق إقليم كوكو وقاعدته تكرور[10].

ولقد شكل كل إقليم من الأقاليم الخمسة مملكة شبه مستقلة تتجمع حول سلطان مالي، ولذلك يمكننا القول بأن إمبراطورية مالي كانت بمثابة اتحاد كونفدرالي ومما يؤكد ذلك أن إقليم غانا لم يكن يربطه بالسلطة المركزية سوى الولاء الإسمي أو الرمزي.

كان نظام الحكم في مالي شأنه في ذلك شأن بقية الأنظمة الإفريقية نظاماً قبلياً وكان شيخ القبيلة ينظر إليه على أنه ممثل للإلّه وأنه زعيم عظيم لأقوى القبائل وتشترط فيه القوة التي هي عنصر مقدس[11]. وكان يمثل القمة في الهرم الاجتماعي حيث يعتبر أكبر زعماء القبيلة وقائدها العسكري ورئيسها الديني وكانت العشيرة تشكل وحدة اقتصادية وسياسية كبيرة متكاملة تتألف من وحدات أخرى صغيرة ومبعثرة ومتجاورة وهي الأسرة حيث تطور التضامن بين أفراد

---

(9) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، حققه سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، القاهرة، 1958، ص 106.

وانظر أيضاً:

ـ شمس الدين أبي عبدالله الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار أوتو، ليبزج، 1923، ص 240.

(10) أبو الحسن علي بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، المكتبة التجارية، بيروت 1970، ص 91 ـ 92.

وانظر أيضاً:

ـ زكريا بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969، ص 26.

(11) نعيم قداح، إفريقيا العربية في ظلّ الإسلام، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ت، ص 33.

العشيرة في المسؤولية المشتركة وفي الأخذ بالثأر في واجب الفرد أمام المجموع[12] وهناك في المرتبة التالية الهيئة الاجتماعية وهذه الهيئة تتكون من طبقات رئيسية هي:

ـ النبلاء ـ الزعماء ـ الجند ـ الصناع (الحدادين) ـ الشعراء.

وكانت تنتشر بين هذه الفئات جميعاً عادات اجتماعية سيئة منها أكل لحوم البشر وتقديم الإنسان قرباناً ووأد الأطفال وتقديس الأسلاف واعتقادهم بتناسخ الأوراح وإيمانهم بالسحر والشعوذة كما أنهم كانوا يعيشون عراة أو شبه عراة لا يغتسلون[13]. أما عن الحياة الثقافية والمعتقدات الدينية فإننا نجد أنها في مالي لا تختلف عن سائر المجتمعات الإفريقية الأخرى حيث عمّ الجهل وانتشرت الأفكار والمعتقدات الساذجة قائمة كلها على أصول الشعوذة والسحر وهناك قبائل تعتقد بل وتجزم بأنها تنحدر من بعض الحيوانات ويعتقد أفراد تلك القبائل بوجود صلة بينهم وبين تلك الحيوانات وكذلك الأشجار، والغريب في الأمر أن تلك القبائل تعتقد وتؤكد لأفرادها أن جدهما الأكبر كان له تحالف سري مع تلك الحيوانات أو النباتات لذا فقد أصبح من الأمور الطبيعية والمشاعة عند تلك القبائل تحريم أكل تلك الحيوانات أو قطع تلك الأشجار أو النباتات أو إحراقها[14] كما انتشرت الوثنية بين السكان واستمرت متواجدة بين بعض القبائل والأفراد حتى بعد انتشار الإسلام.

انتشار الإسلام والتطورات التي أحدثها:

بدأ الإسلام يتغلغل في مالي قبل بدايات تشكيلها السياسي المبكر في القرن الثاني عشر وذلك عن طريق الدعاة والفقهاء والتجار المسلمين وقد ركّز

---

(12) Jaunet (H) Histoire de L'Afrique Occidentale Française, Paris, 1949, P. 140.

(13) نعيم قداح، ص 137.

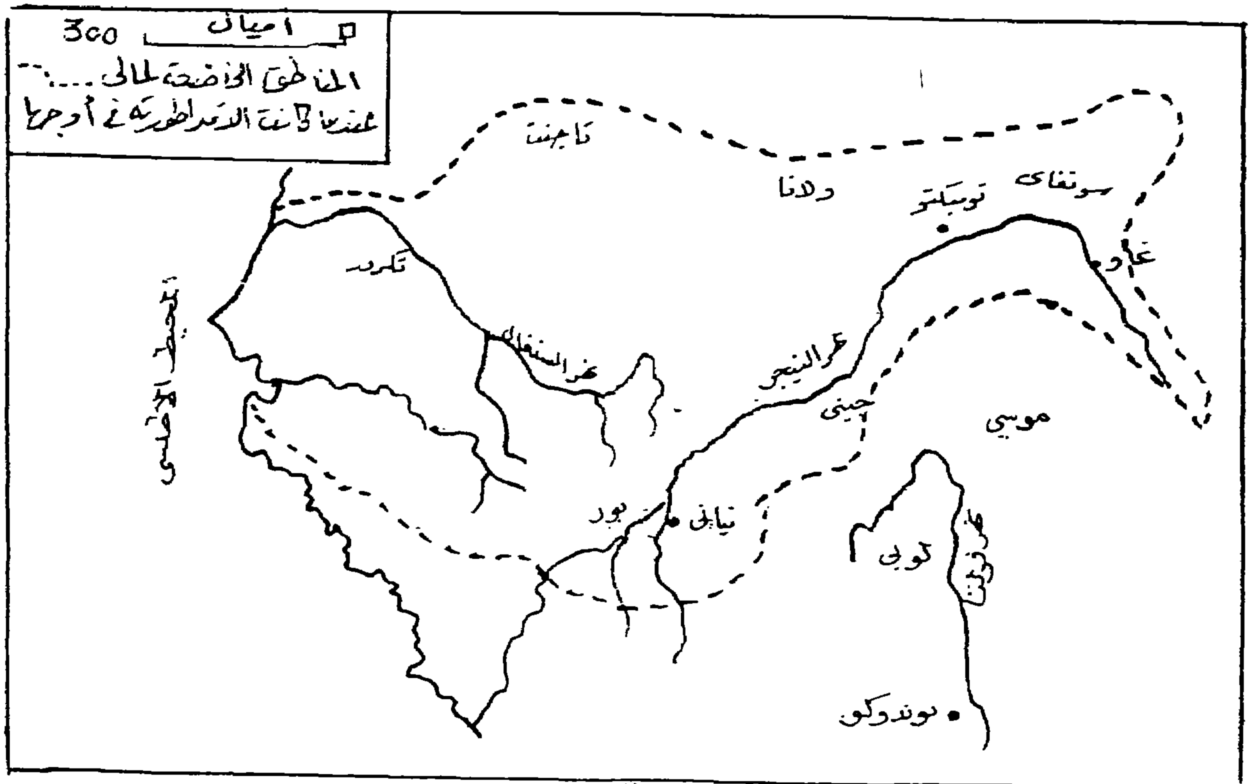
(14) حامد تراوري، ص 42.

هؤلاء جميعاً على الاتصال بالإرستقراطية الحاكمة والطبقات العليا إذ أن إسلام هذه الطبقات كان يعني إسلام بقية أفراد المجتمع وكان إسلام أول ملوك مالي على يد أحد الدعاة المسلمين ويروي لنا البكري هذه القصة إذ يقول أن مالي شهدت سنوات جدب متتالية فاستسقى أهلها بقرابينهم حتى كادوا يفنوها وكان عندهم ضيف مسلم يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكا إليه هذه الحالة وما هم عليه من ضيق فقال: «أيها الملك لو آمنت بالله وأقررت بوحدانيته وبمحمد ﷺ وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحلّ بك، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص فيه الإسلام وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، وعلمه الفرائض والسنن وما يسع جهله، ثم أمهله إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها تطهيراً سابغاً، وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده وبرزا إلى ربوة الأرض فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم به، فصليا من الليل ما شاء الله والمسلم يدعوا والملك يؤمن، فما انفجر الصبح إلا وقد عمهم الله بالسقايا، فأمر الملك بكسر الدكاكير (الأصنام) وأخرج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصيته»(15).

لكن أهل المملكة لم يسلموا جميعاً بل بقي البعض منهم على وثنيتهم وأسموا ملكهم بالسلماني ولا تخفى علينا دلالة القصة التي رواها البكري إذ يتضح لنا عظم المكانة التي يتمتع بها الدعاة المسلمون في بلاط ملك مالي الوثني وبساطة الإسلام وانتشاره بالطرق السلمية وهذا ما يفند آراء بعض المستشرقين والمتحاملين على الإسلام الذين شككوا في انتشاره السريع.

إن انتشار الإسلام في مالي وغيرها من الأقاليم الإفريقية قد اعتمد في ذلك على عامل هام هو خاصية هذا الدين وذاتيته وقد شهد بذلك بعض المسيحيين المهتمين بهذا الأمر، فها هو الكاتب الفرنسي المسيحي (ديشان) حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقيا حتى عام 1950 يقول:

(15) البكري، ص 178.



امبراطورية مالي

«إن انتشار الإسلام في أغلب الظروف لم يقم على العسر وإنما قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق بربهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقه الارستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة، وقد ميّز انتشار الإسلام أمر آخر وهو أنه دين فطرة بطبيعته سهل التناول لا لبس ولا تعقيد في مبادئه سهل التكيف والتبيق في مختلف الظروف»(16).

وبإسلام الطبقة الحاكمة والطبقات العليا القريبة منها أخذ الإسلام طريقه بين مختلف أفراد الشعب وترسخ في نفوسهم حتى أصبحوا من أكثر شعوب إفريقيا تمسكاً به(17).

وحركة الانتشار هذه قد اختلفت من حيث بدايتها وتأثيرها بين مناطق الشمال والجنوب في مالي، فإذا كان الإسلام قد وصل إلى المناطق الشمالية منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي، فإنه قد انتشر في المناطق الجنوبية في عهد المرابطين في القرن الثاني عشر وقد أدى ذلك إلى أن أصبح الإسلام في الشمال أكثر رسوخاً منه في الجنوب ولا يعود ذلك فقط إلى الفارق الزمني وإنما أيضاً إلى اختلاف مصدر التبليغ حيث تلقى سكان الشمال تعاليم الدين من مصادره العربية الصحيحة، بينما تلقى سكان الجنوب هذه التعاليم على أيدي شيوخ الطرق الصوفية بما أضفوه على هذه التعاليم من اجتهادات شخصية تأثرت بنمط الحياة والأعراف في تلك المناطق النائية(18).

---

(16) محمد فتح الزيادي، انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، دار قتيبة، بيروت، 1990، ص 136.

(17) عصمت عبد الحفيظ دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 155.

(18) حامد عثمان، المسلمون في العالم، قضايا وتحديات، جـ 1، دار إقرأ، مالطا، 1990، ص 217.

وإجمالاً فإننا نستطيع أن نقسم المراحل التي مرت بها حركة الانتشار الإسلامي في مالي إلى ثلاث مراحل رئيسية هي:

المرحلة الأولى: وهي التي بدأت منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي وقد حدث على أيدي الدعاة والفقهاء المسلمين.

المرحلة الثانية: بدأت مع التشكيل السياسي المبكر لمملكة مالي في القرن الثاني عشر على أيدي المرابطين.

المرحلة الثالثة: حدثت على أيدي قبائل الماندي التي تسلمت الراية من المرابطين بعد اعتناقها للإسلام حيث أخذت تعمل جاهدة على نشره بين القبائل الوثنية وجميع الفتوحات العسكرية التي قامت بها هذه القبائل ارتبطت بالدعوة الإسلامية كما لعبت الطرق الصوفية دوراً كبيراً في نشر الإسلام في مالي وقد انتشرت الطريقة التيجانية في الجنوب والقادرية في الشمال وقد اشتد الصدام بينهما طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وقد ظلّ الفريقان يتبادلان الاتهامات التي بلغت حدّ التشكيك في سلامة العقيدة.

ورغم هذا الاختلافات والظروف ورغم تعدد السمات واختلافها في المجتمع المالي إلا أن ثمة قاسماً مشتركاً واضحاً بين أفراد هذا المجتمع وهو التمسك بتعاليم الإسلام وبالعبادات وتحتلّ الصلاة مقدمة تلك العبادات وقد عمرت المساجد حتى أن ابن بطوطة اعتبر أن من أعمالهم الحسنة إقبالهم على الصلاة ومواظبتهم عليها وازدحامهم في المساجد والتزامهم بها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها. حتى أنه في يوم الجمعة إذا لم يبكر المرء فإنه لا يجد مكاناً لكثرة الازدحام وكانوا يطبقون السنّة ويحبذون لبس البياض يوم الجمعة، وحتى إن لم يكن لأحدهم إلا قميص غسله ونظفه وشهد به الجمعة، وكانت عنايتهم بحفظ القرآن الكريم كبيرة حتى أنهم كانوا يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه[19].

(19) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ 2، =

ولقد اهتم سلاطين مالي بتثقيف أهل المملكة دينيا فاستقدموا العلماء والفقهاء من مختلف البلاد من مصر والمغرب والأندلس حتى أن بعض الروايات قدّرتهم بنحو 4200 عالم مسلم في مدينة جنى وحدها ـ وإن صحّ الرقم ـ فإن في ذلك دلالة كبيرة على مدى انتشار الإسلام في مالي[20].

ولم يكتف سكان مالي باعتناق الإسلام والحرص على تأدية فرائضه وتكريم علمائه وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين وأخذت ترسل الدعاة والعلماء لنشر الدين الجديد بين هذه القبائل وخاصة في بلاد الهوسا[21].

ولم تقتصر جهود مالي على محاولة نشر الإسلام سلمياً بين الوثنيين بل شنّت عليهم حرباً جهارية فانتشرت حامياتها العسكرية من ساحل المحيط غرباً إلى كانم في أرض الهوسا شرقاً وإقليم المراعي والغابات وإلى الصحراء شمالاً وأصبح لمالي الدور البارز في نشر الإسلام حتى أن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا قال: «إن أهالي بعض المناطق كانوا كفاراً زمن البكري أما في زمانه فقد أسلموا»[22].

التطورات السياسية:

ما يميز الإسلام في انتشاره في القارة الإفريقية بصورة عامة وفي مملكة مالي موضوع دراستنا بصورة خاصة هو ظهور زعامات إسلامية بين السكان الأصليين وقد أدى ذلك إلى نتيجتين طبيعيتين هما:

= المطبعة الخيرية، القاهرة 1904، ص 244.

(20) حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، إدارة الثقافة والنشر بالجامعة السعودية، 1981، ص 102.

(21) دندش، ص 152.

(22) المغربي، ص 90.

أولاً: إن ظهور هذه الزعامات كان أبعد أثراً في خدمة الإسلام وأكثر نجاحاً، إذ صوّر الإسلام بصورة ثقافية قومية وفكر إفريقي، فلم يعد الدخول في الإسلام تبعية لدولة غريبة أو اعترافاً بدين جماعات من الخارج بل أصبح انضواء تحت رايات يحملها زعماء من الداخل، وأصبح الدخول في الإسلام يعني الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي سليم.

ثانياً: آلت إلى هذه الزعامات داخل المجتمعات الإفريقية السلطتين الدينية والسياسية وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى إحداث تغييرات جوهرية وأساسية في البنية السياسية والاجتماعية في الحياة الإفريقية ككل تمثلت في قيام الممالك والمراكز الإسلامية التي تأثرت إلى حد كبير بخصائص وسمّات الدولة الإسلامية وتأتي مالي في صدارة هذه الممالك التي أخذت بالنظم والمبادىء الإسلامية.

وإزاء ما تقدم يصبح لزاماً علينا إذا ما أردنا فهم الحياة السياسية والدينية وتطورها في هذا الإقليم أن ندرس هذه الشخصيات السياسية والدينية والتي لعبت دوراً بارزاً في نشر الإسلام وفي تطوير وتغيير البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة والموروثة في هذه المنطقة.

سلاطين مالي:

يعود الفضل لإبن خلدون ومن بعده القلقشندي في إيراد القائمة الكاملة لسلاطين مالي من أواسط القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، ولقد ذكر ابن خلدون أن الملك برمنران ـ برمنرانه ـ أول من أسلم من سلاطين مالي وأنه حجّ إلى مكة وأنه اقتفى أثره من جاء بعده من السلاطين[23] ويبدو أن مالي كانت قد وصلت قدراً لا بأس به من الاستقرار والقوة بدليل أن أول ملوكها تركها وسافر قاصداً أداء فريضة الحج.

(23) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ 1، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1971، ص 200.

ولقد نشأت القبائل المالكة في مندنجو من قبائل كويتا التي اعتنقت الإسلام منذ منتصف القرن الحادي عشر[24].

وترى أسرة كيتا هذه أنها من نسل بلال ابن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأنه قد حكم من نسل بلال ثمانية عشر ملكاً تقف عند كون فوتا سنديانا سونجاتا المؤسس الحقيقي لمالي[25] وسونجاتا هذا هو الذي أسماه البكري وكما سبق أن أشرنا بالسلماني، كما تقول هذه الأسرة بأن لوالو ابن بلال بن رباح كان أول من قدم للاستيطان في بلاد المندية ـ النواة الأساسية للمملكة ـ وأسس مدينة كيرى أوكي ثم خلفه ابنه لافال كلامي الذي أنجب داهال كلامي الذي خلف لهيلا تول كلامي وكان حفيد الأخير ماماري كاني هو الذي وسع ملك آل كيتا ليشمل سائر بلاد رو ـ كيري ـ بكو ـ بورية، حيث أن كافي هذا كان صياداً ماهراً فإنه عمد إلى تكوين أول قوة عسكرية له من الصيادين حيث جمع شتاتهم عندما عزم على تكوين جيش واستعان بصيادي القرى الأخرى مثل كامارا وترادري، وأصبح هذا الجيش هو المدافع عن التجمعات القروية، وتحدد فترة حكمه بأوائل القرن الثاني عشر وقد خلفه أربع أبناء كان من بينهم تاينو كيلين الذي أنجب كون فوتا والد سنديانا الذي جعل مملكة مالي الصغيرة إمبراطورية عظمى[26].

سونجاتا 1230 ـ 1255:

تحيط الروايات الشفوية المستقى منها تاريخ مالي شخصية سونجاتا بهالة عظيمة من التقديس يختلط فيها الخيال بالأسطورة والواقع، أما في جولياتنا

(24) شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا، ترجمة طلعت عوض، دار نهضة مصر، القاهرة، 1968، ص 92.

(25) نعيم قداح، ص 45.

(26) نياني، ص 141.

العربية فقد أخبرنا بن خلدون أن اسمه ماري جاطة، حيث أن ماري تعني بلغتهم الأمير الذي يكون من نسل السلطان وجاطة تعني الأسد، ووصف بأنه أعظم ملوكها حيث استطاع إخضاع صوصو(27) وأكد القلقشندي ما ذهب إليه ابن خلدون. أما الروايات الشفوية فإنها تجمع على أنه يعتبر بمثابة الفاتح وأن أعماله التي قام بها هي أعمال عظيمة.

لقد كان سونجاتا في بداية حياته مقعداً وعندما أصبح قادراً على السير اغتصب العرش منه أحد الطامعين به وهو دنكرن توما فاضطر للهرب مع والدته وشقيقه إلى غانا حيث استقر في ميما ونال إعجاب ورضى منسى ميما فاعتمد عليه وقرّبه منه وأسند إليه أعمال كثيرة وكبيرة وجاءه وهو في ميما مبعوثين عديدين كانوا يحثونه على استرداد عرشه وأبدوا تأييدهم واستعدادهم لمساعدته وبالفعل أخذ يعدّ العدة لذلك بعد أن زوّده منسى ميما بقوة من الجند رجع بها إلى منية حيث وجد ترحيباً والتفافاً حوله من قبل القادة حيث كانت كل عشيرة قد كوّنت جيشاً وتمّ اجتماع هذه الجيوش والفصائل مع قوات بنوجاتا في سهل سيبي وأعطيت القيادة العامة لهذه الجيوش لسونجاتا(28).

كان سوماورو ملك صوصو مستاءاً من المكانة التي وصلتها مملكة مالي ومن اتساع حدودها مع مطلع القرن الثالث عشر فتآمر ضد مالي ولكن يبدو أنه قد حدث انشقاق في جبهة صوصو حيث نشب الصراع بينه وبين ابن أخيه وقائد جيوشه في نفس الوقت ويبدو أن هذا الصراع كان قوياً لدرجة أن الأخير انضم إلى جيوش سونجاتا المعسكرة في سيبي، ووقع الاشتباك الأول بين جيوش مالي وصوصو وبعد معركتين متكافئتين كان اللقاء الحاسم في كيرينا سنة 1230 حيث

(27) ابن خلدون، العبر، جـ 1، ص 20، القلقشندي، جـ 5، ص 292.
(28) نياني، ص 143.

تمّت الغلبة لسونجاتا بفضل جيشه القوي والمنظم والملتهب حماساً وتأييداً لقائده[29].

لم يكن نصر سونجاتا نصراً عسكرياً حاسماً على خصم عنيد فحسب بل كان له أثر أكثر أهمية تمثل في توثيق عرى التحالف بين تلك العشائر التي كونت الجيش الذي أحرز النصر في كيرينا. وبعد أن حرر سونجاتا بلاده لاحق سوماورو ولكنه أفلت منه فزحف سونجاتا على صوصو وأخضعها واستمرت تحت حكمه خمس سنوات، وفي عام 1240 نقل عاصمة ملكه من جرينا إلى ميامي التي بناها على أطراف نهر النيجر الأعلى متوسطة بذلك أنحاء الامبراطورية التي امتدت من بلاد الهوسا شرقاً حتى المحيط غرباً وضمت مصادر الثروة المعدنية الرئيسية كمناجم الذهب والملح[30].

ولو حولنا تقصي الأسباب التي جعلت سونجاتا يقدم على نقل عاصمته لوجدناها تتلخص في الآتي:

1 ـ رغبته في أن تحتل عاصمته موقعاً وسطاً في إمبراطوريته إذ أن العاصمة القديمة كانت بعيدة عن مركز الدولة.

2 ـ عدم شعوره بالأمان بين أفراد عائلته في عاصمته السابقة، خاصة وأنها محاطة بالجبال مما يجعل الاتصال بها أمراً صعباً.

3 ـ يمتاز موقع العاصمة الجديدة بالحصانة، ووجودها في سهل يجاري سهل نهر سنكراني الذي يصلح للملاحة طول العام وتحيط به نصف دائرة من المرتفعات كما أنها متاخمة لمناجم الذهب ومصادر الكولا والزيت وهي

(29) عبد الرحمن ذكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفرقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1968، ص 98.

(30) أمين الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 160.

منتوجات تدر أرباحاً هائلة[31]، وقد وصف لنا العمري طريقة بناء هذه العاصمة فقال: «إن البناء بالطين المدكوك يكون بقدر ارتفاع ثلثي ذراع ثم يترك البناء حتى يجف ثم يبنى عليه مثله حتى يتم الانتهاء، أما الأسقف فقد كانت تصنع من الخشب والقصب على شكل قباب»[32]. وقد تمّ التعرف على هذه المدينة عن طريق بعثة غينية بولندية أجرت حفرياتها منذ عام 1968 وقد جاءت نتائجها مطابقة تماماً لوصف العمري.

وبعد عام 1240 لم يشترك سونجاتا في معارك حربية، غير أن قواده الذين تدربوا على أساليب القتال وأتقنوها ـ واصلوا عمليات الفتح والغزو حتى تخطوا حدود بلادهم باسمه وضموا للمملكة بلاد ما وراء السنغال التي لم يسبق غزوها وواصلوا حتى نهر جامبيا وبلاد التكرور لقد حاول سونجاتا سندياتا بعد أن وطد أركان دولته أن ينظم الإدارة فوضع دستوراً لمالي كان عبارة عن تحديد لقواعد العرف والمحرمات التي لا يزال أثرها باق حتى الآن في تنظيم العلاقات بين العشائر المختلفة[33]. وفي عام 1255 توفي سونجاتا بعد حكم دام حوالي ربع قرن ولا يعرف السبب الحقيقي لوفاته خاصة إذا عرفنا أن الروايات الشفوية التي استقى منها تاريخ مالي تتضارب حول ذلك فالبعض يقول أنه مات مقتولاً في إحدى الحفلات بسهم طائش وعن غير قصد، في حين أن البعض الآخر يرى أنه مات غرقاً في مياه نهر سنكراني في ظروف يكتنفها الغموض[34] وبعد وفاته توقف العمل بالمبدأ الذي كان متبعاً منذ القدم في توارث العرش أي مبدأ خلافة الحواش (الأخوة واحداً بعد الآخر) فقد تولى ابن سونجاتا الأكبر منسى ولى (علي) 1200 ـ 1270 واقتفى سنّة سلفه في الحج إلى مكة وزار مصر في عهد

(31) نياني، ص 147 ـ 149.
(32) القلقشندي، جـ 5، ص 283.
(33) عبد الرحمن ذكي، ص 102.
(34) نياني، ص 156.

السلطان بيبرس في طريقه إلى الأراضي المقدسة.

وفي الفترة ما بين 1270 ـ 1307 حكم مالي سبعة أباطرة منهم منسى خليفة، شقيق منسى علي ـ الذي غلبت عليه الحماقة فقد روى القلقشندي أنه كان يرمي الناس بالسهام فيقتلهم، فنقم عليه الناس فقتلوه[35].

وتعتبر فترة حكم ساكورا ـ أحد قواد سونجاتا 1282 ـ 1300 من أعظم فترات تاريخ مالي وقد كان ساكوره هذا أكثر أهمية من ملوك مالي السبعة الآخرين الذين حكموا حتى سنة 1307 فقد قدر له أن ينقذ الإمبراطور من الانهيار الذي كاد أن يعصف بها بسبب المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك حول العرش لذا فقد استولى على الحكم بالقوة وواصل فتوحاته لتوسيع حدود المملكة حيث غزا تكرور وفتح بلاد كوكو وغزا ونقارة وجاو عاصمة سنغاي في الشرق[36].

وفي عام 1300 أدى فريضة الحج في أيام السلطان الناصر قلاوون وفي طريق العودة اغتيل على أيدي بعض قطاع الطرق واللصوص[37]. أما المؤرخ الحديث عبد الرحمن ذكي فيقول: «تابع ساكورة طريقه إلى أكسوم في الحبشة والسودان الشرقي ومن غير المعروف سبب ذلك، وبمجرد وصوله البر هجم عليه بعض الأهالي في الصومال فقتلوه»[38].

ولكننا نرجّح رواية ابن خلدون لأنه يعتمد في معلوماته على مصادر موثوقة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه من غير المعقول أن يترك الطريق التي اعتاد سلفه على ارتيادها في غدوهم ورواحهم إلى مكة ويتجه إلى الحبشة في السودان الشرقي.

---

(35) القلقشندي، جـ 5، ص 295، ابن خلدون، العبر، جـ 1، ص 200.
(36) أحمد ذكي، ص 103.
(37) ابن خلدون، العبر، جـ 1، ص 200.
(38) أحمد ذكي، ص 104.

منسى موسى 1307 ـ 1332:

انتقلت الخلافة من أولاد سنديانا إلى أولاد إخوته أبي بكر واعتلى موسى أول أولاد أبي بكر العرش في سنة 1307 وقد بلغت مالي أوّج قوتها وثرائها في عهد النسي موسى فقد استطاع قواده فتح تمبكتو وولاته ووصلت قواته إلى جاو ـ غاو في منطقة النيجر الأوسط وأخضع لسلطانه الصحراويين الرحل الذين كانوا يثيرون الشغب، كذلك بسط نفوذه على أوران وتارمكت ووصلت الإمبراطورية في عهده درجة عظيمة من التوسع فامتدت من تكرور غرباً حتى دندى شرقاً وفوتاجالون جنوباً[39].

وقد وصفه ابن خلدون بأنه «رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً له في العدل أخبار تؤثر عنه»[40]. ولقد زاد من شهرة مالي وزيوع صيت المنسى رحلة الحج التي قام بها في 724 هـ ـ 1325 م التي وصفها لنا ابن خلدون والقلقشندي، وتحدث عن ذلك الثراء الأسطوري الذي كان يحمله معه والذي جعل الجميع ينبهر بمجده وقوته وثرائه، ويبدو أن أثر هذه الحجة ظلّ عالقاً في أذهان الناس مما دفع بأحد كبار موظفي الدولة المملوكية بعد فترة من الزمن تسجيلها في كتاب أسماه «الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك»، ولقد وصف ابن خلدون قافلة المنسى فقال: «بأنها كانت تتألف من ثمانية حملاً من التبر وكل حمل يزن ثلاث قناطير وإنه صحب معه خمسمائة خادم في حلل موشاة بالذهب يحمل كلاً منهم عصا تزن ستة أرطال من الذهب»[41].

وكان عدد الحراس الذين رافقوا القافلة ستة الآف حارس وعلى الرغم من أن هذا الرقم يبدو كبيراً إلا أننا لا نستبعد ذلك خاصة بعد حادثة اغتيال ساكورة في طريق عودته من الحج ولهذا السبب أصبح سلاطين مالي يعدون بدقة ونظام

(39) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، ص 104.

(40) ابن خلدون، العبر، جـ 5، ص 200.

(41) نفس المصدر، جـ 6، ص 295.

رحلات سفرهم، فقد طلب المنسى من جميع المدن التجارية مساهمة خاصة في هذه الرحلة[42]، وعندما وصل المنسى القاهرة أرسل للخزانة السلطانية هدية، كانت عبارة عن حمل من التبر، بل أنه وزع الذهب على كل أمير وربّ وظيفة سلطانية[43].

لقد كان أسلاف المنسى يحجون إلى بيت الله الحرام بصفة دائمة ولكن زيارته هذه كان لها صدى كبيراً حتى أنه يصعب على المرء أن يصدق وصف المؤرخين لها ولكن المؤرخين الأجانب أيضاً تحدثوا عنها وانبهروا إذ يقول أحدهم: «لم يصعب على من أتيح له أن يشاهد بعض الزعماء الإفريقيين هذه الأيام أن يصدق مثل هذه الرواية فالواحد منهم يحمل عصاً تلمع من الذهب اليت تحوطها، وتتبعه فئات أخرى يحملها أتباعه وأبناءه»[44]. وعندما وصل المنسى إلى القاهرة ومثّل بين يدي السلطان الناصر قلاوون رفض أن يسجد أمامه وقال له بأنه مالكي المذهب لا يسجد لغير الله فأعفاه السلطان من ذلك[45].

وبعد أن أدّى فريضة الحج تأخر في مكة بعد انقضاء الموسم حيث حرص أثناء تواجده فيها على شراء كمية كبيرة من الكتب الدينية وخاصة فقه المالكية رغبة منه في تثقيف أهل مملكته، كما التقى في موسم الحج بالشاعر الأندلسي أبو إسحاق المعروف بالطونجوق حيث أقنعه بأن يصطحبه معه إلى بلاده حيث

---

(42) نيانى، ص 160.

(43) القلقشندي، جـ 5، ص 295.

(44) دافدسن (بازل) إفريقيا تحت أضواء جديدة، جمال الدين أحمد، دار الثقافة العربية، بيروت، ب. ت. ص 160.

(45) تقي الدين أحمد المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، حققه جمال الدين الشيّال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1955، ص 110.

بنى له قبة مربعة الشكل تعتبر من التحف النادرة في فن البناء، وكذلك شيد أبو إسحاق في تمبكتو قصراً ومسجداً من الطوب الملون له مئذنة وسقف من الأخشاب، ويبدو أن هذا الطراز المعماري الذي أدخله إسحاق قد نال رضا واستحسان سكان مالي الأثرياء فاستخدموه في بناء مساكنهم[46].

لقد كان لرحلة الحج تلك نتائج عديدة بالنسبة لتاريخ السودان الغربي في فتراته اللاحقة، إذ ازداد اهتمام مصر ـ المغرب ـ البرتغال والمدن التجارية الإيطالية بمالي شيئاً فشيئاً، أما في عهد المنسى فقد توطدت علاقاته مع سلاطين مصر المماليك، والدليل على ذلك حي بولاق التكرور الذي ينسب إلى أحد الصلحاء التكارره، وكان يوجد به جالية كبيرة منهم، كذلك خصص أحد أروقة الأزهر للطلبة والعلماء التكاررة[47] وتوطدت علاقة المنسى مع المغرب أيضاً حيث تبودلت الهدايا بينه وبين سلطان المغرب أبا الحسن. وعلى صعيد العلاقات الثقافية أرسل المنسى طلاب العلم إلى فاس والقاهرة لتلقي العلم على نفقة الدولة لكي يحملوا على عاتقهم مسؤولية التعليم مستقبلاً، فكان منهم الأئمة والقضاة والمعلمين في المساجد والمدارس التي افتتحها السلطان لتعليم القرآن في تمبكتو وجنى ونياني التي غدت من المدن الثقافية الهامة[48]. أما من الناحية الاقتصادية فقد سيطرت الإمبراطورية في عهد المنسى على مناجم الذهب في ونقارة في الجنوب الغربي وفي تغارة وفي الشمال ومناجم النحاس في تكرا في الشرق وتحكمت في طرق القوافل بين هذه المناجم شمالاً وجنوباً، لقد مات منسى موسى بعد حكم دام حوالي ربع قرن وخلفه ابنه ماعان (محمد) الذي

(*) لقد ذكر ابن بطوطة أنه عندما زار مالي رأى قبر أبو إسحاق الساحلي في تمبكتو.

(46) جوليان، تاريخ إفريقيا، ص 43.

(47) محمود خيري عيسى، العلاقات العربية الإفريقية، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1977، ص 43.

(48) قداح، إفريقيا العربية، ص 23.

استمر حكمه أربع سنوات ثم خلفه منسى سليمان بن أبي بكر شقيق منسى موسى ودام حكمه أربع وعشرون عاماً.

منسى سليمان 1336 ـ 1358:

يرجع الفضل إلى الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار مالي عام 1353 في تزويدنا بمعلومات وافية عن السلطان منسى والحياة في البلاد السلطاني وكيفية إدارة شؤون الإمبراطورية، حيث قال عنه أنه كان رجلاً بخيلاً وذكر أنه عندما قدم إلى مالي وسلم عليه وانصرف توقع أن يرسل إليه هدية كبيرة كعادة الملوك، ولكنه ذهل بضآلة هدية السلطان التي كانت عبارة عن قطعة لحم بقري ورغيف خبز وقدح لبن، ويبدو أن ابن بطوطة كان متسرعاً في التنديد ببخل السلطان إذ أن الأخير عاد فأمر بإنزاله في دار خاصة وقرر له نفقة تجرى عليه، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أنه وزع في ليلة القدر على القاضي والخطيب والفقهاء أموالاً يسمونها الزكاة، وأعطى ابن بطوطة منها ثلاثين مثقالاً من الذهب ثم أعطاه عن سفره مائة مثقال أخرى(49).

ولقد لخصّ لنا القلقشندي أعمال المنسى سليمان فقال: «حافظ المنسى على حدود الإمبراطورية كما تركها له أخوه موسى وشيّد المساجد والمدارس واستجلب الفقهاء من مذهب الإمام مالك حرصاً منه على التفقه في الدين... وحرص على الصلوات وخاصة صلاة الجمعة التي كان لها تقديس عندهم»(50).

سنديانا الثاني 1360 ـ 1374:

انتقل الحكم بعد المنسى سليمان إلى ابنه تبنتا حيث استمر في الحكم تسع سنوات وتولى بعده سنديانا الثاني (ماري جاطة) وكان حكمه استبدادياً دام لمدة

(49) ابن بطوطة ص 228.

(50) القلقشندي، صبح الأعشار، جـ 5، ص 297.

أربعة عشرة سنة، وقد ذكر ابن خلدون أن القاضي الثقة أبو عبدالله محمد بن وانسول ـ وهو من أصل سجلماسة عاش في كوكو فترة من الزمن ـ وصف سنديانا بأنه: «. . . أفسد ملكهم، وأتلف ذخيرتهم، وكاد أن ينتقص شأن سلطانهم وباع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عند أبيهم، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً، عرضه على تجار مصر المترددين على بلده فابتاعوه منه بأبخس ثمن، حيث صرف ثمنه على بذخه وإسرافه. . .»(51).

وقد أصابه علة النوم ـ وهو مرض كثيراً ما يصيب ساكني المناطق الحارة حتى أن الإنسان لا يكاد يفيق من النوم ـ واستمر على هذه الحالة سنتين إلى أن مات في عام 1374(52).

منسى الثاني 1374 ـ 1387:

كان تقياً عادلاً منصفاً لم يقتف أثر والده، ولكن السلطة الفعلية لم تكن بيده بل كانت بيد أحد وزراءه الذي قبض على أمور الحكم وسيّرها بحزم وتدبير وأعاد تنظيم الجيش وقاد عدة حملات إلى البلاد المجاورة مخترقاً حدود كوكو حيث حارب تكيدا ـ تكرت وانتصر عليها حتى طلب أهلها الهدنة، وتميز حكم موسى الثاني ببداية هجوم الطوارق على تمبكتو.

وفي نهاية القرن الرابع عشر سادت الاضطرابات والفوضى بسبب دسائس ومؤامرات القصر والتي كانت الأميرات ورائها في أحيان كثيرة، وانتهز حكام الأقاليم فرصة ضعف السلطة المركزية وحاولوا الخروج على سلطة المنسى(53).

---

(51) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 202.

(52) نيانى، مالي والتوسع الثاني، ص 158.

(53) القلقشندي، صبح الأعشار، جـ 5، ص 298 ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 1202، قداح، إفريقيا الغربية، ص 97.

وفي سنة 1387 توفي موسى الثاني واعتلى العرش بعده ولسنة واحدة فقط أخوه منسى ـ مقا الذي بدأ عهده بحروب أهلية انتهت بقتله فاستولى على العرش بعده صندكي زوج أم موسى الثاني ولكنه أطيح به بعد فترة وجيزة على يد أحد أحفاد سنديانا الأول مؤسس الإمبراطورية والذي كان يحكم كيتا (شمال غربي العاصمة) حيث وجد الفرصة سانحة له فاستولى على الحكم تحت اسم مقان ماغان الثالث في عام 1390 حيث بدأت على يديه سلالة كيتا الجديدة التي استمرت في الحكم حتى مجيء الاستعمار الفرنسي(54).

إدارة المملكة:

إن الإدارة وأنظمة الحكم تكاد تكون متشابهة في مختلف الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا خاصة بعد مرحلة انتشار الإسلام حيث أخذت جميعها بالنظم الإدارية المعمول بها في المناطق الإسلامية كمصر وشبه الجزيرة العربية ودول المغرب العربي، وقد كانت المملكة في مالي تدار من قصر السلطان حيث ترك لنا الرحالة ابن بطوطة وصفاً دقيقاً لهذا القصر ذو الطبقات المغشاة بصفائح الفضة المذهبة حيث كان السلطان يجلس في مكان معين وإلى جانبه الخطيب والفقهاء والأمراء وكل من أراد أن يكلم السلطان من الرعية كان عليه أن يتقدم إلى رجل مميز ويسر إليه بما يريد أن يقوله فيتقدم الأخير بدوره إلى رجل آخر ينقل الحديث بدوره إلى السلطان، كذلك كان السلطان يجلس إلى منضدة تحت شجرة كبيرة بعد انقضاء صلاة الجمعة حيث يستمع إلى مطالب الرعية ومشاكلهم(55). ويبدو أن الأمن والاستقرار كان مستتباً بفضل حسن الإدارة، فكان المسافر والمقيم في المملكة لا يخاف من سارق أو قاطع طريق، كما أن أهل المملكة كانوا لا يتعرضون لمال وحاجيات من يمر ببلادهم من

(54) ابن بطوطة، تحفة النظار، جـ 2، ص 228 ـ 239.
(55) نفس المصدر ص 242.

الغرباء ولو كان من القناطير المقنطرة إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه[56].

كما زودنا القلقشندي بمعلومات مختصرة عن الأنظمة الإدارية حيث قال: «كان يوجد بها الوزراء والكتّاب والقضاة والدواوين، وهي أنظمة إسلامية عرفت في مختلف البلاد الإسلامية الأخرى حيث كان السلطان يعتمد عليها في تسيير شؤون المملكة، حيث أنه لم يكن يكتب شيئاً بل يوكل هذا الأمر إلى صاحب وظيفته وأن كتابتهم كانت بالخط المغربي»[57]. والجدير بالملاحظة أن هذه الوظائف الكبرى كانت موزعة بين كبار زعماء القبائل، ولم تتوفر لنا لسوء الحظ أية معلومات عن أنظمة الإدارة باستثناء القضاء حيث كان قائماً ومستمداً من الشريعة الإسلامية وكان ذلك طبيعياً بعد أن انتشر الإسلام في المملكة وكانت مكانة القاضي عظيمة وكثيراً ما تولي هذه المهمة في بداية انتشار الإسلام قضاة مغاربة وقد كانت هناك محكمتان: محكمة ملكية برئاسة الملك وهي تنظر في جرائم الخيانة العظمى ومحكمة القاضي وهي تختص بالنظر في الجرائم العادية والخلافات بين المواطنين. وكان القاضي يعين من قبل الملك[58]. أما عن الجيش فقد تكونت نواته عندما أراد المؤسس سنديانا أن يحارب مملكة الصوصو حيث شكله من عدّة فرق عيّن على رأس كل فرقة رئيساً من أتباعه المخلصين وتولّى هو وظيفة القائد الأعلى للجيش وقيادة فرقة الفرسان المسلحين بالسيوف في حين كانت فرقة المشاة تستخدم الأسلحة الأخرى كالسهام والرماح الطويلة[59] وكان تعداد الجيش مائة ألف، عشرة آلاف مقاتل والباقي كانوا من الرحالة[60] ويبدو أن جيش مالي كان قد بلغ درجة كبيرة من

---

(56) القلقشندي، جـ 5، ص 298.

(57) قداح، إفريقيا الغربية، ص 108.

(58) أمين اسبر، إفريقيا والعرب، دار الحقائق، بيروت، 1980، ص 20.

(59) القلقشندي، جـ 5، ص 299.

(60) نياني، ص 175.

القوة وحسن الإعداد لدرجة أن بعض الأمراء المغاربة المخلوعين أرسلوا سفارات لبلاط المنسى موسى لمساعدتهم على استعادت عروشهم الضائعة[61].

كذلك استطاع هذا الجيش القوي أن يوسّع حدود مالي وأن يضيف إليها الكثير من المناطق التي عجزت قبلها إمبراطورية غانا من ضمها إليها، وصمد بفضل كفاءة عناصره أمام هجمات الوثنيين والطوارق الذين طالما كالوا الضربات للمملكة إلى أن تمكنوا من إضعافها والإسهام في انهيارها.

وخلاصة القول أن التأثير في الجوانب السياسية والإدارية كان واضحاً من خلال نظم الحكم وظهور الممالك الإسلامية وتأثر الشخصيات السياسية والدينية الإفريقية بالإسلام ولقد اتضح لنا البون الشاسع بين نظم الحكم قبل انتشار الإسلام وبعده، حيث كان النظام القبلي هو النظام المسيطر وكانت أقوى القبائل هي التي تحكم، ولكن بعد ظهور الإسلام وانتشاره بينهم تكونت الممالك الجديدة ذات السمّات والخصائص الإسلامية فحافظ الإسلام على شخصية كل مملكة ودولة من هذه الدول التي أصبحت علاقاتها مع جيرانها من الممالك الأخرى علاقة قائمة على الود والاحترام حيث يجمعها قاسم مشترك هو الإسلام وتعاليمه السمحة، وقد حدا ذلك بهذه الدول أن تقيم علاقات سياسية خارج حدود مملكتها أو بالأحرى خارج إفريقيا حيث اتصل الملوك الأفارقة بالبلدان الإسلامية وكونوا معها علاقات دبلوماسية وتأثروا بأنظمتها المختلفة، حتى أن البعض من السلاطين الأفارقة طلبوا من الخلافة العباسية أن تمنحهم لقب خليفة لكي يستمدوا حقهم الشرعي في ممارسة سلطتهم وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى تأثر هؤلاء وقناعتهم بالدين الإسلامي وتأثرهم به كما يدل على مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في الحياة السياسية والإدارية في هذه المناطق.

---

(61) ابن بطوطة، جـ 2، ص 240.

تطور الحياة الاجتماعية والثقافية :

كان لتحول غالبية السكان في مالي إلى الإسلام أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية والثقافية، ولكن يبدو أن هذا التأثير أو التغيير لم يكن سهلاً ولم يحدث سريعاً كانتشار الدين ذاته وذلك يعود إلى الرواسب والتقاليد والأعراف الاجتماعية الموروثة جيلاً بعد جيل وحيث أن ذاتية الإسلام وخاصيته التي تميز بها منذ بزوغه في شبه جزيرة العرب لم يصطدم مباشرة بالواقع الموجود بل إنه أرسى تعاليمه ومبادئه وبدأت تأخذ طريقها جنباً إلى جنب داخل المجتمعات التي وصل إليها مع عادات وتقاليد وحياة هذه المجتمعات تاركاً بذلك أمر التمييز والمقارنة لسكان هذه المجتمعات بين ما عاشوا وجبلوا عليه وبين ما جاءهم به الإسلام من أمور سمحة وعادات طيبة تتناقض تماماً مع ما اعتادوا عليه من حياة سابقة. لذا فقد جاء هذا التقرير بطيئاً ولكنه بنى على قناعة تامة دون إكراه، ولكن هناك أموراً وسمّات اجتماعية معينة تغيرت وتأثرت بدخول الإسلام منذ الوهلة الأولى وخاصة موضوع التعامل بين الأفراد (المعاملات اليومية) كانتهاء ظاهرة الربا والغش في الكيل وأكل أموال الناس بالباطل وعدم الإيفاء بالوعد فهذه أمور سرعان ما تلاشت وحلّت محلها تعاليم الإسلام ومبادئه.

أما عن العادات والتقاليد التي استمرت حتى بعد انتشار الإسلام فهي أمور تتعلق بتصرفات الأفراد تجاه بعضهم البعض أو تجاه الحاكم أو شيخ القبيلة فعلى سبيل المثال يروي لنا ابن بطوطة: «أنه إذا مثل أحدهم لدى السلطان غيّر ثيابه التي عليه بثياب خرقة بالية ونزع عمامته عن رأسه ودخل على السلطان رافعاً ثيابه إلى نصف ساقه وتذلل أمام السلطان وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً ووقف كالراكع وهو يستمع لكلام السلطان، وإذا تكلم أحد الناس أمام السلطان فردّ عليه كلامه كشف ثيابه عن ظهره ورمى التراب على رأسه»[62]. ويبدو أن

(62) نفس المصدر.

عادة رمي التراب على أنفسهم أمام السلطان كانت متأصلة فيهم لدرجة أنه عندما زار الحاج موسى الونجراني بلاد المغرب موفداً من المنسى موسى سليمان حمل معه قفة تراب ليلقيها على رأسه وجسده أمام عاهل المغرب[63].

ونحن بدورنا نتعجب من هذه التصرفات كما تعجّب قبلنا ابن بطوطة وغيره من المهتمين بهذا الموضوع، إذ أن احترام الغير وتقديره حتى لو كان ملكاً لا يعني أن يفقد الإنسان احترامه لنفسه بتلك الطريقة التي تبدو فيها السذاجة ممزوجة بالجهل، لأن التذلّل والركوع لغير الله عزّ وجلّ أمر مرفوض في الدين الإسلامي ويأباه كل مسلم عمر قلبه بالإيمان حتى أن السلاطين أنفسهم أدركوا هذا جيداً وطبقوه وذلك عندما رفضوا الركوع أمام سلطان مصر قلاوون كما سبق أن أشرنا.

لاحظ ابن بطوطة أثناء إقامته في مالي بعض الأشياء التي استهجنها منها أن الخدم والجواري والبنات الصغار لا يستترن أمام الناس وهذا شيء غريب لأننا نرى على النقيض من ذلك عناية أهل مالي بأمور دينهم ومحافظتهم على الصلاة خاصة صلاة الجماعة وحفظ القرآن، كما أورد ابن بطوطة رواية مفادها «أن السلطان غضب ذات مرة على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن ومن عادتهن إذا دخلن على السلطان أن يستجردن من ثيابهن ويدخلن عرايا، ففعلن ذلك ورضي عنهن[64] وإذا صحّت هذه الرواية فإننا لنعجب من ذلك أشدّ العجب أفلا يكون رضا السلطان عنهن إلا بتلك الطريقة المخالفة للشرع الإسلامي؟.

كما ذكر القلقشندي رواية أخرى عن أمير حاجب مصر فحواها أن المنسى موسى عندما زار القاهرة حكى له أنه من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحدهم

(63) نفس المصدر، ص 243.

(64) نفس المصدر، ص 243.

بنت حسناء أن يقدموها له أمة موطؤة فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين، فقال أمير حاجب مصر لموسى أن هذا لا يحل لمسلم شرعاً، فقال امنسى ولا للملوك أيضاً فقال الحاجب ولا للملوك، واسأل العلماء، فقال والله ما كنت أعلم ذلك وقد تركته من الآن»[65].

كذلك من رواسب الماضي التي استمرت حتى بعد الإسلام انتشار ظاهرة السحر حيث تعاظم عدد السحرة في المجتمع المالي وسيطروا على عقول البسطاء منهم وكانوا يعتقدون بمفعول السحر ويؤمنون بأنه يؤدي إلى قتل بعض الناس وكثيراً ما كان السلطان يحكم على الساحر بالقتل[66].

ويبدو لنا من خلال عرض الممارسات السابقة أن الإسلام في مالي قد اتخذ لوناً محلياً متميزاً في كثير مما يتصل بالحياة من خلق وعادات اجتماعية، وإن كان معتنقوه تقاة ورعين إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من تأثير تلك الممارسات الوثنية التي سيطرت على حياتهم قبل معرفتهم بالإسلام.

أما عن التطور الديموغرافي فإن مالي قد شهدت تطوراً ملحوظاً إذ يتراوح عدد السكان بين ستة وسبعة ملايين من البشر وأياً كان الرقم الحقيقي فإن الوعاء البشري في مالي يضم خليطاً من القبائل والأجناس بتعدد انتماءاته العرقية والاجتماعية بصورة مثيرة ومدهشة، فسكان مالي يتوزعون بشكل عام على أصلين عربي وزنجي وبرغم أن هذه الأصول لا تعيش في عزلة غن بعضها وإنما تداخلت تجمعاتها السكانية بقدر تشابك مصالحها الاقتصادية، وهذه الأصول أفرزت عشر مجموعات من القبائل على الأقل تتعايش جنباً إلى جنب في أرض مالي في الفترة الأخيرة، ومن هذه القبائل سبعة مجموعات ذات أصول زنجية هي: البمبارا، والسراكولي وبوزو والمنينكا، والصنغاي، والرجون وبوبو، أما

---

(65) القلقشندي، جـ 5، ص 296.

(66) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، 108.

القبائل العربية فإنها من أصول عربية بطبيعة الحال ولكن الفولانيين يختلط فيهم العنصر العربي بالعنصر الزنجي، وسبعون بالمائة من السكان مسلمون وخمسة وعشرون بالمئة وثنيون أم الباقي وهم خمسة بالمئة فهم مسيحيون وتلك نسب متداولة مستقرة في دوائر الحكومة(67).

أما بخصوص الجوانب الثقافية وتطورها في هذه المنطقة فإن انتشار الإسلام ودخوله إلى هذا الإقليم وغيره من الأقاليم الإفريقية يعتبر من العوامل الهامة والمؤثرة تأثيراً مباشراً في التاريخ الثقافي في القارة وقد حاول الإفريقيون التوفيق بين ثقافتهم وعاداتهم المتوارثة وبين الثقافة العربية الإسلامية إلى أن تغلبت الأخيرة بفضل ما تميزت به من صلابة ورصانة ومنطق، وقد استمر الإسلام والثقافة العربية على نشاطهما حيث أصبحت بعض الأقطار والمدن الإفريقية مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية المزدهرة(68).

وتعود الجذور الأولى للثقافة العربية الإسلامية في هذه المناطق إلى العصور الوسطى حيث كانت هي الزاد الذي حمله المسلمين الأوائل إلى تلك المنطقة واللذين كان هدفهم سامياً وهو نشر العقيدة الإسلامية وما يتيح ذلك من نشاط تجاري وعن طريق ذلك استطاعوا نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية حتى أن الفرنسيين عندما وصلوا إليها عام 1816 وجدوا التعليم العربي المتمثل في المدارس الإسلامية والكتاتيب القرآنية والمعاهد حيث كان تعليم اللغة العربية منتشراً وكانت لكل قرية أو حي من أحياء المدن الكبيرة مدرسة خاصة(69).

(67) حامد عثمان، جـ 1، ص 216.

(68) محمود متولي، رأفت الشيخ، إفريقيا في العلاقات الدولية، دار الثقافة، القاهرة، 1975، ص 8.

(69) حامد تراوري، ص 88.

وقد أدى ذلك إلى ربط المنطقة بشمال القارة وشبه الجزيرة العربية بروابط دينية وثقافية عميقة وثابتة حيث انطلقت المؤثرات العربية الإسلامية عبر الصحراء إلى المنطقة وتبع ذلك حدوث التفاعل ما بين الدين الجديد والثقافة العربية الإسلامية من جهة وبين الثقافات والأعراق المحلية من جهة أخرى مما أدى في النهاية إلى أن أصبحت الثقافة الإسلامية هي الأساس في النواحي الإدارية والمعاملات التجارية والتعليم وغيرها. وهكذا أصبح دخول الإسلام إلى المنطقة يعني الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي خاص وذاتي مما أدّى إلى بروز مراكز ومدن إسلامية تحمل طابعاً ثقافياً خاصاً ومتميزاً مثل مدينتي جنى وتمبكتو اللتين ارتبط تاريخ مالي الثقافي والحضاري بهما ارتباطاً وثيقاً، لذا يصبح لزاماً علينا إلقاء الضوء عليهما وعلى الجوانب المتعددة والمتميزة والتي جعلتهما مركزين هامين من مراكز الثقافة العربية الإسلامية من ناحية ومركزين هامين من مراكز انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية بصورة خاصة وإفريقيا بصورة عامة منذ عهد المنسى موسى(70).

تقع مدينة جنى التي توجد الآن في جمهورية مالي على خط عرض 35 13 شمالاً وخط طول 9 شرقي غرينتش وقد كانت في بدايتها بلدة صغيرة ظهرت في قلب دلتا نهر النيجر على أنقاض إحدى مدن مملكة غانة ويقال أن اسم غينيا اشتقّ من كلمة جنى وهي أقدم مدن غرب إفريقيا وغينيا هو الاسم الذي أطلقته البرتغال على غرب إفريقيا في القرن السادس عشر، والرحالة الفرنسي رينيه كاييه هو أول أروبي وصل إليها في 11 مارس 1828 وقد دخلت هذه المدينة الإسلام في بداية القرن الثالث عشر بعد انتشار المرابطين في غرب إفريقيا. وذاع صيتها وزادت شهرتها في العصر الذهبي لإمبراطورية مالي الإسلامية، وقد وصفها المؤرخ عبد الرحمن السعدي بقوله:

---

(70) دونالد ويفر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ت رائد بدوي، دار الجبل، القاهرة، د. ن، ص 47.

«إنها مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة، جعل الله في أرضها خلقاً وجبله، وطبيعة أهلها التلاحم والتعاطف والمواساة. . . وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح وأرباب الذهب، وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلها، فوجد الناس في التجارة إليها كثيراً وجمعوا من الأموال ما لا يحصى»(71).

وقد أيّد هذا القول المؤرخين الأوربيين الذين قالوا عنها أنها كانت سوقاً عظيمة من أسواق المسلمين يجتمع فيها تجار الملح من إقليم تغازا (Tahada) على مسيرة يومين إلى الشمال من توديني (Tauoddeni)، وتجار الذهب من مناجم باكوكو (Bakoko) وبفضلها تجمعت القبائل في تمبكتو من جميع الجهات المجاورة وكانت أشبه بمركز ثقافي ينافس تمبكتو في هذا المضمار حيث ازدهرت الدراسات الدينية والفقهية فيها وظلت على هذه الحالة تمارس نشاطها الثقافي في المدارس والمساجد التي ألحقت بها المعاهد للدراسات الإسلامية(72) وعن فقهائها يقول السعدي:

«لقد ساق الله لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شتّى منهم «موسغ كنكي» الذي كان فقيهاً صالحاً جليل القدر في نصف الليل يخرج من داره إلى الجامع لنشر العلم إلى الإقامة ومن بعد الصلاة إلى الزوال، ثم يرجع إلى داره، ثم من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر، وهكذا كانت عادته مع الطلبة»(73).

---

(71) السعدي، ص 175.

(72) Welich (G), L'Afrique avant la Colonisations Paris, 1970, P. 13.

وانظر أيضاً:

«Cherbonneau (A), Histoire de la lititrature au Sudan», Journal Astatique TIV.1855. P. 7.

(73) السعدي، ص 172.

ويعتبر مسجدها الكبير رمزاً وعلامة لا تخطئها العين فحيثما ذهب المرء يلمح جانباً من عمارته الشاهقة المميزة، وقيل أن هذا كان في الأصل مقراً لقصر الملك كنبرو إذ يروى أنه عندما أسلم هذا الملك في نهاية القرن السادس عشر الهجري أي حوالي 1200 م حذا حذوه رعيته وجمع كل العلماء في مملكته وكان عددهم 4200 عالماً حيث طلب منهم أن يدعو الله أن ينصر مدينته ثم هدم قصره وبنى مكانه مسجداً كبيراً تعبيراً لحبه للدين الإسلامي(74).

أما المدينة الثانية اليت كان لها مركز ثقافي مرموق فهي مدينة تمبكتو التي كانت لها شهرة كبيرة في المجالين الثقافي والتجاري ولقد اختلفت الروايات حول نشأتها وتطورها، إذ يقول عنها حسن الوزان: «تمبكتو اسم مدينة بناها الملك منسى سليمان عام 610 هـ (1214 م) على بعد نحو اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر»(75).

وهناك رواية تقول إن قصتها بدأت في الصحراء، حول بئر ماء كانت تقف عندها قوافل الطوارق لترتوي وعند هذه البئر كانت تقيم امرأة تدعى «بوكتو» عرف المكان باسمها تمبكتو وهي تعني في لغة الطوارق مكان بوكتو واستقر اسمها على هذا الحال بمرور الزمن وأن عمر هذه المدينة لا يتجاوز 880 عاماً أي أنها أنشأت حوالي عام 1110م(76).

أما عن تطورها فهناك رواية تقول بأنه نتيجة لظهور الدعوة الإسلامية في العصور الوسطى ونشاطها خصوصاً بعد إقصاء المسلمين من غرناطة حيث خرجت جموع كثيرة من المرابطين يدعون سلمياً إلى الإسلام مستعملة في ذلك

---

(74) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ت حسن إبراهيم حسن ط 4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957، ص 355.

(75) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 165.

(76) حامد عثمان، المسلمون في العالم، ص 221.

اللغة العربية والتجأ نتيجة لذلك عدد من العلماء والشعراء من الأندلس عن طريق المغرب (مراكش) وتونس إلى مدينة تمبكتو التي كانت خلال القرن السادس عشر أهم مركز تعليمي في غرب إفريقيا(77) وإن اختلفت الروايات في تاريخ نشأتها إلا أنها تتفق على أنها مدينة إسلامية عريقة لم تعرف ديناً غير الإسلام، ويعتز أهلها بالمأثرة التاريخية القائلة «إنها المدينة التي لم يسجد على أديمها لغير الرحمٰن» ويقول السعدي في هذا الصدد: «لم تعرف عبادة الأوثان، ولم تعبد غير الرحمن، وحينما سقطت قرطبة وخرج المسلمون فيها فراراً من المذابح كانت تمبكتو الملجأ والملاذ»(78).

لقد كان لتمبتكو علاقات ثقافية وطيدة مع مدن الشمال ومصر والمدن المزدهرة ثقافياً مثل فاس والقيروان وغدامس وتلمسان وجامع الزيتونة وجامعة الأزهر، وكانت حركة الدعوة الإسلامية التي وجدت طريقها إلى غرب إفريقيا من التجار والدعاة اللذين كانوا يفدون إلى هذه المدينة قد بلورت مع بداية العصر الحديث حياة الشعوب في المنطقة وطبعتها بالطابع الإسلامي وبالثقافة الإسلامية وأصبح الإسلام بمثابة الأيديولوجية لكل الأنظمة القومية التي استمرت حتى القرن التاسع عشر(79). ولقد شكّل الإسلام وثقافته في هذه الأقاليم عائقاً قوياً أمام التغلغل الفرنسي فيها مما دفع بالرحالة ماج (Mage) إلى القول: «إن أكثر الأمراض التي تعاني منها إفريقيا الغربية مردها إلى الإسلام»(80).

ومما يميز تمبكتو جامعتها التي تمثل إحدى المنارات للتقدم الفكري

---

(77) عبد القادر زبادية، «ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر»، المجلة التاريخية المغربية، العدد 7، 1977.

(78) السعدي، ص 173.

(79) Ibrahim Baba Kake, la dislocations des Grante Empires, Paris, 1978, P. 19.

(80) Mage (H) Voyage dans la Soudan occidenttal (1863- 1866), Paris, 1980, P.303.

والثقافي في العالم الإسلامي وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي كامتداد للصحراء الكبرى حيث اعتبرت امتداداً طبيعياً للشمال الإفريقي وحرصت القوافل التجارية على اتباع الخط الصحراوي هذا فضلاً عن قوافل الحج، كل هذا ساعد على تطعيم وتغذية الجو التعليمي نتيجة لما يحمله هؤلاء الرحالة من أفكار وأخبار عن العلم والعلماء والكتب والتأليف الجديد وحلقات التدريس والمناظرات وغيرها ولقد تطورت الحياة الثقافية في تمبكتو تطوراً ملحوظاً منذ عهد المنسى موسى الذي اجتذب إليها عدداً كبيراً من رجال العلم والثقافة، وأصبحت قبلة للأساتذة الزائرين ومن أهم المراكز الثقافية في العالم الإسلامي للتدريس في مدارسها التي بلغت مائة وخمسين مدرسة في نهاية القرن السادس عشر، وكذلك في جامع سنكري وهو الجامع الذي أنشىء في عام 1450 وتطور إلى جامعة شبيهة بجامعة الأزهر(81).

لقد أصبح هذا المسجد مركزاً للدراسة الجامعية التي تقوم على علوم الدين والشريعة وفقه اللغة، وأصبحت ملتقاً لطلبة العلم من كل إفريقيا الغربية وقامت بنفس الدور الذي قامت به معاهد القاهرة الدينية(82).

وقد أسندت الإمامة في هذا المسجد في كثير من الأوقات إلى علماء مغاربة وخاصة في الفترة المبكرة من انتشار الإسلام في مالي نذكر منهم عبد الرحمن البلبالي، أبو القاسم التواتي، ومنصور الفزاني(83).

---

(81) قمر الدين محمد فضل الله، «لمحة تاريخية عن مملكة سنغاي الإسلامية» مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس، ص 223.

(82) محمد عبد الفتاح إبراهيم، إفريقيا من السنغال حتى نهر جوبا، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ص 164.

(83) أحمد الفيتوري «الجاليات العربية المبكرة في السودان» مجلة البحوث التاريخية، العدد 1، السنة الثانية، مركز الجهاد، طرابلس، ص 249.

كذلك كان علماء تمبكتو خلال رحلاتهم كثيري الزيارات لجامع الزيتونة وفاس والقاهرة وأن علماء فاس وتلمسان كانوا يشاورونهم في المسائل العلمية والقضائية[84]، كما اشتهرت تمبكتو عالمياً ببيع المخطوطات المغربية والتي أصبح التجار عن طريقها يتحصلون أرباحاً هائلة فاق كثيراً ما يتحصلون عليه من السلع الأخرى ومن بينها ما تركه لنا المؤرخ العالم أبو العباس أحمد ابن أحمد المعروف بأحمد البابا السوداني[*] الذي تخرج من هذا الجامع الجامعة وقد ألّف ما يزيد على الخمسين كتاباً في مختلف العلوم وما يزال معظمها مخطوطاً حتى اليوم، وتكريماً لهذا العالم فقد أطلق اسمه على عدة منشآت على رأسها مركز بابا للتوثيق والبحوث التاريخية، وقد اختارت اليونسكو مدينة تمبكتو مقراً لهذا المركز لأهميتها التاريخية من جميع النواحي الدينية والعلمية والتاريخية والحضارية وقد تمكن هذا المركز من جمع أكثر من ألف مخطوط عن طريق الشراء أو الإعارة أو الهبة وفي موسم الأمطار تتساقط المباني القديمة المهجورة فتظهر المكتبات والكتب النادرة[85].

وكل أسرة في تمبكتو تمتلك مكتبة عامرة بالكتب وكان الناس يحفظونها في غرف مقفولة بدون نوافذ وقد أمكن إقناع أصحابها بضرورة فتح نوافذ تلك الغرف على نفقات المركز حفاظاً على المخطوطات الموجودة فيها[86]، كل هذا

---

(84) Felex du bois, Tomboukto, Paris, 1979, P. 15.

(*) من أهم مؤلفاته «نيل الابتهاج بتطوير الديباج» حيث اشتمل على مجموعة هائلة من المعلومات إلى ذكر مخطوط «الرد على الشابية المرابط عرفه وصحبه» تأليف الفقيه عمر بن محمد الأنصاري القسنطيني المتوفى عام 1552 وقد انفرد بذكرها وهي تتناول أحداثاً محلية بتونس.

انظر:

Felex du Bois, P. 254- 255.

(85) حامد عثمان، ص 225.

(86) نفس المصدر.

إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذه المدينة والتطور الثقافي الهائل الذي شهدته ومدى تغلغل الإسلام وثقافته في هذه الأقاليم.

مرحلة التدهور والانهيار:

بعد مراحل التطور والتقدم الحضاري والعلمي الذي شهدته مالي نتيجة دخول وانتشار الإسلام فيها وتفاعل حضارة وثقافة الشمال الإفريقي بحضارة جنوب الصحراء وكلها بنيت على أسس إسلامية، بدأت مالي تشهد مرحلة أخرى هي مرحلة الانهيار والسقوط وإن كانت هذه طبيعة وسنن الحضارات الإنسانية إلا أن الملفت للنظر هنا أنها بالنسبة لمالي فقد كانت سريعة وقاسية ولقد اكتنف هذه المرحلة بالذات الغموض حيث أننا نجد صعوبة متناهية في سدّ ثغراتها ومعرفة دقائق الأمور حولها حتى أنه يصعب علينا الإلمام الكامل بأسماء السلاطين وأخبارهم وأعمالهم وقد تميزت هذه المرحلة (مرحلة ما بعد القرن السادس عشر) بميزة هامة في تاريخ هذه المملكة وهي تحول اهتمام الإمبراطورية تدريجياً نحو الغرب وتركز التجارة في السواحل الغربية وبدء ظهور دور البرتغال على المسرح السياسي في غرب إفريقيا بعد احتلالها لسبتة منذ عام 1415[87]، ونيتجة لذلك لم يعد التجار المغاربة وحدهم هم المتعاملون مع إفريقيا الغربية وبدأت أخبار البرتغاليين ومعها المصادر الأوربية تحل محل المصادر والحوليات العربية عن مالي وخاصة الأقاليم الغربية منها مع كل أسف فإننا لم نستطع الحصول على المصادر العربية التي تهتم بتاريخ الممالك السودانية أو ما يطلق عليها المصادر السودانية خاصة وأن المصادر العربية بعد ابن خلدون لم تعد تمدنا بأي معلومات اللهم إلا إذا استثنينا الحسن الوزان في مؤلف وصف إفريقيا أو عبد الرحمن السعدي في معلوماته القيمة حول تاريخ

(87) مادنيا تال، «تدهور إمبراطورية مالي»، تاريخ إفريقيا العام، جـ 4، إشراف نياني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1988، ص 182.

الممالك السودانية وربما يرجع ذلك إلى أن مركز المملكة قد أصبح يتجه كما ذكرنا نحو الغرب مع بداية التواجد البرتغالي إذ أن تجارة مالي مع العالم الإسلامي قد تحولت تحولاً تدريجياً نحو الساحل الغربي في حين ظلّت التجارة التي احتكرها المسلمون على حالها لم تتغير.

لقد بدأ التدهور التدريجي لمملكة مالي في القرن الخامس عشر وكان العامل المباشر فيه مملكة غاو الصنغى التي بدأت في الظهور والاتساع في النيجر الأيمن شرقي مالي حيث استولى على أملاك مالي الشرقية والشمالية وسيطر الطوارق والبربر على ولاتا وتمبكتو(88).

وجاء البرتغاليون ليكملوا الدور وليسهموا في إنهاء مالي ـ كما خطت هي من قبل نهاية مملكة غانا ـ وذلك عن طريق تدخلهم في الحياة السياسية للغرب الإفريقي فبعد فشلهم في بسط سيطرتهم على المناطق الساحلية سعوا إلى كسب ثقة الحكام المحليين حيث أوفدوا بعثات دبلوماسية إلى موسى الثالث وأولين الثاني (على الثاني) وكان الهدف المعلن لهذه السفارات هو مناقشة قضايا مرتبطة بالتجارة، ولكن الهدف الخفي كان العمل على دراسة الموقف وتهيأة المناخ للانقضاض على هذه المملكة الضعيفة والمنهارة وسعوا إلى تحقيق ذلك عن طريق إرسال المكتشفين الذين كانوا كالذئاب في جلود الأحمال(89).

ويبدو أن هؤلاء المكتشفين قد درسوا أحوال المملكة دراسة جيدة حيث أخذت البرتغال نتيجة لذلك تعمل جاهدة على استغلال الأحوال المضطربة في مالي وتتدخل في المنازعات الداخلية بين الطامعين في السلطة والورثة الشرعيين وسعت أيضاً لكسب ودّ وولاء الرؤساء الصغار في المناطق الساحلية وتحريضهم على الثورة أو الاستقلال عن سلطان مالي، ويبدو أن هؤلاء لم يدركوا نوايا

---

(88) نعيم قداح، إفريقيا الغربية، ص 59.

(89) نفس المصدر، ص 60.

البرتغاليين حيث نرى السلطان محمد يطلب المساعدة منهم ضد الثائر كولي تانكيلا، كما كرر طلب النجدة مرة أخرى عندما هاجمته قبائل الموسى الوثنية فانتهز البرتغاليون هذه الفرصة ودخلوا منطقة غامبيا وتمركزوا في حوض نهر الكازامانس (أحد فروع نهر السنغال) إلى الجنوب من غامبيا في النصف الأول من القرن السادس عشر[90].

ونشأت في نفس هذا الوقت دولة الولوف بتشجيع من البرتغاليين، كما تعرضت المملكة لهجمات متكررة من مملكة الصنغاي وحاول السلطان محمود الثالث أن يعيد ولو بعض من هيبة مالي الضائعة فهاجم جنى في عام 1599 ولكن محاولته باءت بالفشل بسبب خيانة أحد الرؤساء المحليين[91].

واستمرت الحركات الاستقلالية لبقية الأقاليم ففي مطلع القرن السابع عشر بدأت مملكة أخرى في الظهور في أواسط النيجر من تكتل قبائل البامبيا الوثنية حول مدينة سيفو التي أخذت توجه الضربات المتتالية والأليمة للمملكة حيث اقتطعت منها البقية الباقية من أجزائها الشمالية ولم يبق لحكامها سوى تلك الإمارة الصغيرة التي نشأوا فيها أول أمرهم ألا وهي كنفايا والتي لم تسلم هي الأخرى من الهجمات.

وهكذا فإن عظمة مالي وشهرتها التي وصلت أوربا في عهد منسى موسى قد أذنت بالرحيل، وما كاد القرن السابع عشر يطل حتى انطفأت شعلة عاصمتها تمبكتو التي كانت مشتعلة ومضيئة في سماء غرب إفريقيا، وكانت كل دول وقبائل المنطقة يسيل لعابها من أجل السيطرة عليها وقد اكتشف الرجل الأبيض وعرف دورها الثقافي الرائد وإشعاعها الحضاري فجاءها غازياً ودخلها الفرنسيون عام 1894 وحولوها إلى أطلال كما حولوا الكثير من المدن الأخرى.

---

(90) نفس المصدر، ص 62.

(91) تال، تدهور مالي، ص 195.

إن جمهورية مالي الحالية لم تشكل إلا جزءاً بسيطاً من تلك الرقعة الشاسعة التي كانت تمتلكها إمبراطورية مالي من قبل والتي كانت تضمّ أراضي ما يعرف اليوم بالسنغال وغامبيا وموريتانيا بالإضافة إلى الرقعة التي تشغلها دولة مالي حالياً[92].

وخلاصة القول فإن مملكة مالي الإسلامية كانت من أعظم ممالك السودان الغربي وكانت طموحة تسعى جاهدة لبناء عظمتها ومجدها وهي دولة لم تكتف باعتناق الإسلام والحرص على مظاهره وعلومه بل حملت رايته وبلغت دعوته وقامت بدور مهم في نشره بين الوثنيين وفي السودان الغربي ويعد هذا الدور من أهم الأدوار في مراحل انتشار الإسلام في هذه المناطق حيث اقترنت جميع فتوحاتها الحربية بالدعوة إليه، كما أخذت هذه الدول تعمل جاهدة على تطبيق الشريعة والقيم الإسلامية رغم استمرار العادات والتقاليد الوثنية حتى أصبحت الحياة السياسية والإدارية والثقافية وحتى الاقتصادية ذات سمّات وخصائص إسلامية متطورة.

---

(92) إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية في القارة الإفريقية، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1984، ص 240.

الفصــل التاســع

مملكــة سنغــاي الإسلاميــة

مملكـة سنغـاي الإسلاميــة

1468 ـ 1591

أولاً: الإسلام والتشكيلات السياسية

تمتد مملكة سنغاي على ضفتي نهر النيجر إلى الشمال من الداهومي عند مدينة داندي إلى جنوب فولتا العليا وشمال نيجيريا[1]، وتعتبر آخر ممالك السودان الغربي التي ازدهرت في المناطق الواقعة ما بين حوضي نهر السنغال ونهر النيجر وهي تشابه مملكتي غانا ومالي في استجابتها للإسلام ولمؤثرات الثقافة العربية الإسلامية الوافدة من الشمال الإفريقي والتي انتشرت انتشاراً واسعاً في تلك الجهات خلال قرون منذ أن توطد الإسلام في الشمال الإفريقي في القرن الثامن الميلادي وتولى المرابطين نشر الإسلام بهذه المملكة إبان توسعهم في السودان الغربي في القرن الحادي عشر الميلادي وبانتشاره توطدت دعائم الثقافة العربية الإسلامية ذات السمّات المغربية كما اتبع سكانها المذهب المالكي[2].

(1) لمزيد من المعلومات الجغرافية عن السنغاي راجع:
ـ إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية، ص 242.
ـ سنييكي موري سيوكو «الصنغى من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر» تاريخ إفريقيا العام، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ص 199 وما يليها.

(2) قمر الدين محمد فضل الله، «لمحة تاريخية عن مملكة سنغاي الإسلامية» مجلة =

وقد كانت السنغاي قبل انتشار الإسلام بها تدين بالديانة الوثنية منذ حوالي القرن السابع الميلادي عندما بدأت قبائل المنطقة الغربية الوثنية تحرر نفوذاً سياسياً على الزنوج من سنغاي الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة داندي واستطاع هؤلاء أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى دايا ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة 1325 م، وقد اتخذوا كوكيا عاصمة لهم بقيادة زعيمهم زا اليمن وهو أول ملك لها ثم خلفه أربعة عشر ملكاً[3].

ومما يؤسف له أننا لم نجد سوى القليل عن تاريخ صنغاي فيما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر، وما وصلنا هو عبارة عن ذكر الملوك وبعض أعمالهم وتكوين بذور مملكتهم وإسلام أول ملك وهو زاكاس[4].

وبإسلام زاكاس أخذت المملكة تخطو خطوتها الأولى نحو الإسلام ثم خلفه زاهن كزونك دم وتولى من بعده آخرون حتى جاء سنى الأول على كولن وبه علت أسرة جديدة الحكم وهي أسرة السنى التي أسسها في القرن الخامس عشر ويقال أن هذه الأسرة جاءت من كوكيا وطردت جماعات الماندنغ من جاو.

واستطاع بعض ملوك هذه الأسرة القيام بحملة غزوا بها يناني عاصمة إمبراطورية الماندانغ أي مالي وأعملوا فيها السلب والنهب وقد زادت الحروب من إمكانيات النشاط في المملكة وأصبح ملك جاو المسيطر على منطقة نهر النيجر[5]، وبما أن سنغاي مجاورة لمالي التي كان الماندانغ سادتها فقد حصل

= الدعوة الإسلامية، العدد الرابع، 1987، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ص 212.

(3) حسن عيسى عبد الظاهر، **الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا**، ص 112.
وانظر أيضاً: أحمد شبلي، ص 122.

(4) عبد الرحمن زكي، **تاريخ الدولة الإسلامية**، ص 135.

(5) سنييكي، ص 203.

احتكاك ومنافسة بينهما وكانت في كثير من الأحيان الغلبة لسنغاي ولكن دارت الأيام دورتها واستعادت مالي مكانتها وتطورت حتى أصبحت دولة عظيمة كما رأينا، غير أن الازدهار الذي حققته مملكة مالي في تلك الفترة سرعان ما تحول إلى تفكك وضعف نتيجة للصراع على السلطة، ولم يستطع السلطان منسى سليمان أن يتصدّى لمحاولات تمزيق مملكته فاستعادت السنغال بعض أراضيها من مالي واستقلت ولايته، ثم انتقلت زعامة السودان الغربي بعد وفاة منسى سليمان عام 1360 م تدريجياً إلى مملكة سنغاي[6].

ويعتبر علي كولون بن زاياس الذي اشتهر بالملك سني علي 1464 ـ 1492 المؤسس الحقيقي لمملكة سنغاي، وقد أطلق على نفسه لقب السنى تشبهاً بسنّة رسول الله ﷺ وهو الملك الثامن عشر في سلسلة ملوك سنغاي وفي عهده بدأت المملكة تدخل طور التوسع على حساب القبائل المجاورة[7]، ويذكر الوزان أن مملكة سنغاي عرفت أطوار القوة والضعف وتدهورت أوضاعها قبل أن يتولى أمرها سنى علي والاسيكو[8].

لقد قام الملك سنى علي حين تبوأ عرش سنغاي بدور هام في توطيد دعائم هذه الدولة، فقد خاض عدة حروب لغرض توسيع رقعة مملكته، وكان محارباً عظيماً صامداً أمام عدد كبير من الأعداء وشن حروب على الطوارق واستعاد تمبكتو في عام 1468 إذ سار إليها في اتجاه الجنوب وعبر النهر بالقوارب على الضفة اليسرى لنهر تمبكتو[9]، إذ يذكر الرواة إن زعماء المدينة

(6) قمر الدين فضلا الله، ص 216.

(7) محمد عبد الفتاح إبراهيم، **إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1961، ص 112.

(8) الحسن بن محمد الوزان، **وصف إفرقيا**، ج 1، ط 2، محمد الحجي، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1961، ص 662.

(9) نعيم قداح، **إفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام**، القاهرة، وزارة الثقافة، 1960، ص 662.

وعلمائها تركوها وأسرعوا بالهرب عبر الصحراء ولم يفكّ حصارها إلاّ في عام 1486[10].

وقد شكك الكثير من المؤرخين في صدق إسلامه واعتبروه تياراً مضاداً للإسلام على نقيض حلفاءه من آل أسيكا وعلى الأخص السلطان اسكيا محمد الكبير، وقد برر البعض الآخر من المؤرخين بأن سنى علي كان يعتقد بأن علماء تمبكتو يتصرفون وكأنهم يمثلون دولة داخل دولة، الأمر الذي حدا به أن يكسر شوكتهم حتى لا يتحرشوا بسلطته[11].

أما سياسته في الحكم فعلى غرار مملكة مالي أسس عدداً من الأقاليم وأسند زعماتها إلى ملوك يحملون لقب قاري اتارسا، كما عيّن قاضياً في تمبكتو، وكان جميع ولاة المملكة يتبعونه بصورة مباشرة، وبذلك أصبحت سنغاي دولة مركزية تشرف على جميع الأقاليم المجاورة ونهض في عهده الاقتصاد حيث شجع الزراعة وبنى بعض السدود بوادي النهر[16] أما عن وفاته فيقال بأنه أثناء عودته من إحدى الغزوات داهمه سيل جارف في الطريق فأهلكه وخلفه ابنه أبو بكر الذي رفض العلماء الإبقاء عليه في الحكم لضعفه واختاروا بدلاً منه وزيره محمد نوري الذي عرف فيما بعد بأسكيا محمد[17].

---

(10) محمد عبد الفتاح إبراهيم، ص 112.

(11) قمر الدين فضل الله، ص 217 وانظر أيضاً: أمين الطبى، **تاريخ المغرب والأندلس**، تونس.

(12) عبد الرحمن السعدي، ص 64.

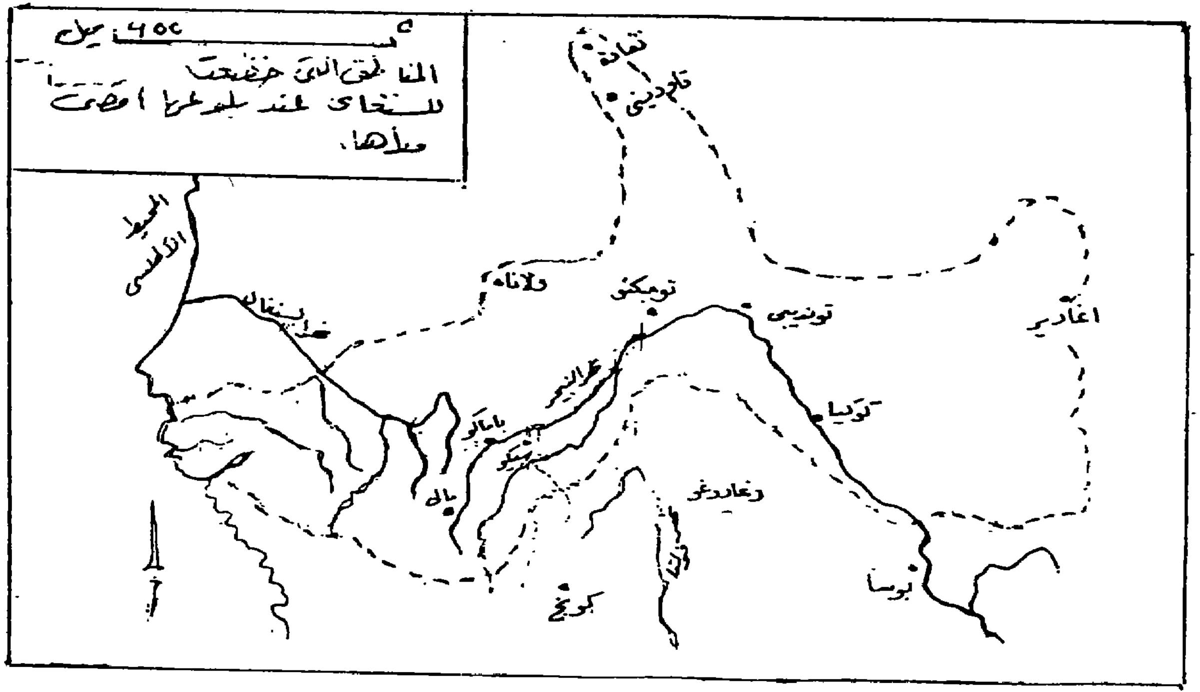
(13) محمد عبد الفتاح إبراهيم، ص 112.

(14) عبد القادر زباديه، **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين**، الجزائر، بدون تاريخ، ص 106.

(15) محمد عبد الفتاح إبراهيم، ص 113.

(16) سنيبكي، ص 205.

(17) انظر: عبد الرحمن زكي، ص 139، وحسن إبراهيم حسن، ص 113.



امبراطورية السونغاى

أسكيا محمد الكبير 1492 ـ 1528:

بعد وفاة السني علي عام 1492 كما ذكرنا، خلفه ابنه أبو بكر ولكن محمد أبي بكر نوري وهو من كبار قادة السني لما بلغه وفاة الملك أضمر في نفسه المُلك وتخيّل في ذلك أمور كثيرة وقد أيّده العلماء كما ذكرنا، فجمع جنوده وخاض معركتين ضد ابن السني وهزمه وأجبره على الفرار إلى قرية أنكع القريبة من جاو وبقي فيها إلى أن توفى في عام 1493 وبموته انتهت أسرة زا بعد أن حكمت سنغاي حوالي ثمانية قرون[18].

ويقال إن بنات السني علي عندما سمعن بانتصار نوري وتوليه العرش هتفن قائلات (إسكيا) ومعناه ليس هو فلما سمع ذلك أمر ألاّ يلقب إلاّ به فقالوا أسكيا محمد[19] ويقال بإنه من أصل سوتنكر من عشيرة نوري المنحدرة من التكرور وأن أصلهم من صنهاجة وملكوا بلاد السودان[20].

لقد عُرف أسكيا الكبير منذ توليه زمام الأمور في سنغاي بأنه كان عسكرياً وإدارياً مقتدراً، حيث قام باستجلاب الفقهاء والقضاة ورجال العلم وأحسن معاملتهم وقرّبهم إليه ونال احترامهم وتقديرهم ولقبوه بالإمام المنتصر والخليفة العادل والسلطان الظافر[21] وقد قام بعدّة أعمال وإنجازات أهمها التنظيمات الإدارية فرغم اتساع المملكة فقد قسّمها إلى ولايات وكلف كل ولاية بوالي

---

(18) لمزيد من المعلومات راجع: السعدي ص 71 وزكي ص 138.

(19) محمد عبد الفتاح إبراهيم ص 116.

(20) محمد مزين «المغرب وبلاد السودان خلال القرنين 16 ـ 17» المؤرخ العربي، العدد 4، بغداد 1982، ص 214، وانظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري الاستقصا لأخبار دور المغرب، جـ 5، الدار البيضاء، 1955، ص 103.

(21) قمر الدين فضل الله، ص 218.

معتمد من العاصمة وهذه الولايات هي كروما وهي غرب النيجر وبالاسا في الجنوب الغربي للعاصمة ودندي وهي تقع إلى الجنوب من العاصمة، وأخيراً ولاية بانجو حول بحيرة ديبو[22].

كما أوجد مناصب جديدة وخصّ بها المقربين إليه، منهم مفتش الضرائب والمشرف على الغابات وأيضاً على الشئون القبلية، كما اهتم بالجانب الاقتصادي حيث أقام مشاريع متعددة تعود على المملكة بالثروة والازدهار حيث حفر القنوات على شاطىء النيجر لزيادة الأراضي الزراعية وأوجد الأوزان والمكاييل الموحدّة[23].

كما نظم خزينة الدولة وجدد إيراداتها ومصروفاتها وقد ساعده في ذلك استيلاءه على مناجم تعازه حيث خلق ذلك نشاطاً تجارياً واسعاً وتمتعت البلاد برخاء عظيم وجذب إليها التجار من طرابلس وفاس وتلمسان، كما كثر بها العلماء والأطباء وردّ لتمبكتو مكانتها العلمية كمركز للدراسات والثقافة الإسلامية، وقد أشرف العالم الفقيه عبد الكريم المقيلي التلمساني على هذه الغاية[24].

وقد غلب الجهاد الإسلامي على توسّع مملكة سنغاي في عهده، فقد عرف أنه لم يخلد إلى الراحة بل كان يواصل الغزو والفتح من أجل التوسع والحفاظ على مملكته ولذلك زادت رقعتها عن رقعة إمبراطورية مالي وامتدت حدودها إلى المغرب الأقصى كما شملت شرقاً بلاد الهوسا واتصلت بأراضي سلطنة بورنو وجزء من الصحراء في الشمال ووصلت في الجنوب والشمال الغربي إلى بلاد التكرور وبذلك جاوزت حدود إمبراطورية مالي بحوالي سبعمائة

---

(22) بخصوص التنظيمات الإدارية انظر: عبد الرحمن زكي، ص 139 والسعدي ص 34 وزباديه، ص 34.

(23) قداح، ص 73.

(24) الطيبي، ص 310.

ميل[25] نشر خلالها الإسلام وأعلن الدين الإسلامي ديناً رسمياً للدولة وكان أهم حدث في حياته هو خروجه لآداء فريضة الحج عام 1497 م حيث حرص على أن يأخذ معه عدداً كبيراً من العلماء والأعيان ليظهر بذلك بمظهر الملك الصالح، بالإضافة إلى جملة من الدواب التي تحمل الأمتعة والذهب، وكان خلال مروره في كل بلدة ينفق بسخاء حيث قيل إنه أنفق خلال هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب[26]، كما اشترى أرضاً وبنى عليها مآوي يأوي إليها حجيج بلاد السودان الغربي. وأثناء عودته استقبل في القاهرة استقبالاً رسمياً حافلاً، أما في مكة فقد قلّده شريفها برادة وعمامة وسيف وأقام على شرفه حفلاً خاصاً[27]، كما تسلّم خلال هذه الرحلة من آخر أمراء العباسيين لقب الخليفة الأول على بلاد التكرور أو السودان الغربي[28].

كما قابل الإمام شيخ الحفاظ جلال الدين السيوطي وأخذ عنه الكثير في العقائد الإسلامية وسمع منه جملة من آداب الشريعة وأحكامها وانتقع بوصاياه ومواعظه[29]. وعند عودته إلى جاو تأثر بما رآه في مصر من نظم وإدارة وثقافة وعمل على تطبيقه في مملكته فشّجع الطلبة على تحصيل العلوم الإسلامية وقرّب إليه العلماء واتخذ خزائن للكتب، وفي عودته ازدهرت مدينة جاو كمركز للثقافة

---

(25) أوليفر، رولانافيج، **موجز تاريخ إفريقيا**، ت دولت صادق، القاهرة، الدار المصرية للتأليف، 1965، ص 100.

(26) السعدي، ص 76، انظر أيضاً: محمود كعت التبكتي، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، نشر هوداس وتلميذه نبوه، باريس، 1964، ص 19.

(27) محمود خيري عيسى، **العلاقات العربية الإفريقية**، جـ 6 القاهرة، دار الطباعة الحديثة، 1977، ص 74.

(28) ابن أسير، **إفريقيا والعرب**، دار الحقائق، 1980، ص 22.

(29) رفيق الخشاب، إبراهيم الشهداني، **إفريقيا، جنوب الصحراء**، بغداد المكتبة الوطنية 1978، ص 27 و 40، وانظر أيضاً الطيبي، ص 310.

العربية في غرب إفريقيا وخاصة بعد إقامة جامع سنكرى الذي يشبه في وجوه كثيرة الجامع الأزهر في مكانته العلمية.

وقد حاول بعض المؤرخين الأوربين المتحاملين على الإسلام والذين أرادوا أن يواصلوا الحرب الصليبية بكتاباتهم المتعصبة أن ينالوا من حركة الجهاد التي تبناها أسكيا الكبير وغيره من المجاهدين الأفارقة ووصفوا انتشار الإسلام في هذه المرحلة بأنه بني على الإكراه والقسوة واستعمال السيف، ويبدو أن هؤلاء قد نسوا أن حروب الجهاد ضد الوثنيين جاءت من منطلق الغلبة السياسية للمسلمين في السودان الغربي وفي نطاق الدفاع عن النفس ومما يؤكد ذلك مشاركة الوثنيين الجماعات الإسلامية الوطن الواحد وقتاً طويلاً في روح من التسامح الديني[30].

أما نهاية أسكيا محمد فمنذ عام 1517 بلغ به الكبر مبلغه فتوقفت فتوحاته وبدأ التنافس بين أبناءه ولم يعهد بالولاية لأحد منهم عند وفاته، وكان ابنه موسى يسعى للوصول إلى الحكم بالقوة مع جماعة من أنصاره وأجبر أخاه على التنازل عن الحكم لصالحه في عام 1528 وقد بادله أخوه العداء فقضى فترة حكمه في نزاع مع أفراد عائلته، ولم ينجز شيئاً يستحق الذكر لصالح المملكة واستمر في الحكم حتى اغتيل وتخلصوا من طغيانه، وقد خلفه أسكيا محمد الثاني الذي حكم من عام 1531 ـ 1537 حيث بايعه سكان مدينة منصور في إقليم جنى بعد مقتل موسى مباشرة واستطاع أن يقضي على الصعاب خلال فترة حكمه وكان يحب مظاهر الفخامة وقد توفى هو الآخر مقتولاً من طرف أخيه إسماعيل[31] الذي حكم لمدة عامين واشتهر بشجاعته وقد قاد حملة ضد الوثنيين في الجنوب الغربي من المملكة، وقد انتشر في عهده مرض الطاعون الذي فتك بأعداد كبيرة وقد توفى وهو يقاتل الوثنيين، وبعد وفاته عام 1539

---

(30) قمر الدين فضل الله، ص 319.

(31) عبد الرحمن زكي، ص 144.

عاد الجيش إلى جاو ليختار ملكاً يخلفه ووقع الاختيار على أسكيا إسحاق الأول 1539 ـ 1549[32]، ويعتبر إسحاق الأول أحد أهم الملوك الذين حكموا سنغاي في عهد الأسكيين حيث استطاع إعادة الأمن إلى نصابه، كما قام بعدة فتوحات في أملاك مالي، وكتب إليه السلطان السعدي أحمد الأعرج يطلب منه تسليم تغازة للمغرب وكان ذلك في عام 1546 فأجابه: «لست إسحاق الذي يلبي طلبك، انتظر حتى يولد إسحاق آخر»[33]، وأرسل حملة لغزو المغرب الجنوبية ولكنه توفي عام 1549.

ومن ملوك سنغاي المشهورين اسكيا داوود (1549 ـ 1582) الذي يعتبر من أبرز الملوك وقد اشتهر بحنكته السياسية وطول فترة حكمه وهو يلي أسكيا محمد الكبير في حسن الإدارة وبُعد النظر وتحديد دماء الدولة ونجح إلى حد كبير في دعم سلطات الدولة الداخلية إذ لم تحدث أية ثورة ضده طيلة حكمه الطويل، كما إنه لم يتوقف عن الحرب سنة واحدة، وقد رأى منذ البداية مسالمة المغرب وكان السبب في ذلك معرفته بأهداف المغاربة وعدم قدرة جيشه على محاربتهم ونجح في احتواء الأزمة التي افتعلها السلطان المراكشي الشريف محمد القائم والتي كادت أن تؤدي إلى حرب بين سنغاي ومراكشي، وذلك بعد إن قام الأخير بالاستيلاء على مناجم الملح في تغازه عنوة، غير أن أسكيا داوود والسلطان المراكشي الجديد أحمد المنصور السعدي اصطلحا على أساس أن تدفع مراكش لسنغاي عشرة آلاف أوقية من الذهب نظير استئجار مناجم تغازه في العام[34]، وبعد وفاة أسكيا داوود تولى الحكم ابنه اسكيا محمد الثاني 1582 ـ 1586 وحدث في عهده أن جاءت بعثة مغربية تحمل هدية خاصة من السلطان أحمد منصور وكان الغرض منها التجسس على أحوال مملكة سنغاي واستقبلها

---

(32) عبد القادر زباديه، ص 43.

(33) السعدي، ص 99.

(34) قمر الدين فضل الله، ص 221.

أسكيا محمد بكل ترحاب وأرسل معهم هدية للسلطان السعدي، وفي آخر عهده أرسل السلطان حملة تتكون من مائتي فارس فقط احتلت مناجم تغازة ولكنهم تركوها بعد قليل.

تصاعدت الأحداث وبلغت ذروتها في عهد أسكيا إسحاق الثاني 86 ـ 1591 الذي حكم سنغاي وهي في غاية الضعف لا لفقرها وقلة مواردها وسكانها بل لأنها منذ وفاة مؤسسها لم يستقر فيها نظام ولم يعمل أحد على تقويتها كما أنهكتها الحروب، وعند توليته الحكم ثار عليه حاكم تمبكتو وقضى إسحاق سنة كاملة في محاربة هذا الثائر، وقد واكب ذلك أن أصيبت المملكة بآفات خلقية مستعصية جعلتها لقمة سائغة للتوسع المراكشي وفي هذا الصدد يقول السعدي عن أهل سنغاي: «. . . إنهم بدلوا نعمة الله كفراً وما تركوا شيئاً من معاصي الله تعالى إلا ارتكبوها جهراً»[35].

سنغاي والمغرب:

إن العلاقات بين الدولتين علاقات قديمة نظراً للتقارب الموجود بينهما ورغم المساحة الصحراوية التي تفصلهما إلا أن هذه الصحراء كانت تمثل عاملاً قوياً من عوامل الاتصال الحضاري ـ السياسي ـ الثقافي ـ التجاري، وقد زادت هذه العوامل قوة وتماسكاً بعد انتشار الإسلام في تلك الربوع السودانية وبالتالي ازدادت قوة الاتصال التي كانت مستمرة بينهما طوال العصور الوسطى، ونظراً لهذا التقارب الموجود بين حدود المغرب الجنوبية وبين كثير من الممالك السودانية مثل مالي وسنغاي وغيرهما فقد حدث اتصال وتبادل في مجالات شتّى ففيما يخص تبادل السلع كانت القوافل التجارية مستمرة بين مالي وتمبكتو وجاو وبين سجلماسة وتارودانت عبر الطريقين الساحلي والأوسط.

ويمكن القول إن العلاقات المغربية السودانية لم تخرج في البداية عن

---

(35) السعدي، ص 44.

كونها علاقات تبادل تجاري وفكري أكثر من أن تكون لها علاقة بالسياسة، ولكن مع ظهور السعديين وقيام دولتهم تغيرت وأخذت مساراً سياسياً بين الدولتين، وقد بدأ اهتمام السعديين بالسودان منذ عهد القائم بأمر الله غير أنه في الحقيقة لم يهتم بها بطريقة رسمية إلا أحمد المنصور الذي تدخل في عام 1526 وكاتب أسكيا إسحاق الأول في أمر تسليم معادن تغازه وفي عام 1544 أرسل محمد الشيخ سلطان المغرب إلى إسحاق أيضاً بشأن التنازل عن المعدن فكان الرفض من نصيبه هو الآخر، وأكثر من هذا أرسل الملك السوداني الفين من الطوارق وأمرهم أن يغيروا على المغرب[36]، وكان ردّ الفعل المغربي إرسال حملة عسكرية عام 1557 قوامها حوالي ألف وثمانمائة فارس للغارة على تغازه فتم قتل حاكمها وعدد كبير من الطوارق الذين أمسكوا بهم حاملين الملح على جمالهم[37].

وكانت عملية توسع أحمد منصور في السودان مرتبطة بعدم تمكنه من التوسع شرقاً نظراً لوجود الجزائريين، وربما كان السبب في ذلك هو الاستيلاء على معدن الذهب أهم صادرات السودان، وربما كان الهدف من ذلك هو نشر الإسلام في المناطق التي لم يصل إليها حتى هذه المرحلة، وقد اهتم المنصور بجنوب المغرب حيث بدأ خلافه مع مملكة سنغاي حول واحة تغازه التي كان المغاربة يحصلون منها على الملح لكي يدعو للسودانيين ثمن الذهب. وانتهز المنصور هذا الخلاف وأرسل حملة للسيطرة على هذا الإقليم رغم أن التجار نصحوه بعدم استخدام القوة، إلا أنه خالف النصيحة وأرسل حملة عسكرية تتألف من عشرين ألف جندي، كما ضمّت هذه الحملة عدداً من الإسبان الأسرى، واهتم بتجهيز الجيش وآلة الحرب وأمر القواد بأن يقوموا بمراسلة القبائل ليمدهم بما يحتاجون إليه من إبل وخيل وبغال ومدافع وعجلات لحمل

(36) محمد مزين، ص 44.
(37) الناصري، ص 117 وانظر أيضاً، السعدي ص 135.

البارود والرصاص كما جهّز السفن والمجاذيف، واستمر بتجهيز هذا الجيش ثلاث سنوات إذ خرج يوم الحادي عشر من ذي الحجة عام 998 (1590 م) وأعطيت قيادته للباشا جؤذر وهو شاب إسباني النشأة من غرناطة وقع في أسر المغاربة وهو صغير وتربى في قصر الملك وامتاز بحسن الإدارة والتنظيم(38).

وبدأت الحملة سيرها نحو جبال أطلس إلى الجنوب واستأنفت المسير في الصحراء حتى وصلت إلى تارابار على نهر النيجر ومنه إلى جاو، وأدر أسكيا إسحاق الثاني نوايا المنصور فسحب قواته من غربي جاو، كما أرسل إلى الزعماء في الصحراء أمرهم بردم الآبار حتى لا يستفيد منها جيش المغرب، ولكن الرسل الذين أرسلهم قبض عليهم بعض قطاع الطرق في الصحراء، وبعد استراحة قصيرة لجنود جؤذر استأنف السير إلى جاو وهاجموا في الطريق بعض الطوارق وأرسل إلى أسكيا يطلب منه التسليم لإنقاذ البلاد من الدمار ولكنه رفض(39).

وفي يوم 22 نوفمبر 1599 التقى الجيشان حيث قدرت قوات أسكيا بثلاثين ألف من المشاة وألف وخمسمائة من الخيالة، ولكن أسلحته كانت بدائية مقارنة بأسلحة المغاربة التي تتكون من المدافع والبارود ولذلك سرعان ما مزقتهم هذه الأسلحة فولوا الأدبار وحكمت رقابهم سيوف جند جؤذر، وفي هذا الصدد يقول الناصري: «كان السودانيون ينادون نحن مسلمين، نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم، وفرّ أسكيا إسحاق مع مجموعة من قومه وتقدم جؤذر فدخل قلعة الملك واستولى على ما فيها من الأموال والمتاع، وكتب إلى المنصورة يخبره بالنصر وبعث إليه الهدية التي فيها عشرة آلاف مثقال ذهب ومئتان من خيار الرقيق»(40).

---

(38) حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، القاهرة، المطبعة الفنية الزهراء 1987، ص 104.

(39) مزين، ص 222.

(40) الناصري، ص 133.

وبعد ذلك أرسل إسحاق من الغابات التي التجأ إليها يطلب فتح باب المفاوضات مع جؤذر وعرض عليه الصلح مقابل مبلغاً كبيراً من الذهب يعطى للمنصور الذي لقب بالذهبي، على أن يعود الجيش إلى المغرب، وعرض أمر هذا الصلح على المنصور غير أنه لم يوافق على شروط الصلح وأمر بعزل جؤذر من القيادة وأرسل محمد بن زرقون باش مع ثمانين رجلاً وطلب منهم طرد أسكيا إسحاق من السودان والقضاء عليه، كما أمر بعودة جؤذر إلى البلاد، ووصل ابن زرقون إلى تمبكتو بعد سبعة أسابيع وتسلم قيادة القوات، وأول عمل قام به هو صناعة القوارب، في هذا الصدد يورد السعدي أنه «أمر بقطع الأشجار الكبيرة في داخل تمبكتو وبخرط الألواح ونصبوا الدفوف الغليظة وأبواب الدور وركبوا منها قاربان وأنزلوهما في النهر بعد سبعة أيام»(41). ثم ترك حاميه في تمبكتو واتجه إلى الجنوب باحثاً عن أسكيا إسحاق والتقى الجيشان وتمّ الصنر لابن زرقون الذي رأى بعد هذه الأحداث أنه لا يمكن الاستيلاء على سنغاي من الناحية العسكر .ة، لذلك عيّن من قبله أسكيا آخر ليحكم نائباً عن المنصور، غير أن رجلاً ظهر في [illegible] سنغاي لم يعترف بسيادة المنصور وأتباعه وهو نوح الذي أصبح ملكاً بعد اختياره على بلاده واستطاع أن يبث الروح الوطنية في صدور أبناء بلاده وكوّن جيشاً مدرباً على حرب العصابات حيث استفاد من طبيعة البلاد وعزم على شنّ حرب إبادة، واستطاع خلال أربع سنوات أن يكبد المغاربة خسارة فادحة وقاسى الجيش المغربي خلال هذه الفترة الأهوال بسبب صعوبة الإمدادات(42).

وكان نصر الجيش المغربي في معركة نتوبي التي ذكرناها سابقاً إيذاناً بتفكك الروابط بين ممالك سنغاي وقبائلها التي خضعت لحكومة مركزية فترة

---

(41) السعدي، ص 139.

(42) جلال يحيى، المغرب الكبير في العصور الحديثة، جـ 3، الإسكندرية الدار القومية للطباعة 1966، ص 45.

طويلة فسادت الفوضى وانتشرت أعمال النهب والسلب وانتهزت بعض القبائل هذه الفوضى فاعتدت بعضها على بعض.

وعلى أية حال فقد أساء حكام المغرب إلى شعب صنغاي، ونتيجة لذلك آل الحكم إلى القبائل وانتشرت المجاعة التي دامت خمس سنوات، وفي عام 1637 خرجت آخر فلول الجيش المغربي من تمبكتو بعد أن قضى على إمبراطورية سنغاي، وذلك لعدم مقدرتهم على مد نفوذهم إلى البلاد والسيطرة عليها فكانت نهاية سنغاي على أيديهم بعد أن خسروا عدة آلاف من خيرة جنودهم، وأصبحت تحكمها القبائل بعد أن كانت مملكة تحكمها القوانين.

ثانياً: الجوانب الحضارية

1 ـ التنظيم السياسي والإداري:

أ ـ الجوانب السياسية:

تتميز سنغاي بتنظيم سياسي وإداري رائع التركيب والمتميز بالسلطة المركزية المنظمة والملكية المطلقة وهو النظام الذي وضعه أسكيا محمد والذي يهدف إلى خلق وحدة قوية من الأجزاء المختلفة للملك، وكان النظام الملكي هو القائم في جاو على أساس الشريعة الإسلامية وكان الحكم وراثياً في الابن الأكبر كما هو الحال في الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت، وأحياناً يضطر أحد المغتصبين لتغيير هذه القاعدة غير أن الأمر يعود إلى ما كان عليه بعد وفاته، وكان الملك له سلطة شبه مقدسة وكان موضع توقير وتقدير، وكان يقيم في جاو ويتخذ لنفسه حرساً خاصاً يختاره من أقرب المقربين إليه من الأقارب والضباط وقد وزع أسكيا محمد في أيامه هذه المهمة على أولاده[43] وقسّم الحرس إلى

(43) سينسكي، ص 208 وقادخ ص 113.

فرق، فمنهم من يقف لاستقبال الوفود وحراسة القصر، وفرقة ترافقه حيث ينتقل من مكان إلى آخر، ومنهم الضاربين على الطبل في المناسبات كما أن للملك مجلس شبيهة بالمنصة يحيط به الحراس.

ونجد البعض يطلق على هذه المملكة خلافة على غرار الخلافة الإسلامية في تلك الفترة خاصة بعد ذهاب أسكيا محمد لآداء فريضة الحج عام 1494 حيث يذكر أن الخليفة العباسي آنذاك قد عينه لدى عودته إلى بلاده كوكيل عام على كل إفريقيا[44]، كما يذكر أن شريف مكة أعطاه خلافة بلاد التكرور أي السودان الغربي، وأنه قد قلّده بردة وعمامة وسيفاً كما تسلم من آخر الأمراء العباسيين لقب الخليفة الأول على بلاد التكرور[45]، ويذكر الناصري في كتابه الاستقصاء أن أسكيا محمد قابل في مصر الخليفة العباسي إذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائماً بها، فلما اجتمع الحاج أسكيا محمد بالخليفة طلب منه أن يأذن له في إمارة بلاد السودان وأن يكون خليفته هناك ففوضه الخليفة العباسي النظر في أمر ذلك الإقليم وجعله نائباً على من وراءه من المسلمين[46]، وفي عهده قسّمت البلاد إلى مقاطعات ووضع لكل مقاطعة والي وكان هذا الوالي هو الحاكم المدني والعسكري في إقليمه الذي يتولاه.

ووجدت وظائف دائمة حول الملك منها الكيمى أي مدير البناء وبوبي كوبي أي رئيس السوق والكوارباباندامو وزير الأملاك الحكومية، كما وجدت وظيفة نائب الملك ويعرف كانغاري التي أوجدها أسكيا محمد وأعطاها لأخيه عمر مزياغ[47] كما أن هناك منصب وزير الماء ورئيس الأسطول ويطلق عليه لاراي فاما وزير الغابات ساوفارما ثم أخيراً ناري مونديو أي وزير الزراعة

---

(44) عبد الرحمن زكي ص 140.

(45) أمين الطيبي، 310، ومحمد عيسى خيري، ص 74.

(46) الناصري، ص 103.

(47) زيادية، ص 57 وما يليها.

والأوقاف، أما الولاة فأغلبهم من أبناء المناطق التي يعملون فيها ويراعى في تعيينهم سمعتهم وإخلاصهم للملك والبعض يعينهم الاسكيا في أي وقت، وكان هؤلاء الولاة يخضعون لفترة محدودة يمارسون فيها كافة السلطات ما عدا السلطة القضائية وكانوا يحملون لقب فارما أو فاريا، وأهم واجبات الوالي جمع الضرائب وتقديمها للملك وكانت تدفع سنوياً بالإضافة إلى الهدايا في المناسبات والأعياد وعند مرور موكب الملك بالمنطقة، وكانت المملكة تنقسم إلى إقليمين كبيرين هما كومينا في الغرب ودندي في الجنوب الشرقي، ويتولى أمره أحد أمراء الأسرة المالكة وفي أغلب الأحيان كانت تسند مهامه إلى ولي العهد، وكان حاكم كورمينا يدير كافة إقليم غرب تمبكتو، أما إقليم دندي فكان الحاكم يشرف على الجنوب الشرقي من المملكة، وكانت مهامه في الغالب تسند لأحد كبار موظفي الديوان، بالإضافة إلى الإدارة الغير مباشرة للبلدان التابعة والخاضعة منها مالي ودولتي الهوسا وكانوا واتحاد الطوارق، وكان حكامها يعينون من قبل الاسكيا وعليهم دفع الجزية بانتظام ويقدمون فصائل الجيش إذا طلب الملك ذلك[48]، وبفضل هذا النظام تمكنت مملكة سنغاي من السيطرة على كافة المنطقة المعروفة بغاو (GAO)، وفي نفس الفترة التي ظهرت فيها إمبراطوريتي غانا ومالي حيث نجحت في السيطرة على كل مناطقها، كما أنها أضافت إليها مناطق جديدة بداية من المحيط الأطلسي غرباً إلى بلاد حوصا في نيجيريا الحالية وبذلك تعتبر أوسع إمبراطورية قامت في غرب إفريقيا قبل الاحتلال الأوربي[49].

ب ـ الجيـــش:

كانت سنغاي بفضل ما تمتلكه من موارد وإمكانيات مادية قد تمكنت من إعداد قوة وجيش مسلح دائم وقادر على حمايتها وتحقيق استقلالها وفرض إرادة

(48) سنيسكي ص 209.
(49) محمود شاكر، مالي، دمشق، المكتب الإسلامي، 1977، ص 48.

الملك وكان هذا الجيش يتمتع بمكانة مرموقة لاعتماد الملوك الكلي عليه في فتوحاتهم وحماية عروشهم، وقد بدأ نظام التجنيد الإجباري في عهد السني علي، ودخل الجيش في عهد أسكيا محمد في دور التنظيم حيث وضع لكل فرقة نظامها الخاص، كما حددت الأدوار الخاصة بكل فرقة في الحرب، منهم المشاة والفرسان والخيالة والمساعدون وكان القائد العام للجيش هو الملك، وقد قسّم الجيش إلى فصائل وجعل الأشراف على فصائله في الأقاليم تحت سلطة لواءه، كما أن طبقة العبيد كان لها دور هام فيه[50].

لقد تطور الجيش بما يناسب اتساع المملكة وتقدمها، ويقال أيضاً أنه اعتمد على المرتزقة وبعض القادة منهم، وقد توصل بعضهم إلى مناصب عالية جداً بفضل مؤهلاتهم، وكانت أقسام هذا الجيش هي الخيالة التي كانت غالية الثمن بالإضافة إلى الحربة، وفرقة الفرسان وتتكون أسلحتهم من الدروع الحديدية بالإضافة إلى الرماح والتروس وهي من صنع محلي.

أما فرقة المشاة فإنها تشكل قسماً كبيراً من الجيش ويحملون القوس، وقد عرف عن هذه الفرقة شجاعة أفرادها، فمنهم الفدائيون وكتائب الاستطلاع، أما أسلحتهم في الحراب والسهام وأيضاً الفؤوس الحادة أحياناً، كما أن الحرس الملكي موجود بصفة دائمة في جيش سنغاي أثناء المعارك، وأهم عمل تقوم به هذه الفرقة حراسة الملك والحاشية والضرب على الطبول والنفخ في الأبواق أثناء مسيرة الجيش.

أما الأسطول، فقد كانت سنغاي تمتلك قوة بحرية على النيجر وخاصة في جاو وتمبكتو، كما أنها كانت أسطولاً حربياً لحمل الجنود عندما ينتقلون من مكان لآخر على أطراف النهر وقد بلغ عدد قوارب الأسطول ألفي قارب[51].

---

(50) سينسكي، ص 212.

(51) دنيس يولم، **الحضارة الإفريقية**، ت أ. شاهين، بيروت، دار الحياة، ص 110، وانظر =

كما استخدم الجواسيس لمعرفة مدى قوة العدو ومسالك أرضه، وإجمالاً كان جيش سنغاي نظامياً من حيث القيادة والتدريب والتوزيع، غير أن الأسلحة كانت قديمة والدليل على ذلك أنها لم تجد نفعاً أمام الأسلحة النارية التي لم يعرفونها من قبل والتي استعملها المغاربة أثناء غزوهم لهم.

جـ ـ القضـــــاء:

كان تعيين القضاة من حق الملك وكان الاسكيا هو أمير المسلمين يفوض قاضيان الأول يخضع للأحكام الإسلامية المستمدة من المذهب المالكي وكانت له الكلمة القاطعة ورأيه الأعلى، وكان القضاة لا يقبلون تولي هذا المنصب بسهولة فقد كانوا يرفضون بشدة ولكنهم تحت إلحاح وضغوط الملك واستعماله للقوة التي يلجأ إليها في بعض الأحيان فإنهم يقبلون الأمر على مضض، ويساعد القاضي الحاجب والكتبة والموثقون[52] وينظر القاضي في الأمور التي تتصل بالجماهير كالحالات الجنائية والتجارية وأيضاً الأحوال المدنية والأخلاقية، ويتولى الإشراف على أموال اليتامى وتقسيم التركات وتوثيق العقود الخاصة، ويلاحظ أنه كانت هناك صلاحيات واسعة للقضاة الذين تميزوا واشتهروا بمثاليتهم في الاستقامة وأداء واجبهم ولهم منزلة وحرمة لا يجوز للسلطة الوصول إليها.

أما القاضي الثاني فيختص بالجزء الأكبر من المملكة ويراعي في حكمه تقاليد كل منطقة.

2 ـ الحيـاة الاقتصاديـة:

تمكنت سنغاي بفضل موقعها الجغرافي من السيطرة على الطرق التجارية إذ كانت تقع على نهر النيجر الذي يخترقها من الغرب إلى الشرق والذي تميّز

= أيضاً شارك اندرينه جوليان، تاريخ إفريقيا، ت عوض أباظاه، القاهرة، دار النهضة، 1986، ص 84.

(52) زيادية، ص 74.

بخصوبته الدائمة، وأهم مواردها الاقتصادية هي:

أ ـ الزراعة والمواشي:

لقد تنوعت المزروعات في سنغاي وكانت مورداً أساسياً للسكان الذين استعملوا الأسمدة التي اتخذوها من فضلات الحيوانات وأحسنوا الري بحفر الترع بالنيجر الأوسط[53] وقد تنوعت المزروعات ومن بينها الحبوب، وكان الأرز من المحصولات الرئيسية وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة إذ قال: «إن مدينة كوكو مدينة كبيرة على نهر النيجر، ومن أحسن المدن بها الكثير من الأرز»، كما وجد الدخان والشعير الذي كان يزرع في المناطق الشمالية، والقمح وهو قليل بالإضافة إلى زراعة البقوليات، كما تتوفر الفواكه والخضر ومنها البطيخ والقرع بالإضافة إلى القطن ويزرع في المناطق المحيطة بالنيجر كذلك الكتان وقصب السكر والكروم والتين.

كما اعتنوا بالحيوانات فاستفادوا منها الصوف والجلود، وكانت الأبقار والماعز تربى في الأطراف الساحلية، وكانت هذه المواشي تشكل مورداً هاماً للألبان واللحوم وخاصة لسكان المدن، كما مارسوا صيد الأسماك النهرية بكثرة وكانت طريقتهم في ذلك بداية[54].

ب ـ الصناعـــة:

اعتمد السنغاليون في صناعتهم على الزراعة والثروة الحيوانية، ولكنها كانت صناعة بسيطة كما وجدت الصناعات الحرفية وخصصت لها دكاكين خاصة، إذ يذكر الوزان أن هذه الدكاكين منتشرة بكثرة في المدن وحتى في القرى[55] وقد تنوعت الصناعة بتنوع المواد الأولية والمعادن منها كالذهب

(53) جوليان، ص 85.

(54) سنيسكي، 218 وزيادية، ص 246.

(55) الوزان، جـ 1، ص 246.

المتوفر بكثرة في الأسواق بالإضافة إلى النحاس، كما وجد الحديد الذي قامت عليه صناعات كثيرة بالإضافة إلى صناعة الأقمشة والمجوهرات التي تعتمد على الذهب والنحاس، كذلك صناعة الفخار التي كانت مزدهرة ازدهاراً كبيراً أيام الأسكيين، وهذه الصناعات كلها تكاد لا تزيد عن الحاجة المحلية.

جـ التجـــــارة:

تعتبر التجارة من أهم الموارد التي اعتمدت عليها المملكة التي سيطرت كما أشرنا على الطرق الرئيسية التي تمر بها هذه التجارة عبر الصحراء الكبرى، وقد كانت هناك تجارة داخلية متمثلة في الأسواق المحلية التي يرتادها الناس في المحلات القريبة منهم، كما توجد بعض الدكاكين البسيطة وكانت أغلب البضائع تباع في العراء، ولكن إضافة إلى ذلك كانت توجد الأسواق الكبيرة وأغلبها يقع في شمال البلاد وكانت تجري عن طريقها حركة الاستيراد والتصدير، وكانت توجد في تمبكتو وحاو ولاتا وكوكو، أما الأسعار فإنها تختلف من وقت لآخر خاصة أسعار الرقيق الذين كانت تختلف أسعارهم حسب ظروف السوق، وإجمالاً فقد تحكمت الدولة في الأسعار واستطاعت أن تسيطر على مناجم الملح وأن تحدد أسعاره التي جنت منها أرباحاً طائلة[56] ويذكر حوقل أن الممالك الإسلامية في السودان الغربي كانت حاجتهم إلى الملح ملحة لأنها لا قوام لهم إلاّ به، وربما بلغ حمل الملح في دواخل السودان أو أقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار[57].

كما اشتهرت المملكة بتجارة الخيول التي تعتبر أرفع شيء في السودان ولذلك لا يستطيع شراؤها إلاّ الأغنياء من الناس.

(56) KAKE (P) MEMOIRE DE L'AFRIQUE, P. 4.

(57) ابن حوقل، ص 98.

أما الاستيراد فكانوا يجلبون الحبوب من الخارج مثل القمح والزبيب والتمور وبعض الفواكه المجففة، والأقشمة التي كانت تأتي من المغرب ومصر ومن أوروبا عن طريق المغرب، كذلك كانت تستورد السيوف.

أما بالنسبة للعملة فيذكر الوران أن سنغاي أثناء مروره بها كان الناس يتعاملون بالذهب دون سكه[58] بينما يذكر البكري أنه في أسواق تاومكة يتعامل الناس بالدراهم الصلع[59] أي غير المكتوب عليها، بينما يذكر زباديه أنه وجد في صفريات جاو كثير من الدراهم والدنانير الفاطمية والمغربية والمملوكية مما يدل على أنها طريق تجاري وردت على سنغاي عملات أخرى واستعملت في أسواقها[60]، وبالإضافة إلى الذهب استخدم النحاس في المعاملات المالية، كما وجد نظام المقاضية بشكل واسع، ولأهمية الملح القصوى في حياة أهل السودان صار عملة شرائية، وقد كانت مواردهم منه لا تكفي الاستهلاك المحلي ومن ثم ازدادت رغبتهم في ملح الشمال الإفريقي الذي أصبح السلعة الرئيسية التي يجلبها لهم التجار العرب إلى جانب الأشياء الأخرى، ويقول عنه ابن بطوطة: «المسافر إلى هذه البلاد لا يحمل زاداً ولا ماء ولا ديناراً وإنما يحمل قطع الملح والزجاج فيشتري من تلك البلاد ما يطلبه مقابل ذلك[61]، والمقايضة المنظمة لعبت دوراً هاماً في النشاط التجاري، وكفالة رؤوس الأموال في جنى وتمبكتو كان هو السبب الآخر في رواج التجارة، وفي الحقيقة فإن السودان الغربي منذ القدم اتصل بسكان الشمال الإفريقي عبر الصحراء وكان أساس هذا الاتصال التجارة وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية، وكانت هذه التجارة تتم عن طريق القوافل مخترقة لعدة منافذ، وأشهر هذه الطرق الطريق الممتد من

---

(58) الوزان، ص 130.

(59) البكري، ص 184.

(60) زبادية، ص 207.

(61) ابن بطوطة، **تحفة الانتظار**، ص 443.

تغازي إلى تمبكتو والمعروف بطريق الذهب، وكذلك الطريق من طرابلس الغرب عبر فزان وينتهي عند كانم، والطريق الذي يبدأ من تواني الجزائرية إلى كوكو في أواسط النيجر وأخيراً الطريق الذي يأتي من المغرب الأقصى محاذياً ساحل الأطلسي إلى بلاد تكرور.

وإجمالاً نستطيع القول إن التجارة كانت تسهم في اقتصاد المملكة وكانت تدرّ الرخاء والثراء عليها وقد ساعد على نجاحها توفر الأمن الذي نعمت به في عهودها الأولى كذلك علاقاتها الخارجية الواسعة.

3 ـ الأوضــاع الاجتماعيــة:

كان المجتمع في سنغاي سواء في المدينة أو القرية يتميز بأهمية الروابط الأسرية وكانت الأسرة هي العنصر الأساسي لهذا المجتمع، الذي ورث الكثير من العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في مملكة مالي الإسلامية التي تشبهت بالعرب المغاربة في زيها وفنها المعماري[62]، وكان المجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات الأولى طبقة العائلة المالكة الارستقراطية وهم النبلاء والقواد وولاة الأقاليم وحاشية الملك واختصّت هذه الطبقة بالوظائف الكبرى وعددها قليل ولكنها تملك وتتحكم في الثروة وتعيش في ترف، وقد ملكت هذه الطبقة من الامتيازات ما يجعل القوانين لا تطبق على أفرادها كما تطبق على بقية الناس. أما الثانية فهي الطبقة الوسطى والتي لم تكن تشكل نسبة مرتفعة وهي تضم القضاة والأئمة وهؤلاء موظفين بالإضافة إلى المدرسين ويتقاضون من خزينة السلطان رواتب معينة وهم لا يملكون ملكيات واسعة مثل التي اختصت بها الطبقة الأولى، بالإضافة إلى التجار وكان أغلبهم من الأجانب، وكانت التقاليد الملكية تقتضي احترامهم ومعاملتهم كأفراد البلاد وذلك لكونهم مسلمين، أما وضعهم القانون فهم ضمن الطبقة الوسطى، أما الطبقة الثالثة فهم العبيد والخدم

(62) قمر الدين فضل الله، ص 120.

ويقومون بالأعمال في الأسواق والمنازل والحقول لحساب غيرهم وعددهم يفوق نصف عدد السكان نتيجة الفتح والتوسع الذي شهدته المملكة خاصة في عهد السنى علي وأسكيا محمد وكان دورهم السياسي والعسكري ثانوي جداً.

وفي الأعياد والمناسبات مثل يوم تتويج الملك يتزينون بالملابس المغربية ويقضون هذه الأيام في الغناء والصخب ودق الطبول والموسيقى، أما الملك والحاشية وكبار الموظفين فإنهم يتزينون بأساور وسلاسل من ذهب[63].

أما في حالات الوفاة فإنهم يسيرون خلف الجنازة في خشوع كبير، ويدفن الميت في الغالب يوم وفاته، ولكن الطبقة الأولى مثل الملوك والولاة والمواطنون الكبار فإنهم يدفنون بعد أيام من وفاتهم، وكانت للأسرة الحاكمة أي الأسكيين مقبرة خاصة في جاو[64].

وكان القاضي هو الذي يفصل في معظم الخلافات التي تحدث بين الناس ويعهد إليه بأموال اليتامى والغائبين.

أما الفلاحون فكانوا يعيشون في مساكن مستديرة في تجمّع واحد وكانت هذه المساكن من الأكواخ، وإجمالاً كان المجتمع في سنغاي مجتمعاً بسيطاً عنصره الأساسي هو الروابط الأسرية التي شكلت بنيته الاجتماعية.

4 ـ الحياة الثقافية والفكرية:

أخذ تيار الثقافة العربية الإسلامية طريقه إلى سنغاي متسرباً إليها من المراكز الثقافية والفكرية في المغرب الأقصى والأندلس، ولم تقف الصحراء حاجزاً دون هذا النشاط، فمع بداية القرن الحادي عشر الميلادي أخذ الإسلام كما رأينا في الانتشار حسب المناطق التي وجد بها وترك بصماته على العقائد الموجودة والحياة الاجتماعية والثقافية والواقع أن اتصال سنغاي بالمغرب كان

(63) انزر سينسكي ص 216، والسعدى ص 122 زبادية ض 218.
(64) قداح، إفريقيا الغربية، ض 115.

له أثره الواضح في التأثر بحضارتها وأخذهم الإسلام على المذهب المالكي والكتابة على الطريقة المغربية[65]، وقد عمّت هذه الثقافة غانا ومالي وتأثرت جميعها بالثقافة العربية الإسلامية الوافدة من الشمال الإفريقي والتي اتسعت رقعتها في تلك الجهات، وقد كان أثر الإسلام واضحاً في تقليله من المفاهيم الخاطئة التي كانت سائدة وتسيطر على عقول الناس مثل السحر وخاصة في عهد المملكة الأسكية حيث اجتهد في القضاء عليه واعتبروه أوهاماً لا تليق بدولة مسلمة متفتحة على العالم، وقد كان أهل سنغاي يعبدون ما يسمى «هولي» أو القرائن، ويعبدون الجن ويعملون على كسب رضاهم أي أن معبدهم كان يضم عدداً كبيراً من الآلهة، منها إله النهر وإله الصواعق، وكانت أسرة السني والأسكيا يحظون باحترام الناس وكانوا في نظرهم يحمون المجتمع من الأرواح الشريرة، وقد ساعد على القضاء على هذه البدع انتشار الإسلام بينهم ووجود العلماء والفقهاء بينهم حيث تمت الاستعانة بإرشادات كبار العلماء مثل السيوطي[66] حيث تمّت محاربة الأوثان وفرض نظام القضاء على المذهب المالكي وتمت الدعوة إلى الجهاد ضد قبائل الموسى والوثنية.

وقد عرفت سنغاي في أيام الأسكين كل المعارف التي توصل إليها العالم الإسلامي سواء عن طريق الكتب التي ترد إليها بكميات كبيرة أو عن طريق التجارة والفقهاء، وتحقق هذا الأزدهار الثقافي بفضل ما تميزت به سنغاي من اجتذاب عدد من العلماء المسلمين وتكريم الملوك لهم أعظم تكريم وعملهم في مجال التدريس والقضاء، وبدأ الإنتاج والتبادل الثقافي فألفت العديد من الكتب في فروع الفقه والمنطق والعروض والنحو والتاريخ، ألفها علماء سودانيين ومن

---

(65) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ط 2، الجزائر، الوطنية للنشر، 1977، ص 85 وانظر أيضاً، فضل الله، ص 119.

(66) السعدى، ص 76.

المغرب العربي، وكانت جميع أنواع المعارف تدرس باللغة العربية وهي لغة الكتابة الرسمية[67].

وكان المعلمون في جميع جهات المملكة على اختلاف طبقاتهم يحظون باحترام كبير سواء من الأهالي أو السلطة، وتلقى أبناء سنغاي علومهم في جامعتي القرويين بفاس والأزهر بالقاهرة وهم الذين اجتهدوا حتى بلغت علومهم القمة وصارت مدنهم مراكز لهذه الحركة الفكرية[68].

---

(67) زبادية، ص 38.

(68) عيسى، العلاقات حربية، ص 74.

ثبت مصادر ومراجع الكتاب

أولاً: المصادر العربية

1 ـ الكتب:

أ ـ المصادر:

ـ أبو عبدالله البكري، **المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب**، بغداد، مكتبة الثنى، د. ت.

ـ أبو القاسم ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت.

ـ أبو بكر بن محمد الهمداني، **البلدان**، مطابع بريل، ليدن، 1986.

ـ أبو عبدالله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار بيروت للطباعة والنشر.

ـ أبو العباس ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ 7، حققه إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1971.

ـ ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، حققه إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1971.

ـ أبو الحسن علي بن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، حققه إسماعيل العربي، بيروت، المكتبة التجارية، 1970.

ـ ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، جـ 1، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1971.

ـ ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، جـ 2، القاهرة، المطبعة الخيرية، 1904.

ـ أحمد بن أبي يعقوب، **تاريخ اليعقوبي**، جـ 1، بيروت، دار صور، 1960.

- أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشا في كتاب الأعشا**، جـ 15، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت.
- البلاذري، **فتوح البلدان**، دار المكتبة العلمية، بيروت، 1970.
- تقي الدين بن أحمد بن علي المعريزي، **الإلمام بأخبار من الحبشة من ملوك الإسلام**، القاهرة، 1923.
- تقي الدين بن أحمد بن علي المعريزي، **الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك**، حققه جمال الدين الشيّال، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1953.
- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ط 2، ت محمد الحجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.
- حمد بن حسين الجيمي، **سيرة الحبشة**، القاهرة، 1941 **دائرة المعارف الإسلامية**، المجلد الخامس، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
- زكريا بن أحمد القزويني، **آثار البلاد وأخبار البلاد**، بيروت، دار صادر، 1967.
- السلاوي أبو العباس أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، 1954.
- شمس الدين أبو عبدالله الدمشقي، **تحفة الدهر في عجائب البر والبحر**، دار أوتو بطريبرغ، 1923.
- عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ط 1، القاهرة مطبعة الاستقامة، 1946.
- عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، باريس، 1964.
- عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، **تقويم البلدان**، باريس، 1964.
- عرب فقيه الجيراني، **فتوح الحبشة**، جـ 1، نشر رينيه باسيه 1909.
- لسان الدين بن الخطيب، **أعمال أعلام فيمن بويع قبل الاحتلام**، حققه أحمد مختار العبّادي، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964.

- محمد عبد المنعم الحميري، **الروض العطار في خبر الأقطار**، حققه إحسان عباس، بيروت، دار القلم، 1985.
- محمد بن عبدالله بن محمد بن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1966.
- محمد بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في الممالك والأمصار**، جـ 1، نشر أحمد زكي باشا، القاهرة، 1924.
- مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول، الإسكندرية، 1958.

أ ـ المراجـــع:

- إبراهيم طرخان، **إمبراطورية البرنو الإسلامية**، القاهرة، 1963.
- أبو الوفا الغنيمي، **مدخل إلى التصوف الإسلامي**، دار الفكر، ب. ت، 1972.
- أبو بكر باه الفوتي، **تاريخ فوتي السنغالية**، القاهرة، 1956.
- أحمد سويلم العمري، **الإفريقيون والعرب**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967.
- أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، جـ 6، ط 14، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1983.
- إسماعيل العربي، **حاضر الدول الإسلامية في القارة الإفريقية**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- أرنولد توماس، **الدعوة الإسلامية**، ت، حسن إبراهيم حسن، القاهرة، 1971.
- أمين توفيق الطيبي، **بحوث ودراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984.

- ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ت عبد الرحمن بدوي، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع والإعلان، 1969.
- **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد السابع، **إفريقيا في ظلّ السيطرة والاستعمار**، اليونسكو اديفرا، 1990.
- حسن إبراهيم حسن، **انتشار الإسلام في القارة الإفريقية**، ط 2، القاهرة مكتبا النهضة المصرية، 1964.
- حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، جـ 1، القاهرة، 1960.
- خامد عثمان، **المسلمون في العالم، قضايا وتحديات**، جـ 1، مالطا، دار إقرأ، 1990.
- حسن عيسى عبد الظاهر، **الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دول الفولاني، مطلع القرن 12 الهجري**، الرياض، جامعة الإمام محمود بر سعود، 1981.
- جان بول رو، **الإسلام في الغرب**، ت. نجده هاجر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1960.
- خالد الصوفي، **محاضرات في تاريخ العرب الحديث**، الجامعة الليبية بنغازي، 1981.
- داتز، **الحضارة الإسلامية والتاريخ الإفريقي**، ت، محمود نسيم، بيروت 1969.
- دافدسون (بازل)، **إفريقيا تحت أضواء جديدة**، ت، جمال الدين أحمد بيروت، دار الثقافة العربية، ب. ت.
- دنيس بولم، **الحضارات الإفريقية**، ت. دار الحياة، بيروت 1965.
- دونا لدويغر، **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء**، ت، راند بدوي، القاهرة، دا الجبل، ب. ت.
- ديفرسون، **لمحات من تاريخ إفريقيا**، ت، مركز البحوث والدراساد الإفريقية، طرابلس، مطابع الثورة العربية.

- زاهر رياض، **الممالك الإسلامية**، القاهرة، 1970.
- سعيد عبد الرحمن الحنديري، **العلاقات الليبية التشادية 1843 ـ 1970**، طرابلس، مركز الجهاد، 1983.
- سير توماس أرنولد، **الدعوة إلى الإسلام**، جـ 2، ت حسن إبراهيم حسين وآخرون، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967.
- سينكيي مودي سيسوكو، **الصنغاي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر**، جـ 4، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1988.
- شارك أندريه جوليان، **تاريخ إفريقيا**، ت طلعت عوض أباظة، القاهرة دار النهضة المصرية، 1962.
- شوقي الجمل، **كشف إفريقيا واستعمارها**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971.
- صلاح الدين الأيوبي، **الإسلام والتمييز العنصري**، ط 2، سوريا، دار الأندلس 1981.
- صفي الدين محمد، **إفريقيا بين الدول الأوربية**، القاهرة، 1955.
- عبد الرحمن زكي، **تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية**، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1961.
- عبدالله محمد زروق، **قضايا التصوف الإسلامي**، الخرطوم، دار الفكر للطباعة والنشر، 1985.
- عبدالله عبد الرزاق إبراهيم، **المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا**، الكويت، عالم المعرفة، 1989.
- عصمت عبد الحفيظ دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981.
- عثمان صالح سبي، **تاريخ أرتيريا**، بيروت، شركة النهار للخدمات الصحفية، 1974.
- عبد القادر محمود، **الفلسفة الصوفية في الإسلام**، مصادرها ونظرياتها

ومكانتها من الدين والحياة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1966.
- فتحي غيث، **الإسلام في الحبشة عبر العصور**، القاهرة، 1962.
- ماهر صبحي رزق، **غانا أرضاً وشعباً ودولة**، طرابلس، ومركز البحوث والدراسات الإفريقية، ب. ت.
- محمد فتح الله الزيادي، **انتشار الإسلام وموقف المستشرقين فيه**، دمشق دار قتيبة، 1990.
- محمد أحمد حسونة، **أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية**، القاهرة، دار النهضة ب. ت.
- محمد عبد القادر أحمد، **المسلمون في غينيا**، القاهرة، 1986.
- محمد المبروك يونس، **تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الإفريقية**، 1952 ـ 1977، طرابلس، 1988.
- محمد عبد الفتاح إبراهيم، **الثقافات الإفريقية**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1965، **إفريقيا من السنغال حتى نهر جوبا**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967.
- محمود متولي ورأفت الشيخ، **إفريقيا في العلاقات الدولية**، القاهرة، دار الثقافة، 1975.
- محمود خيري عيسى، **العلاقات العربية الإفريقية**، القاهرة، دار الطباعة الحديثة 1977.
- مراجع عقيلة الغناي، **قيام دولة الموحدين**، بنغازي جامعة قاريونس 1988.
- مراجع الغناي، **سقوط دولة الموحدين**، بنغازي-جامعة قاريونس 1988.
- مقداد بايحن، **فلسفة الحياة الروحية**، بيروت، دار الشروق للنشر 1985.
- نعيم قداح، **حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية**، دمشق، مكتبة أطلس 1963.
- **إفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام**، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1990.

- ونيس سعيد، **الحبشة في متقلب تاريخها**، القاهرة، 1966، يولم اديس، الحضارة.
- يولم اديس، **الحضارة الإفريقية**، ت علي شاهين، بيروت، مكتبة الحياة.
- يوقيل، **تجارة الذهب**، ت الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز بنغازي، جامعة قاريونس 1988.

ج ـ البحـــوث:

- إبراهيم حركات، «**دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، ن، مركز الجهاد.
- أحمد الشامي، «**نظرات في هجرة المسلمين إلى الحبشة**» المؤرخ العربي، العدد 16، بغداد 1981.
- أحمد بن خليفة محمد، «**عروبة السنغال وإسلامه**» محاضرات الموسم الثقافي، 1979 ـ 1980 طرابلس، مركز الجهاد، 1989.
- أحمد الياس حسين، «**انتشار الإسلام في شرق إفريقيا**» محاضرات الموسم الثقافي الأول، 1979 ـ 1980، طرابلس، مركز الجهاد 1989.
- أحمد سعيد الفيتوري، «**الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1981، طرابلس، مركز الجهاد.
- إدريس الحرير «**العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلاد جنوب الصحراء وأثرها في نشر الإسلام**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثالث 1977، طرابلس، مركز الجهاد.
- أمين الطيبي، «**وصول الإسلام وانتشاره في كانم وبرنو**» مجلة الدعوة، العدد الرابع 1987، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية.
- أمين الطيبي، «**دور المرابطين في نشر الإسلام في السودان العربي**» مجلة الثقافة العربية، العدد الثاني 1987، الجماهيرية، مؤسسة الثقافة.

- الأمين عبد الكريم «**الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا إلى نهاية بالوفرناندو**» نظام تجارة تادمكه وجاوكاو وكوكيا في إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على امتداد طريق التجارة عبر الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1981، طرابلس، مركز الجهاد.
- جبريل بنياتي «**مالي والتوسع الثاني للماندنغ**» تاريخ إفريقيا العام، جـ 4، باريس، اليونسكو، 1988.
- تيرنس دالاس، «**تجارة القوافل بين ليبيا ومصر**» دور عبدالله الكحال، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1981، طرابلس، موطن الجهاد.
- حسين مؤنس، «**فزان ودورها في نشر الإسلام في إفريقيا**» مجلة كلية الآداب، بنغازي، 1969.
- عبد العزيز كامل «**الرسول والتفرقة العنصرية**» المؤرخ العربي، العدد 16، بغداد 1981.
- عبد المولى الحرير «**الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية والاقتصادية في إفريقيا جنوب الصحراء**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثالث، 1989، طرابلس، مركز الجهاد.
- عبد القدار زباديه «**ملامح الحركة في تمبكتو خلال القرن السادس عشر**» مجلة البحوث التاريخية، العدد السادس، 1971، طرابلس، مركز الجهاد.
- عطية مخزوم الفيتوري، «**فرنسا ومشكلة الحدود الليبية**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1989، طرابلس، مركز الجهاد.
- عمر أحمد سعيد، «**دور حركات التجديد الإسلامي في إفريقيا**» مجلة بحوث نصف شهرية، العدد السادس، فبراير، 1981، الخرطوم، المركز الإسلامي الإفريقي.
- عمر طلعت زهران، «**الإسلام في مدغشقر**» مجلة الأزهر، المجلد 22، وجـ 6، القاهرة، جامعة الأزهر 1950.
- فريد اليحكي، «**إفريقيا فيما قبل التاريخ**» محاضرات الموسم الثقافي، الأول 79 ـ 1980، طرابلس، مركز الجهاد، 1989.

- قمر الدين محمد فضل الله، «**لمحة تاريخية عن مملكة سنغاي الإسلامية**» مجلة الدعوة الإسلامية، العدد الخامس، طرابلس، 1984.
- كاتي. د. أ. م، «**مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، مركز الجهاد.
- محمد مرزوق، «**العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1985، طرابلس، مركز الجهاد.
- محمد السيد غلاب، «**الوطن العربي والاتصالات العالمية**» المجلة، العدد 67 القاهرة، 1962.
- محمد مزين، «**المغرب والسودان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**» المؤرخ العربي، العدد 31، الجزائر، المركز الوطني للدراسات التاريخية، 1987.
- مادلياتال، «**تدهور إمبراطورية مالي**» تاريخ إفريقيا العام، جـ 4، بيروت، المطبعة الكاثولوكية 1989.
- محمود عبدالله نجم، «**إفريقيا والاستعمار**» مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1989، طرابلس، مركز الجهاد.
- محمود حسني، «**دراسات في التاريخ الأرتيري**» بحث غير منشور، جامعة قاريونس، بنغازي، 1978.
- نوري أحمد، «**العلاقات العربية الإفريقية**» مجلة السياسة الدولية، العدد العاشر، القاهرة، 1970.
- يوسف فضل حسن، «**البحر الأحمر في التاريخ**»، محاضرات الموسم الثقافي الأول، طرابلس، مركز الجهاد، 1989.

د ـ رسائل وأطروحات.

- إبراهيم موسى جوب، **«الفولانيون ودورهم في نشر الإسلام بغرب إفريقيا»**، رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، طرابلس 1983.
- حامد تراوري، **«الاستعمار الفرنسي وأثاره على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في غرب إفريقيا 1871 ـ 1960»**، رسالة ماجستير ـ كلية الآداب بنغازي 1992.
- سعيد عبدالرحمن الحنديري، **«الحياة السياسية في تشاد منذ الاحتلال الفرنسي حتى نهاية حكم تمبلباي»**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي 1989.
- فريال قاسم حميد، **«الرحلات الاستكشافية الإنجليزية في ليبيا»**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي، 1990.
- كمال ضو الدقير، **«دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان»**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي، 1996.

ثانيـاً: المصـادر الأجنبيـة

- Arnauld (H), **L'Islam ells politique,** Paris, Payot 1929.
- Barth (L) **Les relations entre L'Egypte et L'Afrique de L'Est,** Paris S.P. 1970.
- Bernard (L) **La Politique turque en Afrique,** Paris, 1962.
- Canc (L), **L'Europe et L'Afrique,** Paris, 1945.
- Carbou (H), **La Recion du Tchad et du Ouadia,** T. II, Paris le rouk, 1912.
- Cherbonneau (H), **L'Afrique acant la colonisations,** Paris, 1970.
- Claud (F), **L'Islam et L'Afrique Noire,** Paris, J.P, 1927.
- Copans (L), **Histoire de L'Afrique Noire,** Dakar, 1982.
- Coranec (J), **La Region du Haut Ginia,** Paris, P.J., 1971.
- Deschamps (O), **Histoire du Congo,** Paris, Berger 1970.
- Despoid (L), **L'Afrique Noire,** Paris, P.L. 1062.
- Duffy James, Portuguese Africa, London, 1969.
- Ellot (H) **The East Africa,** London, 1905.
- Felex du bois, **Tomboukto,** Paris, 1979.
- Foge (D.H), **History of Adrica,** London, 1972.
- Ganaig (T), **Voyage en Afrique,** Paris Marchal, 1962.
- Ganle (T.S), **Afrique Noire Occidental et Central,** Paris, 1973.
- Gang (S), **L'Aislam au Somal,** Paris, Payot, 1969.
- Cray (M), **History of Ghana,** Ghana, L, 1960.
- Gueneron (L), **Lrs Garamantes,** Paris, P.U. 1962.
- Gargeaves (T), **West Africa, the forme frenche** states enelwood cliffe N.J Frentice, Hall, 1976.
- Herve (L) **L'Impire formanne, Paris** Presse Universitaire, 1971.
- Holt (N.A). **Modern History of Somal,** London U.D 1972.
- Ibrahim Baba Kake, **La Discolonisations des Grante empires,** Paris, 1978.
- Jaunet (H), **History de L'Afrique occidentale Franc5aise,** Paris, 1949.
- Jaque (M), **L'Anncienne Egypte el L'Afrique** Jean Afrique, Mais, 1972.
- Jaque (P), **Les Voyages en Afrique,** Paris Matin, 1923.

- Juan (H), **HIstoire de L'Afrique occidentale Francaise,** Paris Fernand Nathan, 1971.
- Jaunet (T), **Histoire du Sudan Francaise 1878, 1889,** Paris, 1901.
- Jaque (L), **Histoire des Pirates,** Paris, S.P. 1917.
- Jean (C), **L'Afrique Noire Occidental et Centrale,** Paris, E.S. 1972.
- Jean Claud (M), L'Afrique et cultore, Metae, Culture, No 102, 1978.
- John (A), **History of Africa,** London, 1965.
- Johan (M), **L'Afrique occidental,** Paris, 1970.
- Kemith (I), **A History of East Africa,** London, 1964.
- Lauas (M), **Description de L'Afrique,** Paris, 1967.
- Mage (H), **Voyage dans la Sudan Occidental 1963- 1866,** Paris, 1980.
- Mage (L), **Histoire de L'Islan en Afrique,** Paris, Payot, 1970.
- Mage (O), **Les tribus Somaliennes,** Paris, 1960.
- Mani (L), **Giographie de L'Afrique,** Broxells 1970.
- Marc (L), **Histoire des Villes Africainnes** Broxelle, B.D., 1961.
- Marc (L), **Histoire du Ghana,** Paris, DR, 1962.
- Makr (L), **The Arab World and Somal,** London, 1978.
- Martin (L), **Histoire du Somal,** Paris, Part 1962.
- Martin (S), **Histoire de L'Islam en Afrique,** Paris. J.A. 1972.
- Martin (N), **Les Banrois,** Paris, P.U, 1917.
- Martin (L), **Les Juifs en Afrique,** Paris, L.S.R. 1962.
- Marious (L), **Etudes sur L'Histoire d'Egypte,** Paris, 1966.
- Moneill (V), **L'Islam en Afrique,** Paris, Payot 1958.
- Frox (E), Au Sudan Francaise, **Paris, 1991.**
- Oliver (M), **History of East Africa,** OxFord, 1963.
- Robert (B), **Histoire de L'Islam au Tchad Paris, S.L. 1970.**
- Rymond (S), **Etudes sur L'Islame en Afrique,** Paris, 1964.
- Rymond (F), **Commerces de L'Afrique,** Paris, 1992.
- Smmons (L), **A History of Islam in East Africa,** London, 1966.
- Smith (E), **The History of Somal,** Vol II, London, H, World 1959.
- Wekermarck (E), **Etudes sur L'Imigrations de Tribus en Afrique avant L'Islam,** Paris, Trad. F.R. 1935.
- Zeltner (I), **Pages D'histoire du Kanem,** Paris, Ledutions L/Harmantau, 1980.

الفهـــرس

رقم الايداع 3347 / 98
دار الكتب الوطنية - بنغازى